الطبعة الثانية

سلمان العودة

أسئلة العنف







salman_alodah

جائعٌ لا يشبع، جائرٌ لا يعدل، يلتقط ضحاياه في أقرب فرصة، مسرفٌ في عدوانيته، أعمى حين يقدم..

سنوات وهو لم يطبق فكَّيه، كان يرقبنا من خلف التلال، وفي كل لحظة يستثار يخرج من مكمنه، سارقًا أحبابًا وصغارًا وشيوخًا وآمنين..

كان يُحاط بالتصفيق والابتهاج من البعض، والبكاء والدمدمة من آخرين..

أطلَّ قديمًا، فواجهه رسولُنا ﷺ بـ: «كيف تصنعُ بـ: «لا إله إلا الله» إذا جاءت يومَ القيامة»..

كانت المواجهة حازمة صريحة واضحة.. لم يبحث عن التبرير، ولا عن جوع النفوس المتطلِّعة إلى النشوة.. ولم يأذن لهم بأن يختصروا طريق الجنة بهذه البشاعة..

هذا «العنف» شجرة بلا ظل.. ونهر بلا ماء.. وسحابة سوداء لا تُمْطِر..

فالمقصد الأعظم من هذا الكتاب هو معالجة موضوع القتل، وما يسبقه من التكفير، كما يوضِّحه قول المصطفى ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفارًا، يضربُ بعضُكم رقابَ بعض». ودعوة المسلمين شعوبًا وحكومات وجماعات إلى الإحساس بالمسؤولية عن الواقع المرير لهذه الأمة.

وقد قام د. العودة في هذا الكتاب بإعادة ترتيب وتنسيق وتحرير مجموعة من الأبحاث والكتابات والمقالات التي نشرها حول «ظاهرة العنف»، لتخرج جميعها في كتابٍ واحد.

الثمن: ١٠ دولارات
أو ما يعادلها

ISBN 978-614-431-104-2





د. سلمان العودة

أسئلة العنف



جسور للترجمة والنشر

الفهرسة أثناء النشر - إعداد جسور للترجمة والنشر

أسئلة العنف/ د. سلمان العودة.

٣٩٨ص.

ISBN 978-614-431-104-2

١. الإسلام والسياسة. ٢. النواحي الدينية.

أ. العنوان.

297

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر
بالضرورة عن وجهة نظر جسور للترجمة والنشر»

الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٥

الطبعة الثانية، بيروت، ٢٠١٥

جسور للترجمة والنشر

لبنان - بيروت

josour.pub@gmail.com

الإهـــــداء

إلى صنَّاع العنف عبر العالم..

إلى الشاب الذي حدَّثته نفسه بالرحيل إلى مناطق القتال..

إلى مَن يتخذ قرار القتل بغير هدًى من الله..

بسم اللہ الرحمن الرحیم

جائعٌ لا يشبع، جائرٌ لا يعدل، يلتقط ضحاياه في أقرب فرصة، مسرفٌ في عدوانيته، أعمى حين يقدم..

سنوات وهو لم يطبق فكَّيه، كان يرقبنا من خلف التلال، وفي كل لحظة يستثار يخرج من مكمنه، سارقًا أحبابًا وصغارًا وشيوخًا وآمنين..

كان يُحاط بالتصفيق والابتهاج من البعض، والبكاء والدمدمة من آخرين..

لم نكن صفًّا واحدًا لمواجهته، كنا نبحث عن مزيد ضحايا حين يهرب.. ضحايا التخوين والتجريم، ومَن فتح الباب له..

يعود إلى مكمنه مزهُوًّا بغنائمه، ونعود إلى قريتنا ممتلئين بوحشتنا.. ونحن نعرف من أي نافذة يطل، ومن أي باب يلج، وفي كل مرة نجبن عن مواجهة لا بد منها!

أطلَّ قديمًا، فواجهه رسولُنا ﷺ بـ: **«كيف تصنعُ بـ: «لا إله إلا الله» إذا جاءت يومَ القيامة»**..

كانت المواجهة حازمة صريحة واضحة.. لم يبحث عن التبرير، ولا عن جوع النفوس المتطلّعة إلى النشوة.. ولم يأذن لهم بأن يختصروا طريق الجنة بهذه البشاعة..

هذا «**العنف**» شجرة بلا ظل.. ونهر بلا ماء.. وسحابة سوداء لا تُمْطِر..

أعود الآن بذاكرتي إلى زمن كنا فيه حفاة أمام شوك «**العنف**».. وعراة أمام ضوئه.. ألتقطُ ورقات كتبتُها في ذلك الزمن، وواجهت هجمة غير متزنة، ولكنها غير مستغربة، وبعضها لَحِقَ متأخرًا..

هي أبحاث كُتبت في فترات متباعدة، ومقالات نُشرت في أحداث متفرِّقة، يؤلِّف بينها أنها ذات موضوع واحد، تتمحور حوله أو تقاربه أو تباشره، هو موضوع «**العنف والإرهاب**»، وتوابعه، كـ«**المقاومة والجهاد والتكفير**».

أرجو أن يكون القصد فيه استبانة السبيل، ووضوح الرؤية، والتماس رضى الله تعالى.

وفي أثنائه ثغرات ونقائص ومآخذ، والمؤمنون نَصَحَةٌ، فاقتَبِسْ منه النافع، وأضف إليه، وعدِّل، واقترح ما تراه... مشكورًا، مذكورًا، مدعوًّا لك بالأجر والمثوبة على النصيحة وصدق الإخاء..

هنا في هذا الكتاب، سنتحدث عن «**العنف**»، ومنه «**العنف**» الذي تقوم به بعض الجماعات في أنحاء عديدة من البلاد العربية والإسلامية، وربما تتجاوزه إلى أبعد من ذلك.

ما فعلتُه في هذا الكتاب هو إعادة ترتيب وتنسيق وتحرير مجموعة من الأبحاث والكتابات والمقالات التي نشرتها حول «**ظاهرة العنف**» ما بين عامي (١٤٢١هـ) إلى (١٤٣٦هـ)، رأيتُ أن أجمع النظير إلى نظيره؛ لتخرج جميعها في كتاب واحد.

ووزعت فصول الكتاب إلى مدخل، وقسمين، وملحق:

* **المدخل:** ضمّنته بعض ما كتبته من مقالات، شرحتُ فيها موقفي من العنف بوضوح لا لبس فيه.

* **والقسم الأول:** ضمّنته ما كتبته حول تحليل ظاهرة العنف، والبحث في أسبابه، ومعالجاته.

* **والقسم الثاني:** ضمّنته ما كتبته حول عدد من القضايا الشرعية الكبرى التي بُني عليها.

* **أما في الملحق،** فقد أضفت مجموعة مراسلات كانت تَرِدني على موقعي الشخصي، من الشباب من الجزائر والمغرب إلى مصر إلى الخليج، يتساءلون فيها عن موضوعات ذات علاقة بـ«العنف»، مثل الذهاب إلى مواطن القتال، أو حكم التفجيرات، أو غير ذلك من المسائل.

د. سلمان العودة

الرياض



فهرس المحتويات

القسم الثاني

العنف.. مفاهيم تصحيحية



مدخل
قولي في العنف



إنه العنف

لا بأس، كنتُ عنيفًا في نقدي «للعنف»، دعوني أعترف!

قد يكون العنوان ذاته دليلًا على تَشرُّب «العنف»، فماذا لو عبَّرنا بـ«الرحمة»؟!

إن الوصف بالرحمة تعبير متفائل حقًا، ولكنه أقل كفاءة في نقد الواقع وتصويره.

كثيرون ضمن مجتمع العنف يمارسون قسوة على الآخرين، ويوزعون المسؤوليات، ويستثنون أنفسهم!

إن العاطفة الحية هي المادة الرابطة بين لبنات البناء، ومن دونها يقع الاحتكاك، وينهار البرج المشيد.

فكيف إذا فُقدت هذه الرابطة، وحَلَّ محلها النقيض، وهو القسوة والجفاء؟!

ثمة مجالات كثيرة للأذى إذا فقدت القلوب ترابطها...

وحتى الأذى لا يستطيع القانون دائمًا أن يُمسك به، ولا يدينه؛ لأنه من الخفاء بمكان، وما ممارسات العنصرية هنا وهناك عنا ببعيدة.

أرأيتَ لاعب الكرة حين يتلطَّف في تعويق حركة صاحبه، أو إسقاطه، من دون أن ترصده كاميرات التصوير، أو يلحظه الحكم؟

إنها القصة التي تتكرر كل لحظة في مكان ما... في البيت، أو العمل، أو المتجر، أو الإدارة، أو ساحة الحياة.

قسوة الصحراء، أو قسوة الحياة في المروج الخضراء تطبع أخلاقيات المجتمع، فيتعامل الناس كالتروس الصماء، تسمع صرير احتكاكها من بعيد.

وردت كلمة «القسوة» في القرآن الكريم في سبعة مواضع، كلها في سياق الذم، وكفى بهذا تنفيرًا وتحذيرًا؛ منها: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ [البقرة: ٧٤]، ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنعام: ٤٣] ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ [الزمر: ٢٢]، ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣].

وفي الحديث: «**ألَا إن القسوةَ وغلظَ القلوب في الفدَّادينَ...**»[1]. وهم أصحاب المال الكثير المختالون، الذين تعلو أصواتهم في خيلهم وإبلهم وحروبهم.

وفي حديث آخر، أن النبيَّ ﷺ استعاذ من القسوة[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٠٢)، ومسلم (٥١) من حديث أبي مسعود البدري ﷺ.

(٢) كما في حديث أنس ﷺ، أن النبيَّ ﷺ كان يدعو، يقول: «**اللهمَّ إني أعوذُ بك من العجز والكسل.. والقسوة..**». أخرجه ابن حبان (١٠٢٣)، والطبراني في «المعجم الصغير» (٣١٦)، وفي «الدعاء» (١٣٤٣)، والحاكم (١/ ٥٣٠)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» (٣٤٨)، والضياء (٦/ ٣٤٢ ـ ٣٤٤) (٢٣٦٨ ـ ٢٣٧٠). وينظر: «إرواء الغليل» (٨٦٠).

وبالمقابل وصف الله ذاته بالرحمة، وكتبها على نفسه، وسبقت رحمتُه غضبَه[1]، والرحمة لا تُنزع إلا مِن شقيٍّ[2]، والشاة إنْ رحمتَها رحمك الله[3]، وإنما بعث اللهُ نبيَّه محمدًا رحمة للعالمين[4].

فالرحمة أسلوب الأقوياء المسيطرين على دوافعهم ونوازعهم، والقسوة أسلوب الخائفين الضعفاء البطاشين المتغطرسين.

نحن نتحدَّث عن مجتمعنا الإسلامي والعربي؛ لأننا نحس بمشكلته، وندري فداحة الضرر من تنامي مشاعر العنف فيه أكثر من غيره، وإن كنا ندرك أن العنف أصبح شعارًا سائدًا في عالم السياسة، والإعلام، والحركة الاجتماعية.

يجب أن نتصارح؛ لأن بناء المستقبل وصناعته يقومان على الترقي والتصحيح والوضوح في التعرُّف إلى الأخطاء ومعالجتها.

---

(١) كما في حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لما قضى اللهُ الخلقَ، كتب في كتابه، فهو عنده فوقَ العرش: إن رحمتي غلبت غضبي». وفي رواية: «سبقت غضبي». أخرجه البخاري (٣١٩٤، ٧٤٢٢)، ومسلم (٢٧٥١).

(٢) كما في حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تُنزعُ الرحمةُ إلا من شقيٍّ». أخرجه الطيالسي (٢٦٥٢)، وأحمد (٨٠٠١)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٧٤)، وأبو داود (٤٩٤٢)، والترمذي (١٩٢٣)، وابن حبان (٤٦٢)، والحاكم (٤/٢٤٨).

(٣) كما في حديث قرة بن إياس المزني ﷺ قال: قلتُ: يا رسولَ الله، إني لآخذُ الشاةَ لأذبحها، فأرحمها، فقال: «والشاةُ إن رحمتها رحمك الله». أخرجه أحمد (١٥٥٩٢، ٢٠٣٦٣)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٧٣)، والحاكم (٣/٥٨٦)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٦).

(٤) كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ويجب أن نستشعر العار من هذه السوأة، ونسمح لها بالرحيل، غير مأسوف عليها.

ثمة ألوان من العنف تحتاج إلى مِبْضَع الجرَّاح:

أ ـ العنف الاجتماعي، كالعنف ضد المرأة، أو ضد الأطفال، أو ضد الضعفاء، أو الغرباء، أو قيم العنف التي أصبحت ثقافة يتلقاها الناس، ومنها العنصرية البغيضة المتأصّلة في ثقافات الشعوب، ونحن منها.

ب ـ عنف المثقَّفين، الذين يقدِّمون أنفسهم ـ أحيانًا ـ على أنهم ضحايا العنف، وهم أساتذته، وتكشف الأحداث البون الشاسع بين الأُطروحات النظرية والممارسة الواقعية التي صنعت خندقًا يصعب ردمُه بين التيارات المختلفة.

ج ـ العنف السياسي، سواء تمثَّل في عنف الأنظمة وبطشها، أو في عنف الجماعات المعارضة، وكلاهما مدان مرفوض.

إن الإنسان يقرأ طبيعة البلد من عنوانه، ومن أول وهلة، فموظف الجمارك والمطار ورجل المرور والبائع وموظف الاستقبال، هم النماذج التي تكوِّن الانطباع الأولي عن حالة الناس.



مصارحة

حين كتبتُ عن إدانة العنف والتفجير الذي تمارسه بعض التنظيمات الإسلامية، عاتبني بعض أحبتي وصارحوني بخوفهم عليَّ من كلمات طائشة تقدح في عِرضي، أو ما هو فوق ذلك، وكنتُ أقول: إن الأمر يحتاج إلى وضوح ومكاشفة، ولم أشعر بأهمية تُذكر للمخاوف التي يتحدثون عنها.

كنتُ وما زلتُ أدعو علماءنا ودعاتنا المخلِصين إلى تسمية الأشياء بأسمائها الحقيقية، والوضوح في إدانة أعمال تقتل الأبرياء، وتزعزع السكينة والاستقرار في بلاد الإسلام، أو في بلاد بيننا وبينها عهد وميثاق؛ تجب رعايته واحترامه بنص الكتاب العزيز: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١].

وليس أحد من أفراد الناس مفوَّضًا بنقض الاتفاق، ولا بإعلان الحرب، مهما كانت الأوضاع والظروف والأحوال.

وأنا اليوم أؤكِّد أهمية التواصي بالوضوح في إدانة جرائم الفساد في الأرض، التي تمارَس باسم الإسلام، وكشف الغطاء عنها بأسمائها، ولا تكفي الغمغمة أو التعميم أو الإجمال.

وأستثني من ذلك مقاومة المحتل والدفاع عن الوطن، كما في الحالة الفلسطينية التي هي محل إجماع، وما ماثلها من حالات قيام شعبي عام على نظام فاقد للشرعية،كما هي الحال في ليبيا سابقًا، وفي سوريا.

وأُلِحُّ على ضرورة تفكيك بعض المقولات والفتاوى التي يستند إليها بعض أبنائنا في منطلقاتهم، وهي موجودة في تراثنا الفقهي وتاريخنا القريب والبعيد، ويتم التعامل معها بقدسية وتسليم.

ومن هنا أوصي نفسي وإخواني من الخطباء والمتحدِّثين والكتَّاب؛ أن نستخدم أوضح الأساليب وأبيَنَها في إنكار هذا المنكر العظيم، الذي فيه سفك الدماء، وتدمير المجتمع، وتشويه الإسلام، وتعويق التنمية، والفساد في الأرض، والعدوان على الأرواح، والعبث بالضروريات الشرعية والإنسانية.

وعلينا أن ننأى عن لغة «الكن» الملبسة الموهمة، التي تجعل فئة من الشباب يفهمونها خطأ، ويظنونها جارية مجرى التماس العذر للفاعل المجرم، وكأن الكلام حمَّال أوجه، يُفسِّره كلٌّ على ما يريد.

المقامُ مقامُ فتنةٍ عمياء، **«كلما قيل: انقضتْ، تمادتْ»**، كما في حديث رسول الله ﷺ[1] في فتنة الدُّهَيْماء!

(١) حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا قعودًا عند رسول الله ﷺ، فذكر الفتن، فأكثرَ في ذِكْرِها، حتى ذكرَ فتنةَ الأحلاس. . . وفيه: «.. **ثم فتنة الدُّهَيْماء، لا تدع أحدًا من هذه الأمة إلا لطمته لطمةً، فإذا قيل: انقضتْ. تمادتْ..**». أخرجه أحمد (٦١٦٨)، وأبو داود (٤٢٤٢)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٢٥٥١)، والحاكم (٤/٤٦٦)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/١٥٨). =

وأفضل مَن يفنِّد مقولات العنف ويكشف الغطاء الشرعي عنها؛ هم أهل العلم والفكر، الذين لا يخافون في الله لومة لائم، ولا يترددون في تجريم العمل الفاسد؛ مهما كانت كلفته عالية.

إن هذا الاستنكار هو إحساس إيماني وقناعة عقلية محكمة، لم نمالئ فيها أحدًا ولا جهة ولا طرفًا.

نحن ضد الانحراف والتخريب والإفساد كله أيًّا كان مصدره، والجهة التي تقوم به، وضد ما يمارَس باسم الدين خاصة، كائنة ما كانت التبعة التي تترتب على هذا الإعلان وهذا الاستنكار والإدانة والتجريم.

ليس يهمُّني خصم يأبَى إلا أن يحمِّلني وزرًا أنا منه بريء، فالقول الصادع الذي أجهر به، هو عقيدة راسخة لم تتبدَّل ولم تتحوَّل، ولم تختلف، ولكن الحاجة إلى إيضاحها وتكرارها الآن أهم وألزم من أي وقت مضى، بل منذ اندلعت أعمال العنف، أصبح الحديث المكرر الملح ضرورة دعوية وتربوية وأخلاقية، لكل مَن يهمّه مستقبل هذا الدين، ومستقبل هذه الأوطان، ومستقبل الأجيال القادمة.

إن الله لا يصلح عمل المفسدين، ولا يهدي كيد الخائنين، والذين يقتلون الأبرياء لن يفلحوا، ولن يصلحوا، وسينالهم عقاب الله تعالى، وسيكونون مثلًا لغيرهم، إلا أن يتوبوا قبل ذلك.

= وصحَّحه الحاكم، وردَّه أبو حاتم ـ كما في «العلل» لابنه (٢٧٥٧) ـ بأنه رُوي مرسلًا، ثم قال: «والحديث عندي فليس بصحيح، كأنه موضوع». وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٩٧٤).

ليكن هذا حديث الأب مع أسرته، والأم مع أطفالها، والمدِّرس مع طلابه، والخطيب مع جماعته، والداعية مع مريديه.

وليكن إعلان النكير هنا غير مربوط بحملة رسمية، ولا نفير إعلامي، ولا مصالح خاصة، ولا تكليف وظيفي؛ بل إحساس بمهمة ربانية، وأمانة تربوية، ومعالجة دعوية.

ليكن مدخلًا مناسبًا للدعوة إلى التصالح مع النفس، ومع المجتمع، ومع المخالفين الذين يمكن مدّ الجسور معهم، والتوصل إلى نقاط مشتركة في حفظ الديانة، وإقامة الدنيا.

ولنرتق بتفكيرنا من الانتصار للنفس، أو الدفاع عنها، أو الثأر من الخصوم؛ إلى النظر في المصالح العامة والمستقبل، وما تحتاج إليه الأمة بعوامّها وخواصها، وحكامها ومحكوميها، وأثريائها وفقرائها، وصالحيها وفجّارها؛ فكل هؤلاء من الأمة، ولهم حق الولاية بقدر إيمانهم.

والحديث عن موضوع خطير كهذا لا يجوز أن يُشغب عليه بالحديث عن موضوع آخر، قد يكون مثله أو دونه، وله ميدان آخر، أو رجال مهتمون مختصون.

نعم، الاستبداد والظلم ضاربان بجرانهما في الأرض الإسلامية، وهما منكران واجبا التغيير، وواجب أن يكتب عنهما الدارسون والمحلّلون والشرعيون، وهما من الأسباب الرئيسة في صناعة العنف وتسويقه.

والسكوت عن الحق وممالأة الظالم خطيئة جسيمة، تردَّى فيها بعض المتسببين إلى العلم، وهي مما توعَّد الله عليه أشد الوعيد.

وليس من شرط مَن ينكر العنف أن يدين هذا وذاك في الموضع نفسه وفي اللحظة ذاتها، ولماذا نشترط هذا؟ وهل هو شرط في إنكار كل منكر، أم هو قيد تمحَّله أقوامٌ يريدون أن يشكِّكوا في نيات مَن يناصحهم؟!

إنني أدعو بكل حماسة أبنائي الشباب في المواقع الإلكترونية والمجالس والشبكات الاجتماعية؛ أن يتحاوروا بوضوح حول هذا الموضوع، وأن يتكاشفوا في أسباب التعاطف الخفية وكيف نعالجها، وأن يجتمعوا على المحكمات المسلَّمة الشرعية القرآنية، والأحاديث الصريحة الصحيحة التي بالغت في التحذير من التكفير والقتل والقتال، حتى كانت هذه من آخر وصايا النبي ﷺ على الملأ في حَجَّة الوداع، حين قال: **«لا ترجعوا بعدي كفارًا، يضربُ بعضُكم رقابَ بعض»**[1].



(١) أخرجه البخاري (١٢١، ١٧٤١، ٤٤٠٢، ٤٤٠٣، ٦١٦٦)، ومسلم (٦٥، ٦٦، ١٦٧٩) من حديث جَرير بن عبد الله البجلي، وأبي بَكْرة، وابن عمر ﷺ.



شرارة

أرَى خَلَلَ الرَّمادِ ومَيِضَ جَمْرٍ ... ويوشكُ أن يكونَ له ضِرامُ
فإن النارَ بالعودين تُذْكى ... وإنّ الحربَ أولُها كلامُ
إذا لم يُطْفِها عقلاءُ قوم ... يكونُ وَقودَها جُثثٌ وهامُ
أقولُ من التعجُّبِ ليتَ شِعْريَ ... أأيقاظٌ أميةُ أم نِيامُ[1]؟

رحم الله أرواح الذين قَضَوْا نحبهم من ضحايا العنف هنا أو هناك، وأسأل الله أن يتقبَّلهم شهداء، وأن يُلهم أهلهم وذويهم الصبر، ويخلف عليهم بخير.

إن القتل هو الجريمة التي تخوَّفتها الملائكة حين سمعت بخلق آدم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠].

ولم يرد في الوحي تحذير من ذنب بعد الشرك كما ورد في القتل بغير حق، ويكفي أن: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ﴾ [المائدة: ٣٢].

---

(١) ينظر: «تاريخ خليفة» (ص٣٩٦ ـ ٣٩٧)، و«البيان والتبيين» (١/ ١٤٥ ـ ١٤٦)، و«عيون الأخبار» (١/ ٢١٠)، و«أنساب الأشراف» (٩/ ٣١٣)، و«ربيع الأبرار ونصوص الأخيار» (١/ ٤٥٠) منسوبًا إلى نصر بن سيَّار.

ولا يزال سؤال رسول الله ﷺ لأسامة بن زيد رضي الله عنهما يقرع الآذان بلا جواب: «**فكيف تصنعُ بـ: «لا إله إلا الله» إذا جاءت يومَ القيامة؟**»[1].

فقط: «لا إله إلا الله»، فكيف بالصيام والصلاة والحج وأعمال ستكون خصيمك أمام الله؟

و«**لن يزالَ المؤمنُ في فُسحة من دينه، ما لم يُصِبْ دمًا حرامًا**»[2].

وأعظم من القتل: التكفير، وهو المدخل لاستباحة الدماء والاستخفاف بها، و«**أيُّما امرئٍ قال لأخيه: يا كافرُ. فقد باءَ بها أحدُهما، إن كان كما قال، وإلَّا رجعتْ عليه**»[3].

ولا أعلم في السنة النبوية أن الرسولَ ﷺ أخرج مسلمًا من الإسلام، حتى المنافقون أخذهم بظاهرهم وأمضى عقودهم ومعاملاتهم، ووكَّل سرائرهم إلى الله ليكون تشريعًا من بعده.

ليس من حق أحدنا أن يجعل الآخر أمام اختبار لدينه وإيمانه؛ ليثبت أنه ما زال داخل الدائرة، ويأخذ الآخر دور الحاكم على الناس بالكفر أو الإيمان.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦، ٩٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٦٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري (٦١٠٤)، ومسلم (٦٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وأخرجه البخاري (٦١٠٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

علينا أن نقر بحق شركائنا في الإيمان، وأن الأصل بقاؤهم فيه ما دام ذلك محتملًا ولو بوجه من الوجوه.

وأن نقر بحق شركائنا في الأوطان، فلهم الحقوق ذاتها التي نريد أن نحصل عليها، بدءًا بحق الحياة التي لا يهدِّدها قتل.. إلى الحياة الكريمة الفاضلة اللائقة بخلفاء الله في الأرض: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

الوطن ليس رقعة ضيقة، لا تتسع لأكثر من مجموعة، وليس فكرة محدودة، لا تتسع لأكثر من عقل.. الوطن وعاء، كلنا شركاء فيه، في الحقوق والواجبات والأحلام والأشواق، وحتى المحن والآلام.

إن غرس الكراهية باسم الديانة أو باسم الوطنية، لا يثمر إلا الأحقاد والضغائن، والتمهيد للصراعات الطويلة العريضة، وتأجيج الفتن والحروب، وفقدان ثقة الناس بعضهم ببعض.

ولغة الثأر والانتقام هي خراب الديار، ووقود النار، وعمل الأشرار؛ الذين لا يهمهم إلا مصالحهم الشخصية، ولو على حساب الناس والأرض.

وأعظم صفة يمكن أن تتدارك الانشطار والتمزُّق الذي يهدِّد بلاد إسلامية كثيرة، هي التسامي والتسامح والتعالي على حظوظ الذات، والتصافح والعفو والقدرة الدائمة على نسيان ما فات، والنظر إلى المستقبل وتجاوز الغبن الشخصي إلى فضاء المجموع، وملء الكراسي حول الطاولة المستديرة، المرأة

والرجل.. الشرقي والغربي.. الوسط والطرف.. الفقير والغني.. الصغير والكبير.. حتى لا تتحول الخسائر والأوجاع إلى دم يرميه كل طرف على قميص يوسف الغائب.

تجب إدانة العدوان على حياة الإنسان وحقوقه، وتجريم المجترئين عليه، أيًا كانت أسماؤهم وسحناتهم وادعاءاتهم والبلاد التي مارسوا فيها جريمتهم، وسواء كان القتل بيد حكومات أو جماعات أو أفراد، فالإنسان هو الإنسان والمبدأ لا يختلف.

إنني أحذِّر من دوامة عنف جديدة تجتاح بلاد الإسلام كافة وبلادنا منها، وهي سحابة سوداء لا تُمْطِر خيرًا ولا نفعًا لدين ولا دنيا، ولكنها قد انعقدت وهبَّت عليها الرياح الملقحة من كل جانب، رياح التكفير والتخوين.

وأُحذِّر أبنائي من الاندفاع وراءها، فهي سَراب بِقِيعَة يحسبه الظَّمآنُ ماءً، حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، حتى حين لا يكون أمامك فعل سوى الصبر وانتظار الفرج من الله، فلا تقبل أن تُجَنَّد لأعمال قتل أو تفجير أو تدمير، وإن اعتدى عليك أحدٌ، فكن كخير ابني آدم: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨].

انفجار العنف من جديد هو استنزاف لخيرات الأمة، وإمعان في الضياع، وبُعد عن خطوات الإصلاح التي يأملها المخلصون من كل الأطياف.

يجب أن يتفق الجميع مهما اختلفت رؤاهم وتوجهاتهم ومصالحهم، أن القتل خط أحمر تجب محاذرته ومجانبته، وحتى مجرد التهديد به قولًا هو جريمة يعاقب فاعلها.





القتل بدم بارد

يحفل التاريخ البشري بمشهد عدوان الإنسان على أخيه، منذ قصة ابنَي آدم المذكورة في «سورة المائدة»: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [٣٠].

ويؤكِّد السياق الحكم بالخَسَار وبالندم على القتلة، **فيتحصل عقوبتان:**

أحدهما: شرعية، وهي الخسار، ويتضمن القصاص والذم في الدنيا والعقوبة الأخروية: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

والثانية: قدرية، وهي الإحساس العظيم بالذنب، وتقريع الضمير بعدما تنطفئ فورة الغضب، ويعود الإنسان إلى هدوئه وتفكيره وعقله.

والقتل يتم أحيانًا للصراع على الدنيا والمصالح والمال والنساء والسلطة، ولذا كان ابن السمَّاك يقول: «لولا ثلاثٌ لم يقع حَيْفٌ، ولم يُسَلَّ سيفٌ؛ لقمةٌ أسوغُ من لقمة، ووجهٌ أَصْبَحُ

من وجه، وسِلْكٌ أنعمُ من سِلْك»[1].

وهذه قضية قائمة، يجتهد المخلصون في حصارها وتخفيفها بالتربية والتوجيه والإصلاح، وبالعقوبات والردع والمحاسبة.

بيد أن أشد صنوف القتل عدوانًا، هو ما يقع غلطًا وافتياتًا على الشريعة:

هو الأشد؛ لأنه يستخدم الدين الذي جاء للعدل وحماية الحياة وحفظ الضروريات الإنسانية في نقيض هذا المقصد العظيم، ويضع شريحة من الذين يفترض فيهم حفظ الدماء وحقنها في موضع المباشرين للجرم العامدين إليه المتجرّئين عليه.

وهو الأشد؛ لأنه عصيّ على الإصلاح، أو يقرب أن يكون كذلك؛ فالقاتل لعصبية أو طمع أو دنيا إذا تُليت عليه آيات الله، وسيقت إليه أحاديث رسوله ﷺ المبلِّغ في تعظيم شأن الدم، وشدة العقوبة على القاتل في الدنيا والآخرة، ارتعدت فرائصه إن كان من المؤمنين، واضطرب وخاف، وهذا يورث الندم، والندم طريق التوبة والإقلاع.

أما القاتل بذريعة شرعية موهومة؛ فهو متلبِّس بشبهة أمْلَتْها النفس الأمارة بالسوء، وزيَّنها الشيطان، وحرسها الجلساء والمساندون، ودعموها بزخرف من القول لا حقيقة له، حتى عمي صاحبها عن سواء السبيل، وصُدَّ عن الكتاب المنزَّل.

---

(١) ينظر: «الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيان التوحيدي (ص٤٠)، و«البصائر والذخائر» لأبي حيان (١/ ١٧٠ ـ ١٧١)، و«نثر الدر» لأبي سعد الآبي (٤/ ١٢١).

وقد يندهش بعض الناس من شجاعة هذا القاتل، وهي شجاعة جاهلية، ولأبو جهلٍ كان أشدَّ شجاعةً في بدر حين جُندِل صريعًا يتشحَّط في دمه، ويرى الموت عيانًا... ثم يسأل: لمَن الدائرةُ اليومَ؟!

ويعيِّر صاحبَ رسول الله ﷺ ابنَ مسعود رضي الله عنه لما رَقَى على صدره، فيقول: «لقد ارتقيتَ مرتقًى صعبًا يا رُوَيعِيَ الغنم»[1]!

وكل خُلق لم يُحكم بقيم الإسلام وضبطه؛ فهو إلى إفراط أو تفريط.

إن استهداف أماكن التجمع العامة التي يأوي إليها الناس - كالأسواق والفنادق والقطارات وسواها - لهو غاية في السوء والجراءة، ففيها المسلم العابد المصلِّي، وفيها عابر السبيل، وفيها المسلم العاصي الذي لم يعطك الله الإذن بقتله، وفيها الكافر المعصوم الدم.

فأن يقدم امرؤ على عمل كهذا، فهو الجرم العظيم والإثم المبين، وهوان النفس على صاحبها والجراءة على الله وحدوده.

ولستُ بقاتلٍ رجلًا يصلِّي على سلطان آخرَ من قريشٍ
له سلطانُه وعليَّ إثمي معاذَ اللَّه من جهل وطيشِ
أأقْتُلُ مسلمًا في غير جُرْمٍ فليسَ بنافعي ما عشتُ عيشي[2]

(١) ينظر: «مغازي الواقدي» (١/ ٨٩ - ٩٠)، و«سيرة ابن هشام» (٣/ ١٤٨)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ٤٥٥)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٥٩٧٠)، و«دلائل النبوة» لأبي نعيم (ص٤٧٧)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٨٥ - ٨٦)، و«سير أعلام النبلاء» (١/ ٣١١ - قسم السيرة)، و«البداية والنهاية» (٥/ ١٣٧، ١٥٩).

(٢) ينظر: «طبقات ابن سعد» (٨/ ١٦١)، و«مسند أبي يعلى» (٩٤٧)، و«الثقات» =

ولقد أخبر الخالق العظيم جل وتعالى أن المَوْءُودة تُسأل يوم الدين: ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾!

تُسأل تقريعًا وتهديدًا لقاتلها، وهي كانت جاهلية لم تبلغ الإسلام، وانتصر لها ربها الخالق سبحانه في ذلك اليوم العظيم... فكيف بالبالغين؟

فكيف بالمسلمين؟

فكيف بالقتل الجماعي والعشوائي؟

حسنًا، وما الموقف من عدوان الصهاينة؟

وبغْي القوى العالمية؟

وفضائح التعذيب في المعتقلات؟

وجرائم العدوان على الإنسانية التي تمارسها دوائر باسم (الحرب على الإرهاب)، وهي تزيّف وعي الناس، وتسمّي الأشياء بغير اسمها؟

الحق أننا يجب أن نرفض الانتقائية، سواء كانت انتقائية تدين الإجرام الحادث باسم الإسلام، وتسوّغ الإجرام الآخر وما يرتبط به، أو كانت انتقائية تدين الإرهاب العالمي أو الرسمي، وتتغاضى عن العدوان والقتل باسم الإسلام.

= لابن حبان (٤/ ٤٥ ـ ٤٦)، و«معجم الطبراني الكبير» (٨٥١، ٨٥٢)، و«المستدرك» (٢/ ١٥٧)، و«السنن الواردة في الفتن» لأبي عمرو الداني (١٠٤)، و«سنن البيهقي» (٨/ ٣٣٥)، و«الترغيب والترهيب» لقِوام السنة (٢٣٣٧)، و«تاريخ دمشق» (١٠/ ٤٣)، و«تهذيب الكمال» (٣/ ٤٤٥) منسوبًا إلى أيمن بن خُرَيم.

إن من الصراحة في القول، والحكمة في العمل، أن يدري العاقل أن الجراءة على الدماء «فتنة»، إذا امتدت أكلت الأخضر واليابس، وفتحت على الناس كلهم باب التأويل والتعذير للنفس، ثم تداخلت مع الأهواء والنزعات والعصبيات والمصالح الخاصة، ثم يبدأ التوظيف واستغلال الأحداث من أطراف بعيدة وقريبة.

فهذا الباب يجب أن يظل موصدًا، وأن تُحفظ عصمة الدماء بكل حال، ولا يُتساهل فيها، ولا يُتجرأ عليها، ولا يُقبل التسويغ لفرد أو جماعة أو جهة أو حكومة أن تمارس القتل تحت أي ذريعة، إلا ما أذن به الشرع، وتم تقريره بحكم قضائي عادل نزيهٍ محايد، وبمسبِّبات واضحة جلية؛ فالاحتياط للدماء مطلوب، وفتح باب التأويل يعني أن جهود المخلصين لحفظ دماء الأمة ستذهب أدراج الرياح.

والذين يظنون أن **خلط الأوراق** من مصلحتهم لم يقرؤوا التاريخ جيدًا، ولم يعرفوا سنن الله في الخلق، وليس لديهم رؤية واضحة عما يريدون فعله؛ فالأحداث تتحكَّم فيهم، وتصبح أعمال العنف غاية في حد ذاتها.

أما العدو المحتل الغازي؛ فهذا يُقاوم بقدر المستطاع، وفق شروط وضوابط، وتحت قيادات رشيدة عاقلة حكيمة، تعرف المصالح وتقدرها، وتعرف أين تضع قدمها؟ ومتى تقدم؟ ومتى تحجم؟ ومتى تعمل السلاح؟ ومتى تعمل الحكمة أو «السياسة»؟





القسم الأول

ظاهرة العنف..

قراءة في المشكلة والأسباب والمعالجات



المبحث الأول

العنف.. المشكلة.. والأسباب



أولًا:
العنف.. لماذا؟

إن الحديث عن العنف يحتم علينا القراءة الجادة لأسبابه، ودراسة الأسباب يجب ألَّا تُفهم على أنها تسويغ لشيء منه؛ فهذه أسباب تفسيرية وليست أسبابًا تسويغية.

السؤال المهم: كيف نحصِّن البيئة ضد الأفكار التي يسهل تسربها للشباب في فترة من فترات العمر، وفي ظل ظروف معرفية أو اقتصادية أو اجتماعية أو نفسية تسمح باستنبات تلك البذور الفاسدة؟

إذا كنا نبحث عن حلول، فلا بد أن نتعرف إلى الأسباب، وسنقول إن هذه الظاهرة ظاهرة بشرية سببية، لها قوانين معروفة، وعندما تحدَّث النبي ﷺ عن الخوارج قال: «**يخرجونَ على حين فُرْقة من الناس**»(1).

وهي الإشارة إلى جزء من السبب؛ فتفرق المسلمين

---

(1) أخرجه البخاري (٣٦١٠، ٦١٦٣)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

واختلاف الصحابة ﷺ قد يكون من أسباب ظهور هذه الفرقة التي سلكت طريقًا مختلفًا.

فقضية البحث عن الأسباب هي بمعزل عن تسويغ الفعل، وهي بحث جاد صادق يستهدف الوصول إلى حلول.

وليس من الرشد أن تفرض على المتحدِّثين عبارات محدَّدة، أو إدانات جاهزة، وكأنها (شيفرة) مَن استخدمها فهو بريء، على نمط تعبير (الفئة الضالة)؛ لأن المقصود ليس تبرئة النفس، بل تدارك الخلل، والسعي لمعالجة موجة جديدة من الاقتتال قبل ظهورها، **فالمقدِّمات تدل على النتائج**.

والبحث عن الأسباب يجب أن ينطلق من منطلق صادق وموضوعي، وليس من منطلق التراشق وتوسيع دائرة الاتهام، فبعض الذين لا يقبلون الحديث عن أسباب العنف يوسعون دائرة العنف؛ ليجرّوا إليها كثيرًا من الجماعات أو المناشط أو التيارات التي يختلفون معها.

وبعض القوى المعارضة تمارس الشيء ذاته، فتعتبر أن الحكومات وحدها، أو بعض الأطراف الليبرالية هي المسؤولة.

ولأن الخطر داهم يستهدف الأمة بكل قنواتها وأفرادها ومؤسساتها، ويضرب في الوجود الإنساني، وفي البنية التحتية، وفي العمق الاقتصادي، ويستهدف الاستقرار والوجود، فيجب أن تكون المعالجة شفافة ناضجة شجاعة، وألَّا يستثني أحد نفسه، ولا يوظف الحدث لدائرته الخاصة؛ فكلنا مسؤولون، وكلنا مستهدفون.

إن خطورة الموقف التاريخي الذي تعيشه الأمة يقتضي قدرًا

من المصارحة والوضوح والمكاشفة التي لا تقوم على التلاوم، والسباق في التخلِّي عن المسؤولية، ولكن على العمل المخلص لاكتشاف مواضع المرض ومعالجته.

إن من الخطأ أن نرمي بظاهرة العنف والإرهاب على خصومنا، ونبرِّئ منها أنفسنا؛ فأزمة العنف مقيمة بيننا، غير طارئةٍ على مجتمعنا، ولا يليق بنا أن نتغاضى عن هذه الظاهرة، أو ننكر وجودها.

وهنا محاولة لتقديم جملة مهمة من أسباب المشكلة.

ملحوظات في عرض الأسباب:

١ ـ عرض الأسباب يجب أن يُحاول فيه الالتزام بالموضوعية والحياد، كأي موضوع آخر.

وإنما تم التنبيه على هذا؛ لأن مثل هذه الموضوعات المتصلة بأبعاد سياسية واجتماعية يقع فيها أحيانًا التراشق والتبادل، أو يقع فيها التخندق والاصطفاف، وظهور الولاءات المتقابلة، أو يقع فيها تصفية الحسابات والانتقام.

٢ ـ توفر حسن النية ضروري لكل تناول رشيد، إذ لا يُقصد بالتناول الهجوم الإعلامي أو التشفِّي، بل المقصد الصحيح هو حماية الأفراد من الوقوع في الغلو؛ حفظًا لدينهم ودنياهم، وحفظًا لمقصد الاجتماع ومصالحه من التهتك، بما في ذلك حفظ المال العام، وحفظ الأمن، وحفظ استمرارية التنمية، وحفظ حقوق الإنسان، وتمكين الأمة من الانطلاق نحو النهضة الحيوية في المجالات المختلفة.

٣ ـ الحلول متصلة بالأسباب؛ والحلول التي تُطرح لا بد من أن تأخذ في الاعتبار أن لكل بلد طبيعته، ولكل بيئة ظروفها، فثَمة اعتبارات خاصة لكل مجتمع، يُصاحبها مشترك يصدق على سائر المجتمعات البشرية، أو على الأقل الإسلامية، وفي دائرة أضيق: العربية.

٤ ـ في الواقع العربي غالبًا ما تكون المعالجات بمعزل عن الأسباب، وكأنها لا تؤمن بالسببية، أو ترى أن المؤثرات خارجية محضة، وتبرز جانب المواجهة المادية، والحرب الإعلامية متجاوزة بذلك أي حديث أو تفكير في البحث عن أسباب من شأنها أن تجعل الظاهرة أكثر اتساعًا، وأسرع تكرارًا، وإن تشكلت في صور شتى تتفاوت في ما بينها، ولكنها تتحد في طبيعتها، نظرًا إلى أنّ أسبابها واحدة.

إن التسلسل المنطقي يُحتّم ـ مع ضرورة المعالجة الآنية ـ أن تعمد جهات علمية واجتماعية إلى دراسة الظاهرة بعمق، وتلمس دوافعها، والعوامل البيئية والشخصية والتاريخية والسياسية والاقتصادية التي تقف وراءها.

مع التشديد المستمر على الفرق بين البحث عن الأسباب لدراستها وإزالة ما يمكن إزالته منها، وبين التسويغ والتبرير..

مقدِّمات:

١ ـ إن ما تصنعه فئة من المسلمين لا يلزم أن يكون إملاءً شرعيًا؛ فالواقع، بل والتاريخ ليس دائمًا سجلًا للفضائل، ولا استجابة للقيم النبيلة.

اعتماد خيار القتل في الإسلام ليس أولويًا، حتى حين يكون مباحًا متاحًا، بل هو ضمن نظام راسخ يتسم بالدقة والعدالة ومنح فرص أوسع للسلام.

وهكذا تعامل النبي ﷺ مع المنافقين الذين كانوا يسعون لتقويض المجتمع من الداخل ويتآمرون[1].

وهكذا صنع مع الذي همَّ بقتله، ثم أمكن منه النبي ﷺ، وهو غَوْرث بن الحارث[2].

وهكذا فعل مع زعماء المشركين بمكة حين اجتمعوا بالمسجد، فقال لهم: **«ما ترونَ أنّي صانعٌ بكم؟»**. قالوا: خيرًا، أخٌ كريمٌ وابنُ أخٍ كريم. قال: **«اذهبوا فأنتم الطُّلَقاء»**[3].

٢ ـ الجمهرة الغالبة من المسلمين، شبابهم وشيبهم، تقع تحت دائرة الاعتدال وضبط النفس، ويجب التفريق بين الآراء الواسعة التي يوجد حق للفرد أن ينتحلها أو يميل إليها، ولو كان فيها شيء من التشدد في نظر الآخرين، ما دامت لا تتعارض مع الوحدة والأمن، فالإسراف في تأطير الناس

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٩٠٥، ٤٩٠٧)، و«صحيح مسلم» (٢٥٨٤).

(٢) كما عند أحمد (١٤٩٢٩)، وابن حبان (٢٨٨٣)، والحاكم (٣/ ٣١) من حديث جابر ﷺ، وأصله في «صحيح البخاري» (٢٩١٠، ٤١٣٩)، و«صحيح مسلم» (٨٤٣).

(٣) ينظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٤١١)، و«أخبار مكة» للأزرقي (٢/ ١٢٢ ـ ١٢٣)، و«الأموال» لابن زنجويه (١/ ٢١٤)، و«سنن النسائي الكبرى» (١١٢٩٨)، و«مسند أبي يعلى» (٦٦٤٧)، و«تاريخ الطبري» (٣/ ٦٠ ـ ٦١)، و«شرح معاني الآثار» (٣/ ٣٢٥)، و«سنن البيهقي» (٩/ ١٩٩)، و«زاد المعاد» (٣/ ٣٠٧ ـ ٣٠٩)، و«البداية والنهاية» (٦/ ٥٦٧ ـ ٥٦٨).

ومحاصرتهم ضمن برامج محدَّدة لا يُغير أفكارهم، بل يزيدهم تمسكًا بها، كقصة صاحب العباءة التي كانت الريح تهب عليها فيزداد تمسكًا بها، فلما أشرقت الشمس وشعر بالحرارة تخلى عنها طوعيًا!

٣ - الموضوعات الجديرة بالبحث والحوار في العالم الإسلامي كثيرة، وهذا واحد منها؛ فكثرتها لا تلغي جدارة هذا الموضوع بالحديث، والحديث عن هذا الأمر لا يعني تجاهل القضايا الأخرى التي لها ميدانها.

أنواع مسبِّبات العنف:

ونحن نفكِّر في أسباب العنف، لا بد من أن نلفت الانتباه إلى أنها لم تكن بدرجة واحدة من المباشرة والتَّماس مع الحدث، وتكمن أهمية هذا التصنيف للأسباب إلى أن كثيرين ربما لا يلاحظون من الأسباب إلا الظاهر منها دون غيره، ومن ثَمَّ لن يتمكنوا من إيجاد الحلول الممكنة لمجمل الظاهرة.

ويمكن فرز الأسباب المنتجة للعنف إلى نوعين:

النوع الأول: أسباب غير مباشرة:

وهي متصلة غالبًا بالبيئة والظروف المحيطة التي تهيِّئ وتوفر مناخًا ملائمًا لانتشار فيروس العنف، واتساع نطاقه.

ومع أن العنف قد يوجد وينمو في أي مجتمع؛ لأن أي مجتمع إنساني لا يمكن تصوّره مثاليًا نظيفًا عصيًا على النزعات السلبية، إلا أن اتساع دائرة العنف وضيقها وطول بقائها أو

قصره مرهون بعوامل عديدة، فبعض البيئات حاضنة ومؤهلة لإنتاج العنف، أو لاستقباله؛ لأنها تفتقد عنصر (الممانعة).

حين لا يكون لدى المرء جواب على أسئلة الفكر المشروعة، سيكون فكره قابلًا لشتى الاتجاهات، وحين لا يكون لديه جواب على أسئلة الحياة المشروعة؛ ستظل حياته رهنًا لتقلبات من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار.

وحين لا يشعر المرء بالانتماء إلى مجتمعه وأسرته ومحيطه وبلده؛ سيبحث عن انتماء بديل، ولن يجد عسرًا أن يتخلى عن أهله وناسه، ويضع يده في يد أي قوة تستهدف الإطاحة والتدمير، والشاعر القديم كان يقول:

إذا أنتَ لَم تَنفَع فَضُرَّ فَإِنَّما يُرَجَّى الفَتَى كَيما يَضُرُّ ويَنفَعُ[1]

ولعل مقصود الشاعر: إذا لم تنفع قومك فضُرَّ عدوَّهم.

والمرء قد ينتمي فطرة إلى وطن عاش على ثراه، لكن لا ينتمي إلى مؤسسات هذا الوطن، والتي أكبرها (الدولة) باعتبارها مؤسسة المؤسسات، أو أم المؤسسات؛ حتى يشعر بأن هذه المؤسسة الأم بفروعها وتشكلاتها هي لخدمته ومساعدته على تنظيم نفسه وتنظيم الآخرين، وتحقيق الأهداف والطموحات، وتوفير المصالح والخدمات وحماية الفرد والجماعة.

(١) ينظر: «الحيوان» للجاحظ (٣/ ٣٦) - والتعليق عليه - و«أخبار النحويين البصريين» لأبي سعيد السيرافي (ص٣٠)، و«الصناعتين» لأبي هلال العسكري (ص٣١٥)، و«إعجاز القرآن» للباقلاني (ص٨٣)، و«التذكرة الحمدونية» لابن حمدون (٧/ ٩٣) منسوبًا إلى غير واحد.

إن هذا اللون من الأسباب، الأسباب غير المباشرة، والمؤهلة لإنتاج العنف أو تقبله أو دعمه، واسع جدًّا، ويمكن أن يكون ثَمَّةَ حديث مستفيض عن التاريخ وعنفه، والجغرافيا وعنفها، والمجتمع، والثقافة... وما أعرضه ليس سوى أنموذج لهذا اللون.

١ - **التوظيف السلبي**، على الصعيد الإعلامي، أو السياسي، فثمة مَن يسعده أن يرى النار تتسع، والاستهداف والملاحقة تطال خصومه هو، وإن لم يكونوا خصومًا للدين أو الوطن!

خلط الأوراق: هو ما يسعى إليه بعض أصحاب العنف، فالمظلومون والساخطون والموصومون بتهمة هم منها براء، يُعتبرون أرضية خصبة لتقبل أي فكرة عدمية تدميرية.

خلط الأوراق: هو ما يفعله إعلامي أو سياسي يحاول إلصاق تهمة الإرهاب بكل متديِّن، ويعمل على تصفية خصومه الفكريين تحت بند مكافحة الإرهاب، ويحاصر مخالفيه ببنود إدانة مسكوكة يفرض عليهم تلاوتها، وحتى حين يتلونها يبادر بوصمهم بالمجاملة والنفاق والخداع.

يجب أن نكون صُرحاء، وألَّا نعتبر المتديِّن إرهابيًّا، ولا المتشدِّد، فثمة مَن لديه تشدُّد هو ضمن الدائرة البشرية المقبولة للتنوع ذي الطيف الواسع، وهو مزاج معروف وشائع في كل مجتمع.

بعض التشدُّد يحتاج إلى معالجة وتصحيح، لكن يجب أن يضمن لكل إنسان حقه في الحياة الكريمة والعيش والعمل والحقوق والإعلام.

التشدُّد موجود في المجتمع اليهودي، وفي الكنيست، وفي الكونغرس، وفي مجتمعات متحضرة تنطوي على جماعات ذات سلوك غريب صعب، تجادل في بدهيات معرفية وعلمية. . وهي محفوظة الحقوق.

إن محاصرة أنماط السلوك الشخصية لمجرد التشابه مع طائفة معينة، قد يضر بمبدأ العدالة وحفظ الحقوق، ويفضي إلى التجنيد من حيث لا نريد.

٢ ـ **مسألة الخطاب**، فثَمَّ عنف ينطلق من خطاب ديني، ليس ماركسيًّا أو وطنيًّا، بل هو مؤسس على عاطفة دينية، ولا أقول على رؤية دينية.

قد يكون بعض الخطاب الإسلامي مسهمًا في بعض أطروحاته في التمهيد وصناعة الأرضية للعنف، **وعلى سبيل المثال**:

أ ـ المبالغة في الحديث عن أوضاع الأمة الإسلامية، من غير طرح للحلول أو البرامج العملية، يعزِّز عند الشاب أن يبحث هو عن الحل، وكأنه زُوِّد بوقود من دون أن يزوَّد بخارطة صحيحة للطريق.

ب ـ بعض الجماعات تتبنَّى أفكارًا خاصة بها، وتعمِّمها، ويكون في هذه الأفكار تكفير وشدة، فيتلقاها الشباب الصغار، ويذهبون بها إلى مدى أبعد ممن سبقوهم، فيترتب على ذلك التمهيد والتهيئة للعنف.

ج ـ بقاء بعض القضايا والإشكالات مفتوحة، وترك بعض النصوص من دون إيضاحٍ بشكل صحيح، وترك بعض

الإشكالات العلمية أو العملية أو الحركية من دون تحرير تسبَّب في وقوع بعض الشباب في هذه المزالق.

د ـ الإنسان هو وصفة متكاملة متوازنة، وحين يختل التوازن يقع الارتباك والانحراف، تمامًا كما يقع حين تضطرب مقادير صناعة كأس من الشاي، أو صحن من الأرز..

فالإفراط في تناول بعض الموضوعات، التي هي صحيحة في أصلها ولكنها عُولجت بإفراط، هي مضرَّةٌ، كغلبة الخوف على الرجاء عند الإنسان أو العكس، ومن هنا عالجتُ موضوع: «فقه الموازنات» في فصل قادم.

٣ ـ **الأحداث الدولية**، وقد لمست بصفة شخصية مباشرة كيف تؤثر أحداث كغزو أفغانستان أو العراق أو أحداث فلسطين، أو طبيعة التدخل الغربي في أوضاع العالم الإسلامي، من مصر إلى ليبيا إلى اليمن إلى سوريا.. إلخ، في نفوس الشباب، وكيف ترفع وتيرة الاهتمام لديهم، وتعميهم عن العقلانية والمنطق أحيانًا، لتجعلهم مهيَّئين لسماع كل صوت يُلوّح لهم بالنصر.

فَثَمّةَ دور كبير ومؤكد للتغيرات الدولية والأعمال التي تقدم عليها القوى العظمى بحثًا عن مصالحها، وحفظًا لهيمنتها، من دون أن تقيم وزنًا للمردود السلبي على مجتمعات أخرى.

وأنا أعتقد أن السياسات الغربية بصمتها على ما يجري للفلسطينيين، وانحيازها المفرط ضد كل ما هو إسلامي (أو سني أحيانًا)، والانتقائية في المواقف، والمزاجية في المعايير ذات أثر ضخم في صناعة الإرهاب، وإيجاد مناخ لنمو العنف.

قد يوجد ممن يؤثر في السياسة العالمية مَن يكون همه أن يضيّق الخناق على الاعتدال والوسطية؛ لأنه يدري أنهما الخصم الحقيقي له، ويريد أن تنحاز فئة إلى العنف ليسهل عليه حربها، وهو خبير بتلك الحرب، وطريقة الانتصار فيها، وهي أهون عليه من مواجهة الاعتدال الذي يحاول أن يضع شعوبًا عربية على سكة النهوض والحرية والتقدم.

إنني أُصدِّق مقالة أن التجنيد الأكبر للإرهاب يتم أحيانًا عبر مكاتب رؤساء الوزارات في دول اختارت الحرب، ودقت طبولها لأي سبب.

الحرب تقول للناس: لا تتعاملوا بهدوء، ولا تتحدثوا بمنطق، الغوا عقولكم، وشمِّروا سواعدكم، وهي تُحفز حتى من لا يملك آلة الحرب؛ ليتصرف بطريقته الخاصة، وهو أعمى عن رؤية النتائج.

وبعض المحلِّلين قد يميل إلى أن هذا مقصود، أي تحريك أطراف ضعيفة ليتم الانتصار عليها ضمن جوقة إعلامية ضخمة.

وسواء صح هذا، أم لم يصح، فإن أي حرب تقع في المنطقة ستُسهم في رفع حظوظ العنف وإمكانية انفجاره بطريقة أو أخرى، بصورة دينية أو لا دينية.

والعقل السياسي الرشيد يؤمن بالمشكلات والأزمات، ولكن يؤمن بالحلول أيضًا، و**«ما أنزلَ اللهُ داءً، إلا أنزلَ له دواءً»**[(1)].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.
وأخرجه مسلم (٢٢٠٤) من حديث جابر ﷺ نحوه.

فنسأله سبحانه أن يجعلنا من البصراء الحكماء الذين يعرفون الداء ويصفون الدواء.

٤ ـ **الحكومات تتحمل مسؤولياتها**، وقد يكون من أسباب العنف إغلاق منافذ التعبير، وعدمِ وجود متنفس للناس كي يعبِّروا عن آرائهم في جو آمن، ومن ثَم تفكيك هذه الآراء ونقدها ضمن المعايير العلمية والشرعية، مع الحفاظ على كرامة الناس، وخاصة الشباب، والاستماع إليهم، وتشجيعهم على البوح والحديث والمشاركة وإخراج كوامنهم وخواطرهم وإشكالاتهم.

وأساليب القمع والإسراف في الحلول الأمنية والمبالغة في السجن والتعذيب في بعض المجتمعات، كانت سببًا في ظهور جماعات التكفير الغالية.

كما أن عدم مصداقية كثير من الحكومات والنظم السياسية الحاكمة، في ما تدَّعيه من مُثل وقيم تناقضها في ممارساتها مع شعوبها؛ قد يقود إلى نتائج عكسية.

٥ ـ **التأزّم الفكري**، فالعالم الإسلامي يتجاذبه تياران على طرفي نقيض:

الأول: التَّيار العلماني الذي يمارس تطرفًا واسعًا بإصراره على نقل التجربة الغربية، بل على استنساخ المجتمعات الغربية في ديار الإسلام، وبناء الحياة على أساس مادي غير مرتبط بالأصول الشرعية، ولا حتى الموروثات الاجتماعية الفاضلة؛ فهي من وجهة نظره معوّقات كبرى عن التقدم والحضارة والرقي.

فبعض هذه الخطابات قد تطرح نوعًا من العنف المضاد، وأذكر أني قرأت مقالًا لأحد الكتّاب يزعم فيه أن كل عمل

إسلامي هو مشروع مستقبلي للعنف، وتوليد التطرف والإرهاب!!

فهل نحن أمام إدانة الدين الذي ينتسب إليه الإنسان أو المجتمع الذي يعايشه؟ فضلًا عن إدانة مؤسسات أو محاضن تربوية، كإدانة جمعيات تحفيظ القرآن الكريم، والمراكز الصيفية، والمناهج الدراسية، والمدارس، والأسر، والمساجد، فهذا اللون من التعميم نسميه أحيانًا بالإرهاب الفكري، وعدم مراعاة قيم المجتمع وخصوصياته وأصوله، وهي تشكِّل زاوية أخرى في موضع الأسباب، فالسعي لاستنساخ تجربة غربية وفرضها على مجتمع لا يؤمن بها، ولا ينتمي إليها، من دون إدراك للفوارق التاريخية والواقعية والشرعية والاجتماعية، هو انقلاب على سنن المجتمع، وتحضير لمعركة سرمدية، لا تحقِّق التنمية، ولا تحفظ الأمن، ولا تؤمن بالفروق بين الأفراد والمجتمعات.

أطروحات العلمانيين العرب في أغلبيتها لم تعد تؤمن بمجتمع مدني صحيح، ولا تطرح مسألة الحقوق الإنسانية ضمن دولة المؤسسات، بل صارت تطرح مبادئ الحرية الاجتماعية مع مصادرة الحريات السياسية والإعلامية، وتؤمن بالقبضة الأمنية ما دامت تعتبر نفسها خاسرةً في الميدان الديمقراطي.

الثاني: تيار مضاد يعارض كل أشكال المدنية الحديثة، ويرى أنها طريق للإفساد في الدين، ومن شأنها أن تجعل الإنسان وصوليًا أنانيًا يعيش لنفسه فقط.

تيار ينتقد الواقع المائل بقوة، ولكنه يدافع عنه؛ لأنه لا يرى القادم إلا أسوأ منه، ولذا يفتقد المشروع الواقعي الممكن،

ويحلم بمثالية نظرية لا سبيل إليها، ولا يريد من أحد أن يوقظه من حلمه اللذيذ!

ويقوم كلٌّ طرف بردّات فعل مباينة للطرف الآخر، إضافة إلى فقدان لغة الحوار والتفكير الثاقب البنّاء.

٦ ـ ضعف التكوين الشرعي، الذي يؤدّي إلى الخطأ في فهم المقاصد الشرعية والأوامر الإلهية، وتنزيل النصوص على غير مرادها. وعدم الفهم الصحيح للمعاني الدينية، وتوجيهها في غير مسارها، كقضية الزهد، وقضية الجهاد، وقضية الولاء والبراء، وغيرها.

ومثله الفهم الخاطئ لحقوق أهل الذمة، وما لهم، وما عليهم.

٧ ـ تدنّي المستوى الاقتصادي للدول والأفراد، مما يحدث فجوة عميقة في النفوس، وها هو طوفان العولمة يجتاح العالم مولدًا أزمات اقتصادية، وعجزًا عن أي تعاون دولي جاد، أو حسم للمشكلات الاقتصادية أو الاجتماعية، فالبطالة والفراغ والفقر هي مثلث الجريمة أيًا كانت.

٨ ـ تخلّي كثير من البلاد الإسلامية عن تحكيم شرع الله ﷻ، ولعل أكثر تيارات العنف ترفع شعار: «الحكم بما أنزل الله»، وهو شعار صادق في حد ذاته، لكن الشأن في تبعاته، ومن قبل قال الخوارج: «لا حكمَ إلا لله». فرد عليهم علي ﷺ بمقولته المشهورة: «كلمةُ حقٍّ أُريدَ بها باطلٌ»[١].

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٦٦).

إن غياب المرجعية الدينية في المجتمعات الإسلامية وانحسار دور العلماء، وضعف الخطاب الديني جعل تلك المجتمعات تعيش فوضى ضاربة لا نهاية لها، وأسهم في غياب مفهوم الهوية، هل نحن أمة عربية إسلامية ذات مرجعية شرعية ربانية تواكب العصر، وتعيش مستجداته أو نحن أمة غربية نعيش على ما يقدمه لنا الآخر من أفكار وأنماط حياة؟

هل نحن أمة واحدة ولو تعددت بلداننا وأوطاننا، أو نحن أمم شتى لا روابط بينها؟

كلٌّ شعب قام يبني نهضةً وأرى بنيانَكم منقسما
في قديم الدهر كنتم أمةً لهفَ نفسي كيف صرتُم أمما[1]

٩ ـ **التفكك المجتمعي**، المتمثِّل في غياب دور الأسرة والمدرسة والمحاضن التربوية في كثير من النواحي، مما ينتج الأمراض النفسية، والانحرافات العديدة.

والترابط الأسري مؤثِّر، فالأسرة المفكَّكة الفقيرة في المشاعر والعواطف تفرخ أطفالًا ومراهقين منفصلين عن مجتمعهم، غير شاعرين بمعاناته ولا متفاعلين معه، ولا منتمين إليه، وبقدر ما نمنح أبناءنا من الحقوق، ونعترف لهم بإنسانيتهم، ونصبر على نزقهم واندفاعهم، نحصل منهم على جيل ناضج يهمه الحفاظ على أهله، ويتألم لألمهم.

الأبناء العققة يتحملون مسؤولياتهم وتبعاتهم، ولكن لا

---

(١) الأبيات لمحمد إقبال.

غرابة أن يكون الآباء والأسر والمجتمع مشاركًا في هذه الصناعة!

وقد أكدت كثير من الدراسات أن جنوح الشباب إلى التطرف يرجع إلى أسباب نفسية، ومن أهمها عدم إشباع الحاجات الضرورية، أو النمو المضطرب للذات، أو بسبب الحرمان من الوالدين، وخاصة الأم، بل إن (٧٨٪) من أسباب ظهور تلك المجموعات هي إيجاد بديل لما يعانيه الفرد من الحرمان النفسي.

١٠ ـ **وسائل الإعلام**، التي تضخ زخمًا كبيرًا من المواد الفاسدة، سواء الفضائيات، أو الشبكة العنكبوتية، أو المجلات والصحف وغيرها، وغياب الرؤية الإصلاحية البنائية لدى هذه الوسائل في حمى تنافسها على كسب قلب المشاهد، وجيبه.

١١ ـ **الثقافة الاجتماعية**، لها تأثير في اعتماد لغة العنف والقسوة، وإنك لتجد مجتمعات إسلامية على الرغم من وجود تحديات ومشكلات عويصة، فالناس فيها يستخدمون أسلوب المقاومة السلمية، والعمل السياسي، ولا تنزلق أعمالهم في الغالب إلى العنف، في حين أنك تجد في بلاد أخرى قدرًا من الاستعداد للعدوانية والاندفاع غير المدروس، فقضية الثقافة التي هي أثر عن النظام السياسي، ومن الواقع الجغرافي، ومن التاريخ ومن العلاقة الاجتماعية والإنسانية، تصنع استعدادًا خفيًّا أو ظاهرًا قابلًا للتوظيف والاستخدام.

النوع الثاني: أسباب مباشرة:

وتتلخَّص في عملية التجنيد التي تُقنع فصائل من الشباب بالانضمام إلى فصيل معين، والسفر إلى مواقع التماس في

أفغانستان أو الشيشان أو العراق أو سوريا أو اليمن أو أي بلد آخر، وتُدرب وتُرتب وتُهيّئ الأسباب والوسائل..

وهي بهذا تقطف ثمرة الأسباب غير المباشرة التي تسهل مهماتها، وتمنح طرحها الإعلامي عبر المواقع والشبكات لمعانًا وقابلية.

إنها عملية بسيطة معقدة في الوقت ذاته، ومع الضربات الأمنية المتكررة، إلا أن الفعل يتكرر أيضًا، وبوتيرة متسارعة.

واللافت للنظر أن عددًا من الأسر تفاجأ بغياب أحد أبنائها من دون سابق إنذار، وقد لا يكون متدينًا ولم يظهر عليه في السابق ما يوحي باحتمال خضوعه لتأثير ما..

إنها أسابيع أو أيام تجعل الأهل يتساءلون: هل وقع فلان ضحية أصدقاء سوء أغروه بسلوك طريق انحراف؟ ولم يخطر ببالهم أن يتلقوا مكالمة منه أو رسالة تخبرهم أنه سافر بجواز سفر مزور؛ لأنه لم يبلغ السن القانوني للسفر، ووصل إلى موقع من مواقع المخاطرة والقتال!

هذه المنطقة الفاصلة ما بين أرضية قابلة للاشتعال عند فتى، وما بين وصوله إلى ذلك الموقع المحدَّد هي الأخطر، فهي فترة زمنية قصيرة قد يعجز الراصد عن متابعتها، وهي التي تتحكَّم بمصير شابٍّ متردد يقدِّم رجلًا ويؤخِّر أخرى، فتساعده على الحسم.

وهنا يبرز دور:

١ ـ **الشبكات الاجتماعية**، فهي وسيلة التعارف والربط والتأثير والتجنيد، كما دلت على ذلك الوقائع والقصص، فعبر

(الواتس آب) تم التعرف إلى كثيرين واكتشاف ميولهم، ثم إدخالهم في سلسلة من العمليات البسيطة المتلاحقة.

٢ ـ **الأصدقاء**، فهم الذين يصفقون لشاب متحمس ويؤيدونه ويتمنون أن تكون ظروفهم مساعدة مثل ظروفه، أو يعترضون عليه ويحذرونه من مغبة ما هو مقدم عليه وسوء عاقبته.

وإن كان بعض الفتيان إذا اقتنع صار ينتقي مَن يبوح له، حتى من الأصدقاء، فقد تلبَّسته الفكرة، ولم يعد لديه رغبة في الاستماع إلى مَن يخالفها، هو يعيش حُلمًا لذيذًا، لا يريد من أحد أن يصحيه منه، حتى أمه الرَّؤوم لا يريد منها ذلك!

وربما يقع الشاب ضحية ماضٍ أسود، وتلح عليه فكرة التكفير والتعويض، أو الخوف من الرجوع إلى ما كان عليه من الانحراف، فيختار طريقًا حاسمًا حادًا، لا سبيل فيه إلى الالتفات إلى الوراء!

٣ ـ **الأسرة**، وهي الدائرة الأقرب للشاب في أغلب الأحوال.

ونحن وإن كنا نلمس أن شباب اليوم ينأون عن مصارحة أهلهم بأفكارهم، ويعتبرون الصديق القديم، أو الجديد، أولى بالمكاشفة من الأب أو الأم، وقد يتكئون في فترة المراهقة على قائمة من انتقاداتهم لأهليهم وأسرهم تصنع فجوة في العلاقة العاطفية والحياتية..

إلا أنه لا مناص من تحميل الأسرة جزءًا من التبعة؛ فالأب راعٍ في بيته، ومسؤول عن رعيته، وكذلك الأم، ومن مقتضى هذه المسؤولية متابعة الولد، وما يطرأ عليه من تغير، وما يواجهه من مشكلات.

ومن ذلك: سؤال الأصدقاء الموثوق بهم، وسؤال المدرسة إن كان ثَمَّ جديد في سلوك الابن، والتيقظ لأي حالة طارئة، ومشاركة الأبناء في مشاهداتهم عبر اليوتيوب، ومتابعاتهم عبر الشبكات، من دون تجسس يوحي بالشك، ويحمل على التستر والتحدي..

وربما كانت الأم أقدر على كشف مكنونات الأبناء، وتفهم مشاعرهم، وتوجهاتهم وعلاقاتهم، بلطفها وقربها العاطفي وسهولتها، في مقابل الهيمنة من الأب أو الخوف من ردة فعله.

ولذا فالعلاقة بين الأبوين ضرورية وحاسمة، حتى لو كانا في حالة انفصال أو جفاف عاطفي، فالمصلحة مشتركة.





ثانيًا:
مَن يملك قرار العنف؟

مهما اختلفت أسماء مَن يمارسون القتل في العالم الإسلامي، فالأمر كما قيل: تعدَّدت الأسباب... والموت واحد!

الذين يقتلون الأبرياء أغلقوا على أنفسهم المنافذ، وسدُّوا الأبواب، وأحكموا الحصار؛ فلم يعد أمامهم مزيد من الخيارات.

والمقطوع به في سجل الحياة أن الإنسان كلما وسَّع الخيارات على نفسه، كان أرشد وأوفق؛ لأنه قد يبدو له في الغد ما لم يكن اليوم له في حساب، ورحم الله العقَّاد إذ يقول:

ففي كلِّ يوم يُولدُ المرءُ ذو الحِجَى   وفي كلِّ يوم ذو الجهالة يُلْحَدُ(١)

وفي القول أو الفعل؛ أن تجعل لنفسك عددًا من الخيارات، فذلك أصوب من ركوب طريق قد تحملك عليه

---

(١) للعقاد في ديوان: «يقظة الصباح».

لَجاجَة أو غضب، أو تؤزّك عليه نزوة تزول؛ فإذا بك مكبَّلُ اليدين في الدنيا، عاجزٌ عن التدارك، أو معاينٌ للخسار في الآخرة، ولات ساعة مَنْدَم!

وما بي هنا أن أُدْخِل أحدًا جنة ولا نارًا، لكنه الحساب.

وقد تأملتُ سياسات الدول الكبرى، فرأيتها لا تحكم بخيار واحد، ولكنها تضع نفسها ما استطاعت في الدائرة التي تمكنها من تطوير خياراتها ومراجعة مسيرتها وعدم الاستئثار أو الالتزام بطريق لا محيد عنه.

وهذا ممكن في حالات كثيرة، ولكنه يعز على مَن حمل السلاح، واحتكم إلى البندقية، وأحرق السفن.

ثم هي أعمال تدخل في دائرة التدمير، فهي لا تبني بيتًا، ولا تؤسِّس جامعة، ولا تنشئ مدرسة، ولا تقيم مصنعًا، ولا تفتح شارعًا، ولا تُعلِّم جاهلًا، ولا تُرشد ضالًا، ولا تطعم جائعًا، ولا تعالج مريضًا، ولا تكسو عاريًا...

إن جميع مشاريع البناء والتشييد والإعمار والتنمية عندها مفقودة، أو مؤجلة على أقل تقدير، ومؤجلة إلى متى؟!

وليس أحد خاض معركة، إلا وهو يتوقع النصر في نهايتها، ما لم تكن مفروضة عليه، لكن ثمة مَن يصدق توقعه؛ لأنه ينطلق من إمكانية واقعية صادقة مبنية على رؤية وتخطيط، وثمة مَن يخذله ظنُّه؛ لأنه بناه على غضبٍ متَّقدٍ في قلبه، أو شجاعة جاهلية، أو يأس قاتل.

إنني أعلم أن ممن ينادون بتغيير الدنيا وإصلاح مجريات

الحياة مَن لو أُسنِدت إليه إدارة شعبة أو فصل في مدرسة أو متجر، لأخفق وفشل.

ليس لأنه فاشل بالفطرة، ولكن لأن التجربة والتدريب ضرورة للنجاح، ولأن الهدم سهل والبناء صعب، و**«ليس الخبرُ كالمُعاينة»**، كما في الحديث[١].

وأول النجاح نجاح المرء في إدارة ذاته، تعلمًا، وعبادة، وصلة للقرابة، وأداء للحقوق، والتزامًا بالأخلاق، مع العدو والصديق. . .

والكثيرون يستطيلون هذا الطريق؛ فتغلبهم نفوسهم أحيانًا، ويرون الأمر أعجل من ذلك أو يعجزون عن إدارة عقولهم بما تقتضيه الشريعة المنزلة، والمصالح المحقَّقة؛ فيقعون أسرى هوى خفي.

وأغلب ذلك من النظر العفوي الذي لم تحكمه خبرة الحياة، ولم تشرق عليه شمس البصيرة، ولطالما كمدت نفوسنا ممن يحملون قناعات مشبعة بهوى النفوس، كما يقول المتنبي:

لِهَوى النُفوسِ سَريرَةٌ لا تُعلَمُ عَرَضًا نَظَرتُ وَخِلتُ أَنّي أَسلَمُ[٢]

إنه ليس من حق المرء أن (يستقيل) من الحياة لأي سبب

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٤٢، ٢٤٤٧)، والبزار (٥٠٦٢، ٥١٥٥)، ومحمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٧٦٦)، وابن حبان (٦٢١٣، ٦٢١٤)، والطبراني في «الأوسط» (٢٥)، وابن عدي (٨/ ٤٥٣)، وأبو الشيخ في «أمثال الحديث» (٥)، والحاكم (٢/ ٣٢١، ٣٨٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ينظر: «ديوان المتنبي» (ص٥٧٠).

كان، والدنيا مزرعة الآخرة، وقد سُئل النبي ﷺ عن خير الناس، فقال: «مَن طالَ عمرُهُ، وحَسُنَ عملُه»(١).

ثم مدارج النجاح أمامه في دراسة يجتازها، أو تخصص يتقنه، أو تجارة في حلال، أو مشاركة في تنمية، أو مسابقة إلى خير.

وقد يسبق هذا أو يتلوه بناء أسرة صالحة، تمناها الأنبياء والمرسلون، وسألوها ربهم تبارك وتعالى، وتوسلوا إليه بأعظم الوسيلة أن يهبهم أزواجًا وذرية صالحين، وهل الأمة إلا هذا وذاك؟!

والذين يحلمون بالحصول على كل شيء، ينتهي بهم المطاف إلى خسارة كل شيء؛ فالسُّنَّة الربانية صارمة حاسمة، لا تحابي أحدًا، ومن هذه السنن: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣ ـ ١٢٤].

الكلام الطيب طيب، والنية الصالحة صالحة، ولكن الحياة أعقد من هذا وذاك، والتطلعات تصبح أحيانًا تمنيات، يقول عن مثلها معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه: «إيَّاكمْ والأمانيَّ التي تُضِلُّ أهلَها»(٢).

---

(١) أخرجه الطيالسي (٩٠٥)، وأحمد (١٧٦٨٠، ٢٠٤١٥)، والترمذي (٢٣٢٩، ٢٣٣٠)، والحاكم (١/٣٣٩)، والضياء (٩/٤٣) (٢٠) من حديث أبي بَكْرة وعبد الله ابن بُسر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٠٠، ٧١٣٩).

وعلى العاقل أن يجرِّب كيف يستطيع تغيير أو تحويل شيء من طبعه أو عادته المألوفة، في مأكل أو مشرب، أو ملبس، أو قول، أو نوم، أو غير هذا. . . ليَلْقَى من صعوبة النقل، وحنين النفس إلى مألوفها، ومنازعتها إليه الفينة بعد الفينة، حتى إنها ربما عادت واستسلمت لما كانت عليه، وتركت المجاهدة، والذين يلتزمون نظام «الحمية» الصارم يدركون هذا جيدًا!

هذا، وهو قرار خاص منك وإليك، لا يداخلك معه أحد من الخلق، محدود داخل ذاتك، ومن الحيثية النظرية فلا عقبات أمامه.

فكيف بحمل الأمة ـ بعامتها وخاصتها، شيبها وشبابها، رجالها ونسائها ـ على المحمل الصعب، وإركابهم متن الشطط، وهم مهمومون بلقمة العيش، وأمن الطريق، وجرعة الدواء؟! وهذا كله من المصالح العامة التي جاءت بها الشريعة، وجعلتها من المعاني الفاضلة. .

فإذا كان الأمر مشتركًا ـ ولو بين زوجين، فما فوق ـ كان الأمر أشد وطأةً، وأكثر تعويقًا؛ لوجود أطراف ظاهرة تمانع في ما تريده أنت، وكلما اتسعت الدائرة زادت هذه الأطراف نفوذًا وتأثيرًا؛ لأنها تجاهد في نقيض ما تجاهد أنت لتحصيله، وهذه سنة (المدافعة)، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۞ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠ ـ ٤١].

إن في قضايا الأمة من التقاطعات والتشابكات والأبعاد ما

لا يستقل بفهمه أولو الألباب والنهى من أكابر الأئمة فضلًا عن غيرهم، وإنما يدركه ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [النساء: ٨٣] فحسب.

واليوم لا يمكن فصل قضية ما عن امتداداتها، فقد تكون هي في الأصل قضية اجتماعية، لكن لها أبعادها السياسية، وآثارها الاقتصادية، وتداعياتها العسكرية، ويظل (الإعلام) وعاءً مؤثِّرًا في تكوين كثير من القضايا، وهو لسان العصر الذي يفترض أن يتذرع به المصلحون في بيان الحق: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٤].

والخيار الجاد اليوم هو خيار العمل المنتج البنَّاء في الإصلاح والتنمية والدعوة، وهي قنوات مفتوحة بالجملة، وفي ضمنها عقبات جسام، وتحديات عظام، أولاها من داخل النفس باستطالة الطريق والرغبة في الحسم، إذ لا يرضى قوم أن يكونوا طرفًا مشاركًا؛ لأنهم يريدون أن يكونوا هم الأطراف كلها!

ثم عقبات الفشل العادي يعرض لكل أحد، ليكتسب من ورائه الخبرة والممارسة.

ثم تحديات الخصوم، وأعترف أنها قاسية، وغير شريفة في كثير من الحالات؛ لكن لا بد من مقاومتها بالصبر والجلد، وشيء من الإعراض.

إن من أرقى نظم الأخلاق في حديث كهذا أن نعتمد لغة واضحة تتجاوز تسجيل صوت أو موقف إلى عمل استراتيجي مستقبلي مدروس.

ثَمَّ مجموعات إعلامية تحترف الملاحقة والتصنيف والاتهام وصناعة الخصومة؛ بل ربما تتحول عندها بعض الأحداث إلى

احتفاليات مقيتة لمحاسبة المجتمع أو الثقافة أو التعليم أو الدعوة؛ فإنه بمعزل عن هذا يجب أن نقرِّر أمرًا، ليس هو بسر، وهو أن العنف قائم في بعض دوائر البناء والتربية لدى بعض المتدينين.

نحن هنا لا نجادل في وجوده في الطباع البشرية، ولا نتردد في وجوده لدى دوائر عريضة مناوئة للإسلام وأهله، بل وبشكل أشد ظلامية.

ولكنَّ أصحاب الخطاب الإسلامي هم الأقدر على حصار فكر التكفير وتداعياته، بحجة الكتاب والسنة والأثر، وصريح أقوال الأئمة والعلماء، وإعادة تفهيم فقه المقاصد والمصالح والأخلاق، وليس أن يصرخ الفتى بنص يوافق ميله، ثم يمضي فيه من دون أن يأخذه بسياقاته ونظائره.

احتج عليَّ أحدهم بآية: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] على مشروعية انطلاق الشباب المسلم في ميادين القتال؟

فقلتُ له: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ...﴾، أفكنتَ تصلِّي في وقت النهي مثلًا؟

أم كنتَ تصلِّي إلى غير القبلة؟

أم من دون طهارة؟

أم قبل دخول وقت العبادة؟

أم لستَ ترى الصلاة مع الجماعة؟

فَلِمَ تكون منفردًا في قرار ذي خطورة...؟!





ثالثًا:
انكسار الموجة

يتحدَّث كثيرون عن موجات العنف المتنامية والمتتابعة في العالم، وفي العالم الإسلامي خاصة، والمنطلقة من دوافع دينية، بحسب قول منظِّريها أو خصومها.

والدين في حقيقته رحمة وتسامح وأخلاق، لم يأت للحرب، ولا لسفك الدماء، ولكن القراءة المبتسرة الخاطئة تنتج التصورات المنحرفة عند بعض المتدينين، وعند آخرين من خصومهم.

إن قراءة نصوص القتال بمعزل عن المنظومة الأصولية المقاصدية، خطأ فادح، اشترك فيه المعتمدون مسلك العنف من المسلمين، مع المتطرفين من أتباع الديانات الأخرى الذين يَصِمون الإسلام بأنه دين قتل وتعطش للدماء.

وتعاطُف البعض مع مسالك العنف له دوافع اجتماعية وثقافية واقتصادية وسياسية.

والمجتمع مثل الفرد يتغير مزاجه بحسب المؤثرات من

حوله، وقد يبدو بعضه مؤهلًا حينًا لتقبل شيء، ويبدو مؤهلًا حينًا آخر لتقبل نقيضه.

وحديث القرآن الكريم في مواضع كثيرة عن الأمم والناس والأقوام ونحو ذلك يؤكِّد هذا التمازج والتقارب والتأثير والتأثر، فالمجتمع كائن حي مترابط، يحاول ويجرب، ويقبل ويرفض، يقبل الفكرة في وقت، ويرفضها في وقت آخر، وكان بعض الصحابة ﷺ يقول: «الناسُ بزمانهم أشبهُ منهم بآبائهم»[1].

ومن الصدق أن نقول: إن المزاج الاجتماعي قد يبدو أحيانًا في قطاعات من شرائحه مشبعًا بقبول شيء من العنف، لاعتبارات يجب أن تكون محل البحث والتحري والدرس.

ومن هنا تتصدَّر أخبار التفجير صدر الصفحات والقنوات والتحليلات، ويتلقاها بعضهم بإيجابية، ظانين أنها ستؤتي ثمرًا نضيجًا، ناسين الحكمة القائلة: إنك لا تجني من الشوك العنب.

في مرحلة سابقة ظن كثيرون أن موجة العنف قد انكسرت، ثم بدا وكأنها تستعيد زمام المبادرة.

وكتب أفراد قياديون ما يُوحي بأنهم بدؤوا يكتشفون طريقًا جديدًا للتغيير، لا يتم عبر القوة، بل عبر الحراك السلمي الواسع

---

(١) ينظر: «أنساب الأشراف» للبلاذري (١٠/ ٢٩٧)، و«معجم ابن الأعرابي» (٨٨٩)، و«أمالي القالي» (١/ ٢٤٠)، و«الأمثال المولدة» لأبي بكر الخوارزمي (ص٧٠، ١١٤)، و«العزلة» للخطابي (ص٦٨)، و«مجلسان من أمالي الحسن بن محمد الخلال» (٢٠)، و«السادس من فوائد أبي عثمان البحيري» (١٤)، و«الخلعيات» (٩٥٢)، و«المقاصد الحسنة» (١٢٣٥)، و«تذكرة الموضوعات» (ص١٨٢)، و«كشف الخفاء» (٢/ ٣٧٦) منسوبًا إلى عمر وعلي وابن عباس ﷺ.

الذي لا يمثِّل شريحة خاصة، بل يمثِّل روح المجتمع والشارع من دون تمييز.

والحق أن المراقب لا بدَّ من أن يدرك أن حراك الشعوب الإسلامية والعربية ألهم كثيرين زهدًا بالأساليب القتالية، وإيمانًا بالطريق السلمي للاحتجاج.

والعنف هو في حقيقته احتجاج، ولكنه غير رشيد!

والمراقب لا بد من أن يدرك أن إفشال المشاريع الشعبية بطرق عسكرية حقن إبرة ضخمة في عضل المجاميع القتالية، وأعطاها حججًا جديدة، وعزَّز حظوظ الداعين إلى لغة العنف.

العنف استبداد وتسلط باسم الدين، ووجهه الآخر هو تصاعد قبضة الاستبداد والتسلط في المؤسسة الرسمية دينية كانت أم سياسية، كلتاهما تحتكر فهم الدين وفق رؤيتها، أو تحتكر القدرة على إدارة الحياة!

والعنف يهدم ولا يبني، ويدمِّر نفسه بنفسه مع الزمن، وليس له مشروع حقيقي متكامل يعوَّل عليه، وحين يفشل ستكون موجة متراجعة، ولكنها ليست النهائية.

فالأسباب ذاتها ستعود من جديد، وتُسهم في صناعة جيل آخر لم يشهد التجربة الأولى.

وقد تنحسر الموجة في بلد، لكنها تقوى في بلد آخر، أو تكمن حتى تجد فرصة الانقضاض، أو تغير من أساليبها وطرائق عملها..

وهذا النظر يوجب أن يظل الجهد مبذولًا في التوعية

والتوجيه، ورفع مستوى التفكير لدى الناس، وهدايتهم إلى الطرق السليمة لمواجهة مشكلاتهم، وكيفية التغلب عليها، ومساعدتهم على بناء حياتهم وتحقيق ذواتهم، ورسم سبيل النجاح الاجتماعي، والتجاري، والوظيفي لهم، وإعادة الشعور بالانتماء لدى فاقديه، ليس بالكلام فحسب، بل بالأساليب العلمية الصحيحة التي استخدمتها الأمم الأخرى فولَّدت شعورًا عميقًا بالمواطنة لدى أفرادها، وفتحت لهم أبوابًا وأسبابًا للتعبير عن الذات وأحلام التغيير المتدرِّج المضمون.

بدلًا من التشاغل بإطفاء الحرائق الوقتية، علينا أن نتجه إلى صناعة بيئة ومناخ مختلفين، يسمحان للفرد والمجموع بالتعبير عن ذاته، ضمن الإطار المشروع المتواضع عليه.

إن الحديث عن تراجع موجة العنف أو تقدمها، جدير بأن يكون محل حوار بين الجادين والمخلصين، بعيدًا عن المجازفات والعواطف، والأحلام.

كما أن التعويل على القوة لا يخلو من تحريض على العنف.

وبالتجربة نجد أن العنف يزيد مع زيادة الضغط عليه، حين يكون الضغط بطريقة واحدة، وهذا يلهم أن العنف قد يستخدم وقد يصنعه مَن يريد أن يحاربه لمقاصد اقتصادية أو سياسية، حتى يبدو وكأنه لا حراك في الساحة سوى حراك الدماء، ويصبح الناس مشغولين بقضية الحرب على الإرهاب عن كل قضية سواها!



رابعًا:
مراجعات وممانعات

عدد من الشباب الناشئين؛ يملكون حماسة قوية لإعزاز الإسلام ورفعته، وحَنَقًا على القوى المعادية التي تتآمر على المسلمين، من دون أن يكون لديهم خطة طريق واضحة لهذا الهدف الشمولي.

لقد صارت المقارنة السريعة بين تاريخ لا يُرى فيه إلا الإشراق، وحاضر لا يُقرأ منه إلا التخلف والسلبية؛ أعظم سبب لزرع التوتر في النفوس، وهذا من شأنه أن يفرز انفعالًا شديدًا على الصعيد الفردي، واستقطابًا على الصعيد الجماعي، وكأن كل مَن ينادي بالرفق والحكمة والتبصّر والدعوة بالحسنى؛ فهو يضمر في دخيلة نفسه الشر أو الاستسلام!

بيد أن الصعوبات والاخفاقات والنتائج السلبية التي رآها المخلصون لسنوات تزيد على الثلاثين؛ جعلت العقلاء يُعيدون النظر في كثير من الطرائق والأساليب، ويصلون إلى نتيجة مفادها عدم تحميل الإسلام مسؤولية اجتهاداتهم الخاصة ورؤيتهم الشخصية وتجربتهم الذاتية، بل والاقتناع بأن من الولاء الصادق

لهذا الدين وحَمَلَتِه وأهله، ومن الشجاعة الحقيقية الوقوف مع النفس قبل الآخرين لمحاسبتها ومراجعتها.. فلماذا نطلب إلى الناس أن يصحّحوا ويراجعوا، ولا نطلب ذلك من أنفسنا، مع وجود المعيار الحق من الكتاب والسنة الصحيحة، والقواعد الأصولية والفقهية، والمصالح والمفاسد المقدّرة بالنظر الصحيح، ومشاهدة الواقع، من دون صدود أو إعراض، بحجة ما يمكن أن يحدث مستقبلاً، فالإحالة على المستقبل إحالة على غيب.

ولا بد من أن تكون دلالات الحال مرشدة إليه، فليس من الصواب أن أتعامى عن سلبيات ضخمة يكتظ بها واقع بلدٍ إسلامي بسبب الإصرار على المواجهة متعلّلًا بأن المستقبل سيحسم هذه المشكلة، فهو عادة من جنس الحاضر، وأحيانًا يكون دونه إذا لم يكن ثَمّ خطط سليمة لإصلاحه، فليس من الحكمة والرشد التعويل على نهايات مفتوحة غير محددة، ولا معلومة التوقيت، ولا محققة الحدوث.

وفي هذا السياق أعجبني ما أصدره مجموعة من الشباب في (ليبيا) من دراسات تصحيحية، في «مفاهيم الجهاد والحسبة والحكم على الناس»، وهو كتاب في (٤١٧ صفحة)، وتسعة أبواب، انتهوا فيها إلى نتائج متوازنة هادفة، بعيدة عن التجريح وردود الأفعال، واستفادوا من دراستهم النظرية، وتجربتهم العملية التي عاشوها..

والنتائج التي دُوِّنت في هذه الدراسة حول القضايا المطروحة؛ متفقة مع ما قرره أهل العلم والسنة، وقد اعتمدت على الأدلة الصحيحة، واستأنست بأقوال الأئمة والعلماء من

المتقدِّمين والمتأخِّرين، واتَّسمت بالاعتدال في لغتها ونتائجها، والهدوء في معالجتها، وظهر فيها الإشفاق على الأمة عامة، وخاصة على الشباب المسلم، والذي يحدث من بعض أفراده وفئاته شيء من الاندفاع غير المدروس، والحماسة غير المنضبطة.

ولئن كانت هذه النتائج عادية عند أقوام، نشؤوا عليها، وتربوا منذ نعومة أظفارهم على مفاهيمها؛ فإنها تعد شجاعة محمودة، وتقوى لله تعالى، وتعاليًا عن الهوى والذاتية؛ حين تصدر من إخوة سلكوا طريقًا آخر، ثم بدا لهم أنه لا يوصل إلى المقصود، فأعلنوا ذلك حرصًا على أن يبدأ الآخرون من حيث انتهوا، وليس من حيث بدؤوا، وسعيًا إلى التصحيح والتصويب الذي هو لُبُّ الدعوة، ورأس الإصلاح، ودعامة المنهج ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣].

وإذا كان النبي ﷺ في عاديات المسائل يقول: «**وإني واللهِ - إن شاء اللهُ - لا أحلفُ على يمين، ثم أَرَى خيرًا منها، إِلَّا كفَّرتُ عن يميني، وأتيتُ الذي هو خيرٌ**»[1].

فكيف بما هو فوق ذلك، مما فيه حفظ وحدة الأمة، وحقن دمائها، وحياطة سمعتها من ألسن الإعلام العالمي، والذي أومأ إليه النبي ﷺ في قوله: «**لا يتحدَّثُ الناسُ أن محمدًا يقتلُ أصحابَه**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٢٣)، ومسلم (١٦٤٩) من حديث أبي موسى ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر ﷺ.

وهذا في شأن أقوام مأذون شرعًا بقتلهم، فكيف بمعصومي الدم والمال والعرض من المسلمين؟! أو من غيرهم ممن حقنت الشريعة دماءهم، وحفظت حقوقهم؟

وإذا كان عمر يقول لأبي موسى ﵄: «لا يمنعنَّكَ قضاءٌ قضيتَه، راجعتَ فيه نفسك، وهُديتَ فيه لرُشدكَ، أن تُراجعَ الحقَّ، فإن الحقَّ قديمٌ، ومراجعةُ الحقِّ خيرٌ من التَّمادِي في الباطل»[1].

وهذا في مسائل اجتهادية وليها القاضي بموجب عقد الشرعية، فكيف بالتقحّم في مسائل ذات شأن عام، وخطر واسع، ممن ليس من أهلها، بمجرد الجرأة ونقص التقوى؟

إن هذا التدوين العلمي الهادئ الرَّصِين، المدعوم بالأدلة؛ لهو من خير ما تمخَّضت عنه التجارب المتكررة للمواجهات المسلحة في أكثر من بلد.

ومثل هذا يجب أن يؤخذ بمصداقية وجديَّة وتشجيع، حفظًا للشباب من الوقوع في مآزق الانحراف الفكري والسلوكي، وتوجيهًا لطاقتهم في الدعوة والبناء والإصلاح والتنمية والمشاركة في الحياة العملية بصورها كافة، وحفظًا للأمة كافة من التشرذم والتشتت، والصراعات الداخلية.

---

(١) أخرجه عمر بن شبَّة في «تاريخ المدينة» (٢/ ٧٧٥ ـ ٧٧٦)، والبلاذري في «أنساب الأشراف» (١٠/ ٣٨٩ ـ ٣٩٠)، والدارقطني (٥/ ٣٦٧، ٣٦٩)، وابن حزم في «المحلى» (٦/ ٤٦٥ ـ ٤٦٧)، (٨/ ٤٧٣)، والبيهقي (١٠/ ٢٠٤، ٢٥٢)، وابن عبد البر في «الاستذكار» (٧/ ١٠٣)، وابن عساكر (٣٢/ ٧٠ ـ ٧٢)، وردَّه ابن حزم، وقوَّاه غيره. وينظر: «المحلى» (١/ ٨١)، و«نصب الراية» (٤/ ٨١ ـ ٨٢)، و«مسند الفاروق» (٢/ ٥٤٦ ـ ٥٤٨)، و«البدر المنير» (٩/ ٦٠٥ ـ ٦٠٦)، و«التلخيص الحبير» (٤/ ٣٥٨)، و«إرواء الغليل» (٢٦١٩).

إن صدق النيات ونبل المقاصد من أهم ما تجب العناية به، فمَن صحت نيته، فالغالب أنه يُعصم بإذن الله، وإذا تجرد المرء من الشح والهوى والأنانية، فهو مظنة أن يدركه لطف الله.

أجد تعليقات مُرة على مثل هذه الأطروحات التصحيحية، وتصويرًا لها من بعض الفتيان وغيرهم، وكأنها نكوص عن الطريق أو ضعف، وكأن المطلوب هو الإصرار والعناد، وأن يوضع الرأس في الجدار مهما تكن الآثار، وكأن السيرة النبوية لم تشهد صبر مكة، ولا تجرع المرارة بحضرة سيد ولد آدم، ولا مصالحة سكان المدينة من وثنيين ويهود ثم منافقين ونصارى، ولا إطلاق أسرى بدر أول معركة فاصلة، والتي سماها الله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]، ولا العفو عن غَوْرث بن الحارث، ولا إطلاق ثُمامة بن أُثال، ولا المن على أسارى بني المُصْطَلق، ولا معاهدة اليهود، ولا صلح الحديبية، ولا حقن الدماء في مكة بعد الفتح الأعظم.. إلخ.

وهذا كله في جهاد شرعي قطعي، يقف على قيادته نبي من أولي العزم، بل هو أفضلهم، مما يدل على أن العزم هو في إحكام النفس وإلزامها بمقتضى العدل والرحمة والحكمة والإخبات لله الواحد القهار، والتنصل من تبعات الأثَرة وحب الذات، والإمعان في رفض الاستجابة لدوافعها الخفية ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

فكيف بمحاولات ليس لها عصمة، ولا وقع عليها قطع أو إجماع، ولا أقرتها مجامع علمية، ولا دعا إليها فقهاء معتبرون، ولا تمخّضت عنها نتائج مشجعة؟!

لا يشك الإنسان في نيات هؤلاء المنتقدين غالبًا، وهذا بالضبط هو مدعاة الحزن والألم، لقد قال رجلٌ لابن عمر رضي الله عنهما: ألم يقل الله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣، الأنفال: ٣٩]؟ فقال: «قاتلنا حتى لم تَكُنْ فتنةٌ، وكان الدينُ لله، وأنتم تريدونَ أن تقاتلوا حتى تكونَ فتنةٌ، ويكون الدينُ لغير الله»[١].

كم من مريد للخير لم يبلغه، وإن الله تعالى على قلب كل امرئ ولسانه وقلمه، فلماذا يسترسل المسلم في كتابة أو كلام أو نقد أو تجريح أو استحلال دماء أو تأجيج فتن لا يدري أبعادها؟ وهل وجود الأداة (الإنترنت والشبكات الاجتماعية) معناه أن يقول المرء ما يخطر على باله من دون مراقبة أو خوف من الله؟

أتذكَّر أحيانًا الحكمة العظيمة، التي نطق بها زُهير بن أبي سُلْمى، وكأنه كان يتجول في فضاء الإنترنت، حين قال:

وَذي خَطَلٍ في القَولِ يَحسِبُ أَنَّه ... مُصيبٌ فَما يُلمِم به فهو قائِلُه!
عَبَأت له حِلمًا وَأكرَمت غَيرَهُ ... وَأعرَضت عَنهُ وهو بادٍ مَقاتِلُه![٢]

إذا كان النبيُّ ﷺ يقول: «سِبابُ المسلم فُسوقٌ، وقتالُه كفرٌ»[٣]. ويحذِّر من الغِيبة: «إنْ كان فيه ما تقولُ فقد اغْتَبْتَه، وإنْ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥١٣).

وأخرجه مسلم (٩٦) من قول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٢) ينظر: «ديوان زُهير بن أبي سُلْمى» (ص٩٢)، و«شرح ديوان زُهير» للأعلم النحوي (ص٣٢).

(٣) أخرجه البخاري (٤٨، ٦٠٤٤، ٧٠٧٦)، ومسلم (٦٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

لم يكنْ فيه فقد بهتَّه»[1]. فلم الجرأة على أعراض المسلمين؟ ولم الاستخفاف بدمائهم تحت ذريعة موهومة.

هَنيئًا مَريئًا غَيرَ داءٍ مُخامِرٍ لِعَزَّةَ مِن أعراضِنا ما اِستَحَلَّتِ[2]

ومن هنا أُصِرُّ على تكرار مثل هذا الموضوع وعرضه والتذكير به، لأن مهمتي هنا ليست تطييب الخواطر أو التربيت على الأكتاف.

لقد غدت بعض هذه الأعمال بسبب ما فيها من التحدِّي ومواجهة الأعداء تأخذ طابع العصمة عند بعض الأتباع، وكأن نقدها خط أحمر، وكأننا لم نسمع حديث النبي ﷺ لسيف من سيوف الله: «اللهمَّ إني أَبْرَأُ إليك ممَّا صنعَ خالدٌ»[3].

حتى صار بعض المتحدِّثين يتحرَّج من التصريح بالنقد، ولو كان بأسلوب رَصِين؛ خوفًا من أن يَسْلقوه بألسنة حِداد ومقاريض شِداد، أو التشنيع عليه بشتى التُّهم.

قد يقول شاب مدافع: يخطئون كما أخطأ خالد بن الوليد أو أسامة؟!

وهل اجتمع الصحابة على خطأ؟! أم هي مفردات هنا وهناك، خالفها الجمُّ الغفير منهم، وأعلنوا النكير عليها، ثم إن موضع الأسوة بالسلف عامة هو فيما أصابوا فيه، وليس ما

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ينظر: «ديوان كُثَيِّر عزَّة» (ص١٠٠).

(٣) أخرجه البخاري (٤٣٣٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

أخطؤوا، والخطأ يستغفر لهم منه، ولا يوضع قاعدة يتأسَّى بها المخالفون.

بل عنصر الجمال في خطأ يُنسب إلى الصحابة، أو من بعدهم من سلف الأمة؛ هو الاقتداء بقبول التصويب، وسرعة الاستغفار وعدم الإصرار، وإعلان الندم على الخطأ وإنكاره على الملأ؛ كما حدث لخالد بن الوليد، وأسامة بن زيد، وحاطب بن أبي بَلْتعة، ولجماعة من الأنصار، ولبعض أمهات المؤمنين، فيكون النكير علانية لخطأ مكشوف معلن، وليس بالهمس أو التستر.

وها نحن في القرن الخامس عشر نردِّد ما قاله سيد ولد آدم ﷺ لخالد أو أسامة أو أبي بكر أو عمر أو علي أو عائشة رضي الله عنهم، أو مَن اشترطوا شرطًا باطلًا في بيع، أو مَن أخذ من مال الصدقة ما لا يحل له.. في ضروب وصنوف من التصحيح؛ يجدر أن نتأسَّى بها في نفوسنا وأفرادنا وجماعاتنا وحكوماتنا.

وهي فرصة أن أجدِّد الدعوة إلى كل مَن اقتنع بهذا الفكر أن يراجع الحق؛ فـ«إن الحقَّ قديمٌ»[1]، وألَّا تأخذه في الله لومة لائم، ولا عذل عاذل.

وإن شلَّال الدم المتدفِّق، والمرشَّح للمزيد؛ ليتطلَّب من كل مَن في قلبه غيرة على الأمة وأبنائها أن يسعى في التدارك، وألَّا يكون ظهيرًا لأعمال العنف العشوائية المتلاحقة، والتي لا

---

(١) كما قال عمر رضي الله عنه، وقد تقدَّم قريبًا.

ثمرة لها ولا طائل من ورائها إلا المزيد من الإخفاق وذهاب الريح.

وأُذكِّر كلَّ مَن غمس يده أو لسانه في هذا البركان الحارق؛ بالموقِف بين يدي رب العالمين: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]، حين: **«ينظرُ أيمنَ منه فلا يَرى إلَّا ما قدَّمَ، وينظرُ أشْأَمَ منه فلا يَرى إلَّا ما قدَّمَ، وينظرُ بين يديه فلا يَرى إلَّا النارَ»**(١).

يوم يكون أول ما يُسأل عنه من حقوق الناس الدماء، فلا يزال المؤمن في فُسحة وفرج ما لم يصب دمًا حرامًا(٢)، فإن أصاب دمًا حرامًا هَلَكَ(٣).

قال لي أحدُ الشباب يومًا: كلامك حق وصحيح، ولكن في أسلوبك شدة؟

فقلت له: ماذا سمعتَ من الشدة؟

قال: إنك تقول: إنهم متعجِّلون!

قلتُ: نعم. قالها رسولُ الله ﷺ للسابقين الأولين بمكة ممن صدقوا ما عاهدوا الله عليه: **«واللهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمرُ، حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاء إلى حَضْرَموتَ، لا يخافُ إلَّا اللهَ،**

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٢) كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما. أخرجه البخاري (٦٨٦٢).

(٣) كما في حديث أبي الدرداء وعبادة بن الصامت رضي الله عنهما: **«فإذا أصابَ دمًا حرامًا بَلَّحَ»**. أي: هلك. أخرجه أبو داود (٤٢٧٠)، والبيهقي (٨/ ٤٠)، والضياء (٨/ ٣٤٢ ـ ٣٤٤) (٤١٥ ـ ٤١٩).

والذئبَ على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[1].

على أني أقصد بالعجلة هنا تفويت مقام التعلّم والبحث والدراسة والهدوء والنظر قبل الفعل، ولست أعني أنهم مصيبون في ما يفعلون، ولكنهم أخطؤوا التوقيت.

وهذا فرق ما بينهم وبين الملأ من الجيل الأول العظيم الذي قام عليه الإسلام، ممن تجردوا من حظ النفس، واستعدوا للتصويب، وكان هواهم تبعًا لما جاء به النبي ﷺ، وكانت معركتهم مع الوثنية الصريحة، والشرك المعلن المفضوح المتفق عليه بلا نزاع، وكان في الكعبة ثلاثمئة وستون صنمًا، وقد تعرَّض النبي ﷺ للأذى ومحاولة القتل، وقُتل من أصحابه مَن قُتل، وربَّى هؤلاء الرجال على عدم الانتصار للنفس أو الغضب لها، فكانت أمورهم كلها لله، غضبًا ورضاء، حربًا وسِلمًا، قُربًا وبُعدًا، و«لن يَصْلُحَ آخرُ هذه الأمة إلا بما صَلُحَ به أولُها».

والتصحيح ليس حكرًا على الجماعات المقاتلة التي حملت السلاح يومًا من الدهر، بل العمل الإسلامي كله بحاجة إلى تصويب مستمر، وتدارك دائم للأعمال والتحزبات السياسية، والجهود الإعلامية، والبرامج الاقتصادية، والمؤسسات الخيرية.

كما أن التصحيح مهمة المؤسسات الرسمية؛ فهي أولى وأجدر بالمسارعة إلى جعل نظام الشريعة الربانية موضع التنفيذ، وإحلال قيمها العظيمة؛ كالعدل والشورى والمساواة والعفة، محل قيم الاستبداد والظلم والإقصاء والشمولية، وهي أجدر

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٢، ٣٨٥٢، ٦٩٤٣) من حديث خبَّاب بن الأرتّ ﷺ.

بتشجيع الناس على المراجعة والتصويب، وفتح الباب أمام الشباب لتصحيح المسار، ومنح الفرص الميدانية والعملية لكل الذين راجعوا الحق أن يعيشوا حياتهم بأمان؛ على أنفسهم وأعمالهم ووظائفهم وأهليهم، وأن يحتفظوا بحقوقهم السياسية وغيرها، على أن العدل والإنصاف واجب لكل أحد، حتى لمَن جاروا عن السبيل، والظلم والعدوان والبغي محرم؛ حتى مع الكافرين فضلًا عن المؤمنين، ولا يحفظ المجتمع من ردَّات الفعل والأعمال الانتقامية المتبادلة إلا العدل وحفظ الحقوق.





المبحث الثاني

معالجات العنف



إن التطرف الذي هو: تجاوز عدل الشرائع السماوية والفطر الآدمية، هو أزمة بحق، وتاريخ الحضارات كلها يكشف عن نماذج كثيرة لهذا التطرف.

وتُعَدُّ رسالة الإسلام الأنموذج الأول والأمثل لمعالجة هذا الانحراف، لكن مع هذا كله فلسنا هنا بصدد أن نعيش ردود أفعال، ونتبادل مع الغرب والعالم الأوصاف، إن هذه معركة ربما تكون غير ملحة، وقد لا تصنع شيئًا لصالحنا، لكن المهم أن ندرك أهمية بناء الوعي في أفراد الأمة؛ لنعرف مواقع التطرف الخارجة عن الإطار الإسلامي.

ولعل من حسن الفهم هنا أن ندرك أن الغرب يمارس صناعة التطرف، ويصدِّرها، وقد يكون بعض الأطراف مستهلكًا لشيء من هذا، لكن الأزمة ليست في التطرف يوم يكون حالة تعرض لدى بعض الفئات، إنما يصبح الأمن العالمي مهدَّدًا حقيقةً حينما يكون التطرف قانونًا له شرعيته، كما ترسم ذلك دوائر سياسية ومؤسسات متنفذة في الأوساط الغربية، قد يتجاوز تأثيرها إلى دوائر شتى، ولعل الأنموذج الصهيوني هو المرشح عالميًا لهذا لو أعطيت الشعوب حرية الموقف والتعبير.

ومع هذا فعلينا أن نمارس نقدًا واضحًا صريحًا في داخل مجتمعنا الإسلامي.

وقد لحظنا ونحن نتحدث عن أسباب العنف أننا أمام ظاهرة شديدة التعقيد والتداخل، وهذا ما يجعل الحديث عن معالجتها شديد التعقيد والتداخل كذلك، ومن أجل ذلك آثرنا أن نتحدث عن دور عدد من الفاعلين في معالجة هذه الظاهرة كلٌ من موقعه ومكانه، فالمسؤولية فردية وجماعية في الوقت ذاته.



أولًا:
مسؤولية الفرد

في كل الظواهر التي نتحدَّث عن علاجها - أيًّا كانت - من الضروري أن نطرح هذا السؤال، وهو: **هل الإنسان الواحد مسؤول؟**

المسئولية الفردية أساس المحاسبة والمساءلة في الآخرة.

ولذا يجب أن يضطلع الفرد بدوره تجاه نفسه؛ حتى لا يكون جزءًا من المشكلة.

فكم من إنسان قد يتسرع بتعليق على موقف أو حدث يكون فتنة لأقوام، وكما قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «تلك دماءٌ طهَّر اللهُ يدي منها، لا أريدُ أن أُلَطِّخَ بها لساني»(١).

إنه لا يليق بامرئ أن يحول احترامه الخاص، ولو كان مفهومًا، إلى موقف اللامبالاة، فضلًا عن الاغتباط، فالفرد أمام

---

(١) أخرجه ابن سعد (٧/ ٣٨٢)، والبلاذري في «أنساب الأشراف» (٨/ ١٧٦)، والدينوري في «المجالسة» (١٩٦٥)، والخطَّابي في «العزلة» (ص٤٤)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٧٧٨)، وابن عساكر (٦٥/ ١٣٣).

أعمال تدميرية، وليس أمام مشاريع صادقة واعدة تتعلق بها آمال، أو تنجز بها أعمال.

والأمر يتطلب مصارحة ووضوحًا في تسمية الأشياء بأسمائها الحقيقية، فالبغي والعدوان والقتل والقطيعة والعقوق كلها رذائل، لا يجوز أن يمنعنا من إدانتها مانع، وإدانتها ليس برنامجًا سياسيًا لحزب، ولا لغة رسمية أو غير رسمية، بل هي ديانة لخالق الإنسان الذي بناه وشيده، وجعل هدم هذا البناء جريمة شنيعة، حتى قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وتدمير ممتلكات البلد التي هي ملك لأفراده عمل مرذول، لا يجوز أن يتردد في شجبه، والموقف هنا ليس موقفًا إعلاميًا عابرًا يتنافس فيه المتحدثون في المزيد من ألفاظ الإدانة، ثم يوقف الأمر.

كلا، بل هي فعل تراكمي استراتيجي يندمج فيه الأب مع أسرته، والمعلِّم، والخطيب، والداعية، والفقيه، والمفتي، والشيخ، والقائد، والمفكِّر، والكاتب.

مَن الذي يمنح فئة أن تتحرك باسم الأمة، وتمارس عملًا باسم الجهاد، ومثل هذه الأعمال العامة لا تكون إلا عن مشورة من المسلمين، بل نص على ذلك القرآن: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ [النساء: ٨٣].

إن الفرد جزء من المجتمع الإسلامي، وهذا هو المفهوم الإسلامي الصريح: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥]،

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١١].

بل إن قضية الإيمان بالبعث في العقيدة الدينية الإسلامية تستقلّ بهذا المعنى بالذات، وقضية الخلق ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾ [المدثر: ١١]، وحيدًا حينما يحسب الإنسان أن ماله وولده وحزبه وجمهوره وطائفته ستُبعث معه، بل حتى أخص قرابته تتخلّى عنه، يقول الله سبحانه: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۞ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۞ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۞ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧].

ولعل عبادة الاعتكاف في الإسلام هي نوع من إعادة المسؤولية الفردية، من دون الضغوط الخارجية الطائفية أو الحزبية أو الجماهيرية على العقل المسلم الفرد؛ لاستعادة طبيعته وصحته.

فالجمهور الهاتف المصفّق يفعل الأفاعيل؛ ولهذا جاء التوجيه الرباني: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ [سبأ: ٤٦].

فالتفكير الإسلامي المعتدل المتجرّد لله لا يبحث عمّا يريده الناس، وإن كان يحترم آراءهم ويقدّرها، فقد يخالفك الرأي، ولكنه على استعدادٍ للدفاع عن حقك في التعبير.

وفي الفرد المسلم تكمن معظم مشكلات الشخصية الإسلامية المعاصرة، وفي حدود هذه العقلية الحاضرة، يصبح أي حدث قابل لصناعة مشكلة في غياب حسّ المسؤولية الفردية

التي كرَّسها الإسلام، فالقوى الخارجية عند الفرد المسلم هي سبب كل المشاكل، والمؤامرة العالمية والصهيونية هي الأيدي الخفية والأصابع المؤثرة الوحيدة في اللعبة.

وربما كان الحكّام، أو العلماء، أو القدر، أو التاريخ مسكنًا للأزمة ـ حيث يظن الفرد ـ ويعتقد براءة جانبه، ولا يخطر في باله أن يتهم نفسه، فآراؤه في نظره صحيحة، ومواقفه سليمة، يعرف كلّ شيء، ولو أن الناس أطاعوه لحل مشكلات العالم.. في حين أنه عاجز عن حل مشكلة عائلية، ولا يملك خبرة ولا دراسة، ولا هو قادر على اتخاذ قرار خاص بتغيير خلق ذميم، أو عادة رديئة.

شابٌّ حديث عهد بتدين، يظن أن بيده حل المشكلات، وحتى حين يتحدَّث عن الكتاب والسنة، يظن أنه هو الذي يفهمها، ويسهل عليه اتهام الآخرين بالجهل أو الهوى، وعدم الفهم!

ومسؤولية الفرد تتفاوت بحسب موقعه، وأهميته وخبرته وعلمه، وهي مسؤولية تاريخية تراكمية، ليست وليدة الساعة؛ فالمسؤولية تعني تحمل التكاليف، وأداء الأمانة، وكسب الخير، وأداء المعروف.

وهي ـ وإن كانت معاني فردية ـ فهي ترجع على الأمة جميعها بالخير والفضل، وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«كلُّ سُلامى من الناس عليه صدقةٌ، كلَّ يوم تطلُعُ فيه الشمسُ، يعدلُ بين الاثنين صدقةٌ، ويعينُ الرجلَ على دابته، فيحملُ عليها، أو يرفعُ عليها متاعَه صدقةٌ،**

والكلمةُ الطيبةُ صدقةٌ، وكلُّ خَطوة يَخْطُوها إلى الصلاة صدقةٌ، ويُميطُ الأذَى عن الطريق صدقةٌ»[1].

حتى عدم أذاك للناس ـ إذا عجزت عن هذا كله ـ صدقة منك على نفسك[2].

وما معنى فروض الأعيان ـ كما يسمِّيها الفقهاء في التراث الإسلامي ـ إلا المسؤولية الفردية، وكل ذلك لتنمية الشخصية الإسلامية على مستوى يؤهلها لإدراك النجاح المجتمعي العام.

ومع هذا لا تزال شرائح واسعة من المسلمين مأخوذة بالهمِّ العام على حساب الخاص، وبالمشاكل العالمية على حساب المشاكل الشخصية، وبالهموم الأممية على الهموم الوطنية، وبقضايا العالمين أجمع على قضايا النفس التي تمتلئ بأدواء متراكمة، من ظلم النفس والناس، وبخس الحق، وأكل مال اليتيم، والجهل والبغي، والغفلة، وضعف الإيمان، وأدواء اللسان، والأهواء التي تضرب في فكره بكرةً وعشيةً.

فهل يجوز بعد ذلك كله أن يتحدث عن مشاكل المسلمين، وقد أصبح شيئًا من تلك المشاكل؟

إذا رُمتَ أن تَحيا سَليمًا مِنَ الرَّدَى ... وَدينُكَ مَوفورٌ وَعِرضُكَ صَيِّنُ
فَلا يَنطِقَنْ مِنكَ اللِسانُ بِسَوأَةٍ ... فَكُلُّكَ سَوءاتٌ وَلِلناسِ أَلسُنُ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩).

(٢) كما في حديث أبي ذر ﷺ: سألتُ النبيَّ ﷺ: أيُّ الأعمال أفضلُ؟.. وفيه: قال: قلتُ: يا رسولَ الله، أرأيتَ إن ضعُفتُ عن بعض العمل؟ قال: «تكُفُّ شرَّك عن الناس، فإنها صدقة منك على نفسك». أخرجه البخاري (٢٥١٨)، ومسلم (٨٤).

وَعَيناكَ إن أبدَت إلَيكَ مَعائِبًا فَدَعها وَقُلْ: يا عَينُ لِلناسِ أعيُنُ
وَعاشِرْ بِمَعروفٍ وَسامِحْ مَنِ اعتَدى وَدافِعْ، وَلَكِن ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[1]

إن حل مشكلات العالم يبدأ من النفس، ومسيرة ألف ميل في إصلاح الأمة تبدأ بخطوة إصلاح النفس أولًا:

لنفسيَ أبكي لستُ أبكي لغيرها لنفسيَ من نفسي عن الناس شاغلُ[2]

إن الفرد المسلم اليوم تأخذه أحداث المسلمين وظلامتهم التي تتفجَّر في كل مكان عن أدواء النفوس، ومشاكل التفكير، وأساليب تطوير الفرد المسلم، التي هي جزءٌ من حل الأزمة العامة.

وإنَّ فتوح الإسلام ليست خالدة بأسماء قوَّادها الذين يُعرفون بها، بل أيضًا بأولئك الأفراد المقاتلين الذين حاربوا وصبروا وربما قتلوا، وأولئك النساء الصابرات المؤمنات الداعمات.

والنجاحات الحضارية الإسلامية والمعمارية ليست حكرًا على أسماء الآمرين بها من الخلفاء والأمراء، بل هي أيضًا في أولئك المنفِّذين من تلك الأيدي المشمِّرة، والسواعد النشيطة، والعقول المخطِّطة، وأصحاب الثراء المعطين، وإن بقيت في ما بعدُ باسم أحد هؤلاء.

---

(١) ينظر: «ديوان الشافعي» (ص١١٥).

(٢) ينظر: «محاسبة النفس» لابن أبي الدنيا (١٠٤)، و«شعب الإيمان» (٧١٥٧)، و«تاريخ دمشق» (١٠/ ٣٧١)، و«ربيع الأبرار ونصوص الأخيار» (٢/ ٣٢٢)، و«رفع الإصر عن قضاة مصر» (ص٩٩)، و«المستطرف في كل فن مستظرف» (ص٩٥).

وإنّ معنى المسؤولية الفردية ـ في النهاية ـ متضمن في الحقيقة القرآنية، والتفكير الإسلامي، وهو معنى حضاري مهم للبناء الراشد، فالبنيان لبنات متفرقة، وفي الحديث: «**إن المؤمنَ للمؤمنِ كالبنيان، يَشُدُّ بعضُهُ بعضًا**»[1].



(١) أخرجه البخاري (٤٨١، ٢٤٤٦)، ومسلم (٢٥٨٥) من حديث أبي موسى ﷺ.


www.Maktbah.com

ثانيًا:
الحكومات والعنف

في العالم العربي والإسلامي حكومات شمولية مهيمنة على مقاليد الأمور، ولديها إمكانات لا تتوفر للأفراد ولا للمؤسسات، وهي ذات قوة وبطش غالبًا، في مقابل شعوب مستضعفة وغير ممكنة من فعل الحراك المدني والمشاركة الحقيقية في الشأن العام، فـ**«من حُسن إسلام المرء، تركُه ما لا يَعْنِيه»**[(١)]!

وقد يستنجد بها في وقت ما، وهي غير قادرة على شيء؛

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وابن حبان (٢٢٩)، وغيرهم من حديث أبي هريرة ﷺ.

وأخرجه أحمد (١٧٣٧)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٨٨٦)، وفي «الأوسط» (٨٤٠٢)، وفي «الصغير» (١٠٨٠) من حديث الحسين بن علي ﷺ.

والصواب فيه: عن علي بن الحسين مرسلًا: أخرجه مالك (٥/١٣٢٨)، وعبد الرزاق (٢٠٦١٧)، وابن الجعد (٢٩٢٥)، والترمذي (٢٣١٨)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٠٧)، وغيرهم. وينظر: «ضعفاء العقيلي» (٢/٩)، و«علل الدارقطني» (٣/١٠٨ ـ ١١٠)، (٨/٢٥ ـ ٢٨)، (١٣/١٤٧، ٢٥٨ ـ ٢٥٩)، و«جامع العلوم والحكم» (١/٥٨، ٣٠٧) (١٢).

بسبب مصادرتها، كما قال عنترة: «العبدُ لا يُحسنُ الكَرَّ، وإنما يُحسنُ الحِلابَ والصَّرَّ»[1].

ولو قيل للشعب: «كُرَّ.. وأنت حُرٌّ» كما قيل لعنترة، لأصبح شيئًا مذكورًا!

إن الحل الأمني وحده لا يكفي، ولا يحقِّق الأهداف، ومع كونه ضرورة لحفظ الحياة والمجتمع، وهو قرين الطعام الضروري: ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤]؛ إلا أنه يجب أن يكون جزءًا من منظومة حلول متكاملة، يؤدِّي فيها كل فرد واجبه بمسؤولية، من دون تنازع أو اتكالية، **وثمة عنوانات ملحة في هذا السياق، منها:**

١ ـ التوعية المتوازنة للمواطن بحقوقه وواجباته، فلا يجوز مصادرة الحق الإنساني تحت ذريعة حفظ الأمن.

والحرية الشرعية والحقوق ليست نقيضًا للأمن، وليس هو بديلًا عنها.

وحين نعتقد أن توفر الجو الأمني للناس يعفيهم من التفكير بحقوقهم الأخرى، فنحن نعاند السنن الجارية والطبائع البشرية، وما ذُكر الأمن في القرآن إلا ومعه حقوق أخرى، كالإطعام أو عدم الخوف أو العبادة أو غيرها من الحقوق الإنسانية.

حين تحكم مجتمعًا فلست بصدد اكتشاف نظرية جديدة، والبشر هم البشر في أي زمان ومكان كانوا، وليست العبرة

---

(١) ينظر: «الشعر والشعراء» (١/ ٢٤٣)، و«شرح المعلقات السبع» للزَّوْزَني (ص٢٣٧).

بالحال الطارئة، بل بالوضع الثابت المستقر المتطاول.

٢ ـ عدم المصادرة، فليست العلاقة هي دائمًا علاقة أبوية محضة، بل حتى حين تكون علاقة أبوية، فالأب الحصيف لا يستعمل لغة الإملاء والفرض أبدًا، بل يُشعر الابن بدوره في العملية الحياتية، وأن له رأيًا معتبرًا، وحين يكون الرأي غير معتبر، فثمة حوار وجدل هادئ، وفرص متنوعة، قبل أن تصل الأمور إلى القطيعة والتهيؤ للحرب والمواجهة.

٣ ـ اعتماد مبدأ التنظيم لجهود الأفراد، وليس الحَجْر أو المنع؛ فإن الإنسان بطبعه فعَّال وهمَّام، كما في الحديث النبوي: **«أحبُّ الأسماء إلى الله ﷻ: عبدُ الله وعبدُ الرحمنِ، وأصدَقُها: حارثٌ وهمَّامٌ»**[1].

فالمؤسسة مهمتها تنظيم جهود الناس، وليس إلغاءها أو حجبها، ومن الممكن أن تتحول الطاقات المختلفة ضمن مؤسسات المجتمع المدني إلى وسائل مساعدة للمؤسسة الأم

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٠٣٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٨١٤)، وأبو داود (٤٩٥٠)، والنسائي (٦/٢١٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢/ ٣٨٠) (٩٤٩)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٦/ ٣٠٤٢) (٧٠٤٥)، والبيهقي (٩/ ٥١٤)، وغيرهم.

وله علَّة بينها أبو حاتم الرازي، كما في «العلل» لابنه (٢٤٥١، ٢٥٢٥)، وقبله غيره. وينظر: «الجرح والتعديل» (٥/٣٢٦)، و«المراسيل» لابن أبي حاتم (ص١١٧ ـ ١١٨)، و«الاستيعاب» (٤/١٧٧٥)، و«بيان الوهم والإيهام» (٤/٣٧٩ ـ ٣٨٤)، و«النكت على كتاب ابن الصلاح» لابن حجر (٢/٧٨٨ ـ ٧٩٠)، و«تهذيب التهذيب» (١٢/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥)، و«الإصابة» (١٣/٨٦ ـ ٨٧)، و«إرواء الغليل» (١١٧٦، ١١٧٨)، و«السلسلة الصحيحة» (٩٠٤، ١٠٤٠).

وأول الحديث في «صحيح مسلم» (٢١٣٢) من حديث ابن عمر ﭭ.

(الدولة) في تحقيق المصالح، وتوفير الخدمات، ومواجهة الطوارئ والأزمات.

أما حين يُحجر عليها وتلاحق وتطارد، فمنها ما يخمل ويخمد، ويكون (خلية نائمة) قابلة للانبعاث، ومنها ما يتمرّد ويُجند نفسه أو يُجنده غيره ضمن (خلية يقظة).

٤ ـ **تفعيل مبدأ المصالحة العامة**، والشفافية في الممارسة، بما يجعل أفراد المجتمع شركاء في السراء والضراء، يتقاسمون لقمة العيش بينهم، فلا يُطالبون بالمستحيل، ولا يتشاحّون على المتاح.

إن الاندماج في مشروع التنمية الشاملة والتنمية المستدامة في شؤون الحياة، ولكل الأجيال الحاضرة والمقبلة، يمكن أن يكون هدفًا يتمحور الناس حوله، ويضمون جهودهم من أجله.

وتحت هذا البند يمكن أن تجري مصالحات جادة بين الشعوب والحكومات، تعتني بالحاضر والمستقبل أكثر من عنايتها بالماضي، وتمنح فرصة لمَن مر بتجربة أن ينتقل منها إلى سواها، وتفلح في تغيير قناعات المتعاطفين والمترددين والشامتين والمتفرجين إلى قناعات إيجابية، تؤمن بالمجتمع ومؤسساته، وتندمج في مشروعاته، وتعد نفسها جزءًا منه لا يتجزأ، وتشجِّع على التغاضي عن فسادٍ مضى، أو سرقة مال عامٍ، أو سوء استخدام السلطة، متذرِّعة بشعار: «**اذهبوا فأنتم الطُّلقاء**»[١].

وهذه خطوة عظيمة، يصح أنها من «السهل الممتنع»؛ لأن

---

(١) تقدم تخريجه.

بعض المنحازين إلى فكر منحرف هم كالمقاتل الذي يضع أصبعه على الزِّناد، ويحسب كل مقالة هي حيلة أو خدعة، فإذا أفلح المجتمع بمؤسساته أن ينزع عنه هذا الإحساس، سقطت البندقية من يده تلقائيًّا.

وتحت هذا البند يمكن تخفيف التوتر بين المجموعات الثقافية والإثنية والعقدية داخل المجتمع الواحد، والتوقف عن سياسة تفعيل الصراع بينها، بل يقوم مبدأ (التحاجز) أو الكف والموادعة.

كما يمكن إقامة الحوار الهادئ الموضوعي، مع الحفاظ على حقوق الأفراد والمجموعات، وتشجيع ظهور الروح الإيجابية المتقبلة للاختلاف، والمؤسسة لحوارات يسود فيها الأدب الراقي والخلق الكريم، والبحث عن المعذرة وحسن الظن، بدلًا من التهارش والتطاحن والاتهام والتحقير.

إن سيادة مبدأ الصراع داخل المجتمعات تحت أي ذريعة مدعاة إلى قابلية العنف، والعرب تقول:

فإن النارَ بالعودين تُذْكى وإنَّ الحربَ أولُها كلامُ[1]

والعنف اللفظي إذا صدر في جريدة أو كتاب أو قناة أو إذاعة أو مجلس؛ هو تمهيد لما وراءه، وبخاصة حين يكون ظاهرة شائعة أو منظمة أو مدعومة، أما حين يكون شذوذًا واستثنارًا وعملًا فوضويًا على الصعيد العام؛ فالخَطْب أهون وأيسر.

(١) تقدم تخريجه.

ونحن نجد في محكم التنزيل قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: «لو قال لي فرعونُ: بارك الله فيك. لقلتُ: وفيك»[1].

٥ ـ **العدل**، وقد ورد أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله لما شكا إليه بعض عمَّاله بلدًا يكثر فيه الهرج والمرج والفتن، قال: «حصِّنها بالعدل»[2].

فالعدل بين الناس في الحقوق والعطايا والوظائف والفرص، وفي جميع الحقوق الإنسانية ضرورة أمنية، والعدل أساس الملك.

إن إعطاء ذوي الحقوق حقوقهم ضرورة، سواء كانت الحقوق مالية أو شخصية أو سياسية أو غير ذلك؛ فإن المجتمعات لا يمكن أن تقوم على الظلم أبدًا.

من المهم الإصرار على العدل ونشر لوائه بين الناس، ولتسقط الشفاعات والوساطات الجائرة التي تحرم الناس حقوقَهم؛ لتحوزها إلى الأقارب أو الأصدقاء أو من يدفعون أكثر.

إن القسوة تتجلَّى في مجتمع لا يأخذ الضعيف فيه حقه من

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١١١٣)، وابن المنذر في «تفسيره» (٢٠٧٢)، والطبراني (١٠٦٠٩)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٣٢٢).

(٢) ينظر: «المحاسن والأضداد» للجاحظ (ص١٦٦)، و«العقد الفريد» (١/ ٣٠)، و«نثر الدر» لأبي سعد الآبي (٥/ ١١٩)، و«الإعجاز والإيجاز» للثعالبي (ص٧٩)، و«سراج الملوك» لأبي بكر الطرطوشي (ص٥٣)، و«الكبائر» للذهبي (ص١٣٠).

أي كان، وقد جاء عنه ﷺ: **«لا قُدِّسَتْ أمةٌ لا يأخذُ الضعيفُ فيها حَقَّهُ غيرَ مُتَعْتَعٍ»**(١).

والناس تتطلّع إلى اليوم الذي يصبحون فيه سواسية أمام حكم العدل، فيتساوون في الوظيفة والفرصة، وإمكانية النقل أو الترقية أو غيرها.

والعدل واجب حتى مع المخطئ، فللسجين حقوق، وللمحكوم عليه حقوق: **«إذا زَنَتْ أَمَةُ أحدكم، فتَبَيَّنَ زناها، فليجلدها الحَدَّ، ولا يُثَرِّبْ عليها، ثم إن زَنَتْ فليجلدها الحَدَّ ولا يُثَرِّبْ...»**(٢).

بل الذي يساق إلى حتفه له حقوق: **«فإذا قتلتم فأَحْسِنُوا القِتْلَةَ، وإذا ذبحتم فأَحْسِنُوا الذِّبْحَ، ولْيُحِدَّ أحدُكم شفرَتَهُ، فلْيُرِحْ ذبيحتَه»**(٣).

٦ - **فتح جانب الحوار**، حتى لأولئك الذين عندهم أفكار غير مقبولة، فكيف تستطيع أن تصحح هذه الأفكار ما لم تستمع إليها، ثم تفندها، كما تجب إتاحة الفرصة لهؤلاء وغيرهم أنْ يعبِّروا عن أفكارهم، وأن يعبِّروا عنها في جو آمن، بعيدًا عن المخاوف الأمنية، ولا بد من النقاش العلمي الموضوعي الذي يغير هذه الأفكار ويعالجها.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٢١٠٥)، وابن ماجه (٢٤٢٦)، وأبو يعلى (١٠٩١) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه. وله شواهد، ينظر: «هذا رسول الله» (٤٢٣ - ٤٢٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٣٤)، ومسلم (١٧٠٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (١٩٥٥) من حديث شدَّاد بن أوس رضي الله عنه.

ومن المهم ونحن نتكلم عن العدل والحوار الموضوعي، أَلَّا نستخدم الآليات نفسها التي يستخدمها أصحاب العنف أحيانًا، فهم يستخدمون التكفير ويلجؤون إليه مع خصومهم، ومن ثَمَّ استحلال دمائهم وقتلهم، من دون تحرٍّ أو تأنٍّ أو تمييز مَن يستحق ومَن لا يستحق، وبين ظرف وآخر.

وبعض الأطراف، وهم يقومون بدور المعالجة، يستخدمون أسلوب التكفير ذاته؛ فيكفِّرون الغُلاة، وهذا إفراط وغلو بصورة أخرى يفتقد العدل، وعليٌّ ﷺ لما سُئل عن الخوارج: أكفارٌ هم؟ قال: «من الكفر فرُّوا». قيل: أمنافقون؟ قال: «المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلًا، وهؤلاء يذكرون الله بكرةً وعشيًّا». قيل: فما نقول؟ قال: «إخواننا بَغَوْا علينا»[1].

ونحن نقول: هذه لغة علي بن أبي طالب ﷺ الخليفة الراشدي الرابع العظيم، ومن الصعب على كثير من الناس أن يصل إلى مستوى هذه اللغة، ولكن علينا أَلَّا نفرح بالأصوات التي تدين العنف بعنف مضاد؛ لأنها ـ وإن كانت ترضينا في زمن، فسوف تصنع لنا في المستقبل مشكلة أخرى مشابهة.

٧ ـ **الإصلاح السياسي**، ويكون بإدماج الناس في العملية السياسية بجدية، ولو بتدرُّج، يراعي التهيئة والتأهيل، بعيدًا عن الوعود المتراخية، وكذلك الإصلاح المالي بمنح الناس حقوقهم.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (١٨٦٥٦)، وابن أبي شيبة (٣٧٧٦٣)، والبيهقي (٨/٣٠٠، ٣١٥).

إن انخراط المجتمع - أي مجتمع - في عملية إصلاحية تنموية، تبني المجتمع، وتنعش الاقتصاد، وتمنح الأجيال حلمًا وتطلعًا ودورًا، هو الحل ليس للعنف فحسب، بل لكثير من الأدواء التي تهدد الحياة، وهو الضمانة لعزل كل ظاهرة سلبية، فكرية كانت أم سلوكية أم عنصرية، ستظل هذه السلبيات قائمة، ولكنها ستقبع بالزوايا والمناطق المظلمة والمعزولة والضيقة بدلًا من أن تكون في الصدارة والتأثير.

٨ - **بناء مؤسسات المجتمع المدني**، وإشراك الناس في تحمل مسؤولياتهم، والتفكير في حاضرهم ومستقبلهم، والدأب على روح العمل الجماعي، والعمل على إشاعة ثقافة الفريق، وليس العمل الفردي المعزول.





ثالثًا:
الخطاب الديني والعنف

إن الخطاب الديني مسؤول بصفة أساسية عن إشاعة الرحمة بين الناس، في الخطب والدروس والمحاضرات والكتابات؛ وكذلك الممارسات كافة، وقد كان مسروق بن الأجدع يقول:

يا مَعْشَرَ القُرَّاءِ يَا مِلْحَ البَلَدْ   مَا يُصلِحُ المِلْحَ إذا المِلحُ فسدْ!(1)

قد تَحْمِلُنا النكاية أو الغيرة على الانتقام أو المواصلة إلى النهاية، لكن روح الإيمان الصادق تحجز المرء وتقيده، وقد

---

(1) ينظر: «تاريخ الإسلام» (٨/٣٠٦)، وذكره الغزالي في «إحياء علوم الدين» (١/٦١) دون نسبة.

ورُوي أن عيسى ابن مريم ﷺ قال للحواريين: «إنما أعلِّمُكم لتعملوا، ليس لتُعجبوا يا مِلحَ الأرض، ولا تفسدوا؛ فإن الشيء إذا فسد إنما يُصْلَحُ بالملح، وإن المِلح إذا فسد لم يُصلحْ بشيء، ولا تأخذوا ممن تعلِّمون من الأجر إلا مثلَ الذي أخذتُ منكم...». أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٢٨٣)، وأبو عبيد في «الخطب والمواعظ» (٨٣)، وابن أبي شيبة (٣٤٢٤١)، وأحمد في «الزهد» (٤٨١)، وعبد الله ابن أحمد في «زوائد الزهد» (٤٩٤)، والسمرقندي في «تنبيه الغافلين» (ص١٩٥)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/٧٣)، (٧/٢٧٤).

قال ﷺ: «الإيمانُ قَيَّدَ الفَتْك، لا يَفْتِكُ مؤمنٌ»[1].

ولنردِّد مع عمر بن عبد العزيز دعاءه الصادق: «اللهمَّ إن لم أكن أهلًا أن أبلغ رحمتك، فإن رحمتك أهلٌ أن تبلغني، رحمتك وسعت كلَّ شيء، وأنا شيء، فلتسعني رحمتك، يا أرحمَ الراحمين»[2].

على الدعاة والعلماء الراشدين أن يكونوا واضحين صادقين في دعوتهم، وألَّا يتردَّدوا في رفض الخطأ وإدانته، أيًّا كان مصدره بأوضح عبارة، وأبين إشارة، مع الاستدلال والتوضيح، وبيان سوء عواقب الانحراف، كل ذلك بلغة هادئةٍ، وأسلوب سليم، وبالحكمة والموعظة الحسنة، كما أمر الله، بعيدًا عن التطرف في معالجة التطرف، أو إطلاق ألفاظ التكفير أو السب، أو الاتهام بالبراءة من الدين، فالعالم يشكل مرجعية تستوجب الاتزان والعدل، وضبط العبارة، وسداد الحكم.

إن مسؤولية قادة الفكر والرأي، وأئمة الفقه في العالم الإسلامي كبيرة، فهم الذين يبلِّغون رسالات الله، ويخشونه، ولا يخشون أحدًا إلا الله.

ولا بد من أن يقوم الأئمة والمفتون والعلماء بدورهم في التوعية الصادقة بالشريعة، وحفظها لمقامات الناس وحقوقهم، وتحذيرها من الجراءة على الدماء والأعراض والأموال، وإشادتها بالوحدة والاجتماع، وحفزها على الاستقرار ورعاية

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٢٦، ١٦٨٣٢) من حديث الزبير بن العوَّام ومعاوية رضي الله عنهما. وأخرجه أبو داود (٢٧٦٩)، والحاكم (٤/ ٣٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٢٩٨).

الأمن والمصالح، والدندنة حول هذه الموضوعات في الوسائل المختلفة، وفي الظروف كافة، فهي ليست ملفًا للطوارئ يُستخرج حين الحاجة إليه، ثم يعود إلى أدراجه المغلقة؛ هي ثقافة إنسانية إسلامية يجب أن تظل حيّة في كل الأحوال، وأن يتواصى العلماء والفقهاء بعرضها، وتصريف الحديث عنها.

إن الحديث مرة عن شيء منها لا يعني أن المهمة انتهت، بل يجب التناول من نواح عديدة، وبأساليب شتى، ومخاطبة الشرائح كافة، وعلى مستوى لغات متنوعة، وسرد النصوص والقصص والوعد والوعيد، وإقامة الحجج وتفنيد الأباطيل، ومعالجة الشبهات بصبر وطول نفس وبلغة علمية سهلة، وإذا اقتضى المقام هجومًا على بعض الانحرافات فلا حرج؛ بل هو معنى مطلوب، شريطة أن لا يكون الهجوم هو منطلق البيان والبلاغ، كي تكون لغة الشريعة الهادية، ولغة البلاغ القرآني الصادق هي المحكّمة.

يجب أن يكون في بلاد الإسلام حضور دائم لخطاب ديني معتدل ومستقل في الوقت ذاته، فإن الخطاب الديني حين يُوظّف بطريقة غير صحيحة لا ينفع ولا يؤدِّي دوره كما يجب.

الخطاب يجب أن يكون معتدلًا، بعيدًا عن الشَّطَط والغلو والإغراق في التفصيلات والفروع، ملامسًا للواقع، ملتزمًا التقوى والإخلاص ومراقبة الله، ومراعاة مصالح الفرد والجماعة والدولة والأمة، متوسطًا لا يميل إلى الأقوال الغالية أو المتشددة، ولا إلى الأقوال الجافية المتحللة.

ويجب أن يكون مستقلًّا، ينطلق من ذاته وقناعاته ورؤيته الشرعية والتزامه الربانيّ.

وهذا هو المصداق العملي لقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

يجب أن ندرك أن وجود هذا الخطاب في كل مجتمع هو ضمانة حقيقية لأمنه، ولوجوده، وبقدر ما يُمنح من الاستقلال والحرية يملك أن يؤدِّي دورًا أكبر، بل في حفظ وحدة المجتمع وقطع دابر الغلو، وتشجيع مبادرات النمو والتطور والنهوض الذي تحاوله المجتمعات العربية والإسلامية.

وعلى العلماء الربانيين أن يقوموا بواجبهم من خلال عقد اللقاءات المفتوحة معهم، وسهولة الوصول إليهم، وليعلم العالم الشرعي أنه يشكل مرجعية حقيقية للجميع الحاكم والمحكوم على حد سواء، **وهذه بعض الإضاءات في هذا الخصوص:**

١ ـ من المهمّ أن يكون دُعاة الإسلام على وضوح في منهج الدعوة ومعرفة مقاصد الإسلام الكبرى.

وهذا يُشار به إلى الانعتاق من سلطة النفس، ومحدوديَّة التفكير، والوعي بحقيقة الدعوة، وطرائق معالجة الأوضاع المتردِّية ـ أحيانًا ـ في بعض المجتمعات، ومراعاة السنن الشرعيَّة والكونيَّة في منهج التغيير والإصلاح.

٢ ـ ومن المهمّ أن ندرِك الإمكان الشرعيَّ والواقعيَّ الذي نعيش فيه.

بمعنى أن نتفهَّم القدر المستطاع الذي يحقِّق المصالح، ولا يأتي بمفاسد أعظم، ونعمل على تطبيق المعاني الإسلاميَّة في المجتمعات الإسلاميَّة، خاصَّة التي يُمارس ضدها تغييب جادٌّ يحاول طمْس هويَّتها، فبعض المجتمعات التي بهذه الصورة يفتَرَض أن يكون القَدْر الذي يحاوِل أهل الدعوة تحقيقه معهم متناسِبًا في الإمكان مع الواقع الذي عاشوه.

لقد كان النجاشي في الحبشة مَلِكًا صالحًا ومؤمنًا، صلَّى عليه رسولُ الله ﷺ بعد وفاته، وأثنى عليه خيرًا[١]، مع أنه لم يكن يحكم بين النصارى بالقرآن، ولا يُقيم كثيرًا من شعائر الإسلام، كما ذكر ذلك ابن تيمية، فهذا مبلغه من الإمكان[٢].

إن فكرة استدعاء التاريخ ومحاولة تغيير الواقع إلى نمطٍ أصبحت عودته مستحيلة بحكم السنن الإلهية، وهي فكرة استولت على عقول دعاة وشباب يعيشون في القرون المتقدمة وجمالياتها وتقواها، ثم يعجزون عن ابتكار نمطٍ يقتبس روح ذلك الماضي ويتواءم مع ضرورات الحاضر ومقتضياته التي تطيح بمَن تجاهلها، أو تعامى عنها.

٣ ـ على أهل الدعوة أن يؤمنوا بأن هذه الشعوب الإسلاميَّة

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (١٢٤٥، ١٣١٧، ١٣٢٧، ١٣٢٨)، و«صحيح مسلم» (٩٥١ ـ ٩٥٣) من حديث أبي هريرة وجابر وعمران بن حُصين ﭫ.

(٢) ينظر: «منهاج السنة النبوية» (٥/ ١١١ ـ ١١٢)، و«اقتضاء الصراط المستقيم».

ما تزال فيها الفطرة، وعصمة الإسلام ومحبَّته، ومحبَّة رسول الله ﷺ، حتى مَن انحرف في سلوكه بدرجة مُزْرية.

هذا في الجملة أمْر مؤكَّد، فمثل هذه القضايا الكبرى، والمعاني الثابتة يجب أن تُحيا في صفوف سائر المسلمين، حتى العصاة والمجاهرين بكبائر الإثم، فليس صحيحًا أن الخطاب الذي يقدِّمه شباب الدعوة إلى عوام الناس وسوادهم ليس فيه إلا لغة النهي عن المنكر.

إن لغة الأمر بالمعروف يجب أن تكون هي الأصل في الخطاب، وبناء الإيمان في قلوب سواد الناس، حتى لو بقي على بعض المعاصي، فإن عنايته بأصول الإسلام وعِصَمِهِ الكبار هو الأهمُّ تحقيقه مع عباد الله، وهو مقدِّمة ترْك المعاصي.

٤ ـ يجب أن ندرِك أننا حين نفكِّر بقلب المجتمعات الإسلاميَّة إلى مجتمعات مثاليَّة في الديانة والعلم، فهذا يعني أننا لم ندرِك حقيقة السنن التي قَدَّرها الله في هذه الأمة.

صحيح أن الأمَّة فيها نُزَّاع من الأخيار الأبرار، وفيها بحمد الله طبقة واسعة من أصحاب العلم والدين والخلق والفضيلة، لكن جمهورها فيه جهل وتقصير مع خير كثير.

و«**الناسُ كإبل مائة**»، كما قال ﷺ[1].

فهذا المعنى كما أنه على مستوى العمل، فينبغي أن يُستحضَر على مستوى التطبيق للأمر الشرعيِّ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٨)، ومسلم (٢٥٤٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، بلفظ: «**إنما الناسُ كالإبل المائة، لا تكادُ تجدُ فيها راحلةً**».

٥ ـ يجب أن يتخلَّص بعض الدعاة مِن غلبة التشاؤم على منهجهم ولغتهم، وفي تعاملهم مع عوام المسلمين، فإنه حينما يُدْرِكُ الداعية وطالب العلم أنه لا يستعمل الأوراق الأخيرة والنَّفَس النهائيَّ في محاولات الإصلاح والدعوة، فهو ـ في الحقيقة ـ يتخلَّص مِن كثير من الأخطاء، وربما داخل الداعية الشعور باليأس من الإصلاح بسبب هذه التوقعات.

إن الأُمَّة اليوم ـ مع ما فيها ـ مهيَّأةٌ للعمل والقيام بدين الله، ودفْع السيئة بالحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وأمْرُ المؤمن خيرٌ كلُّه في السَّرَّاء والضَّرَّاء، كما في الحديث عن صُهيب رضي الله عنه[(١)].

٦ ـ من الحكمة الشرعيَّة أن يتخلَّص الخطاب الإسلاميُّ من التعامل بلغة واحدة، حيث تجِد بعض أهل الدعوة والعلم جَمَعَ أزمة الأُمَّة في الواقع السياسيِّ الذي تعيشه، فتراه لا يمارس إلا هذه اللغة، وأن الواقع السياسيَّ هو كل قضايا الأمة.

وتجِد نمطًا آخر من الخطاب الإسلاميِّ لا يخاطِب إلا أهل الصلاح والبِرِّ والتقوى، يؤدِّبهم بالمشروعات والفضائل حيث لا يُتَصَوَّر هنا الكلام في الأصول الواجبة، وربما يكون هذا الخطاب أداة لتقسيم المجتمع الإسلامي إلى طبقات تعيش العزلة والصراع الشعوريَّ بين أهل الدعوة والتربية، وبين بقية طبقات المجتمع المسلم الذي قد لا يكون ذا طابع دعويٍّ، لكنه مسلم وفيه خير.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) بلفظ: «عجبًا لأمرِ المؤمنِ! إن أمرَه كلَّه له خيرٌ، وليس ذاك لأحدٍ إلا للمؤمنِ، إن أصابته سراءُ شكرَ فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراءُ صبرَ فكان خيرًا له».

إن الرسل بُعِثوا إلى قوم مشركين، وهكذا أتباعهم، فيجب أن يخاطِبوا كلَّ أحد، فإن جميع عباد الله يُؤمَرون بالمعروف، ويُنهَون عن المنكر.

ومن المهمّ هنا أن يعمَل شباب الصحوة ودعاتها على المواقع الدعويَّة كافَّة، وأن يُصَبِّر بعضهم بعضًا، ويصدِّق بعضهم بعضًا، ويعذر بعضهم بعضًا في ما هو مما يقبَل الاختلاف والتنوُّع والاجتهاد.

إن على دعاة الإسلام أن يكونوا أكثر تأصيلًا وواقعيَّة؛ فإن تقدير دائرة ما يَقْبَل الاجتهاد، وما لا يَسَعُ فيه الخلاف، وأمثال ذلك من أكبر مقاصد الشريعة وأخصّ مقامات العلم، وهذا يستلزِم أن تُحكَم هذه القضايا بالأدلَّة الشرعيَّة من الكتاب والسنة والإجماع.

٧ ـ يجب أن يُربَّى شباب الدعوة وسواد المسلمين عمومًا على قواعد الشرع الفاضلة في التعامل والحكم على القضايا والمجتمعات والأعمال الإسلاميَّة، وحتى من الأعيان من أهل العلم والدعوة أو الحركة داخل الجماعات التي توجد في كثير من البلاد الإسلاميَّة.

ومن هنا، فإنَّ كلَّ مَن أهمَّه هذا الدين والدعوة إليه، وقصد هَدي رسول الله ﷺ في دعوته بحسب ما أمكنه، فهذا مما ينبغي أن يعظَّم قَدْرُه ويُثنَى عليه بخير، ويُعان على طاعة الله والدعوة إلى دين الإسلام، وما يكتنفه من الخطأ يصحَّح بالدليل والرفق؛ فإن الله تعالى قال عن الخَضِر: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، فهكذا أهل

الدعوة إلى دين الإسلام عليهم أن يربُّوا أنفسهم على الرحمة والعلم، فإن الداعي لا بدَّ له مِن جمعهما.

و«كلٌّ يؤخَذ مِن قوله ويُرَدُّ» فهذه من القواعد الفاضلة، فليس ممكنًا أن يكون الدعاة وأهل العلم لا يقولون إلا صوابًا، فإنهم ليسوا معصومين، بل منهم مَن يُخطئ فيصيب غيره، ولا يجمَع الله الأُمَّة على الخطأ.

وعليه فينبغي أن نعلم أن مِن أكبر مقاصد الشريعة جمْعَ القلوب على الدين والهدى، والرِّفْق في البيان والدعوة.

وهنا ينبغي أن يتربَّى الناس على أن الصواب صواب، والخطأ خطأ، لكن الخطأ الواحد لا يقتضي ضرورة مصادرة الآخرين، أو الرمي بالشَّين.

ومما يؤسِف أن طائفة مِن الأُمَّة ممَن هم على الإسلام، ويَقْتَدون بالكتاب والسنة في دعوتهم، قد تفرَّغ بعضهم لبعض، واتخذ نوع مِن هؤلاء العلمَ بغيًا بينهم، كما اتخذه أهل الكتاب مِن قبل، وهذا مِن أخلاق الأمم الكافرة التي دخلت على بعض فضلاء المسلمين، وصار كثير منهم لا يحسب غيره - من دعاة الإسلام - على شيء، كما أن اليهود والنصارى كان هذا خلقهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣].

وهذه من صور التشبه العلميّ بأحوال وأخلاق أهل الكتاب التي دخلت على بعض أهل العلم والشريعة في هذه الأمة.

٨ - علماء الإسلام الكبار ودعاته يُعْرَف لهم قَدْرُهم وفضيلتهم، لكن يُعْلَم أن الهَدْي هَدْي رسول الله، والدين هو ما

شرعه الله ورسوله، فأنْ يُعْرَف لأحد حقُّه لا يعني أن كلامه لا يقبَل النظر والمراجعة والخطأ، بل الرد والترْك إلى سنة ظهرت، وحقٍّ بان بالدليل، وما زال علماء الإسلام يتراجعون ويختلفون، بل هذا هو الواجب على أهل العلم ورجال الدعوة.

إن مِن الخلق الفاضل: ألَّا يتقحَّم الشباب الْمُقْبِل على الدعوة، والمبتدئ في طلب العلم ما ليس هو مما قُدِرَ له مِن قضايا الأمَّة الكبرى، أو مسائل العلم الكبرى التي تحتاج إلى سَعَةٍ في العلم، وحذقٍ في الرأي، وسدادٍ في العقل؛ فأن يَعْرِف كلٌّ واحد ما أمره الله ورسوله به، وما نَدَب إليه في شرع الله، هذا هو موافقة الهدى، والعمل بأدب الله الذي أدَّب به أهل الإيمان، والله سبحانه يبتلي العباد بما آتاهم.

٩ ـ علينا أن نَعِي أن الأُمَّة تحتفِظ بمقدَّرات كامنة في نفوس سواد أهل الإسلام، مع إدراك أن جمهور هذا السواد يُغيَّب كثيرًا عن أصالته وديانته وولائه للدين تحت المشاريع التي تقدِّمها التجمُّعات المعادية للأُمَّة ودينها عبر الفضائيات ومناهج التعليم، ومجالات الوعي والتربية، وهنا يُفْتَرَض على دعاة الإسلام وشباب الصحوة أن يخوضوا معارك جادَّة مع هذه المشاريع بالسلاح نفسه.

إن انحصار مفهوم الجهاد في أذهان كثيرين على جهاد القتال، لهو غفلة عن حقيقة الإسلام وهَدْي الرسل؛ فإن الله أمَر نبيَّه أن يجاهِد الناس بالقرآن والسيف، ولئن كانت هذه المشاريع التي تمارِسُ تغييبَ الوعي في كثير من المجتمعات الإسلاميَّة أكثر امتيازًا في الإمكانات الاقتصاديَّة والتخطيطيَّة؛ فإن الدعاة وشباب الصحوة يحتفظون بالتناسب بين المقدَّرات الكامنة في

نفوس هذه المجتمعات والدعوة التي يقدِّمونها، والتي يجب أن تعنى ببناء الثوابت والأصول الإسلاميَّة الإيمانيَّة، ولا تستعجل أمْرَها، فلئن تأخَّر قوم عن الاستجابة فهذا لا يعني بلوغ اليأس، أو حتى فساد المنهج الذي يُعالَج به هذا الوضع أو ذاك.

ليكن همُّ كلِّ واحد في هذه الأُمَّة أن يبلِّغ عن الله ورسوله ﷺ ولو آية أو حديثًا، وألَّا يمتلكه الحزن الذي يُقعد عن العمل لدين الله، أو اتخاذ طريق ليست مشروعة في التعامل، أو الشعور بعدم القدرة والطاقة، فيميل إلى الصفائيَّة والمثاليَّة والانتقاء، فيجِد نفسَه أخيرًا مراجعًا لإخوانه دعاة الإسلام وشبابه، ثم قائمًا عليهم حكَمًا وسلطانًا على أقوالهم وأعمالهم، يلاحظ كلَّ شاذَّة وفاذَّة في صفوف أهل الدعوة.

وهنا ربما خالطه شعور أن هذه هي الأصالة والديانة، وكثيرًا ما يكون هؤلاء ممَن يعيش تعثُّرًا في التصحيح والعمل والتربية والبناء، فينعكِس على متابعة ظِلِّ إخوانه، فلا يرى في الظِّلِّ الصورة الحسنة؛ لأنه لا يرى أخاه بل يرى ظلَّه، وهو لا يعرِف الظلَّ ولا يميز به، والظلُّ قَدْر مشترك، وهنا ربما ناسب ما يقول ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ: «إن الاشتراك هو أخصُّ أسباب الغلط في المعارف والقيامات بين الناس».





رابعًا:
المجتمع والعنف

حين نفكِّر في العنف لا بد من أن نستوعب أن صورًا من أشكال العنف قد تتحول إلى قيم اجتماعية مقبولة، وتمارَس بصورة طبيعية مثل:

أ ـ صرامة الملامح والقسمات، والترسم الإمبراطوري المتعاظم، وهي حالة نفسية، ولها آثار سلوكية عديدة، وقد يستقر في ثقافة البعض أن قوة الشخصية تعني صناعة الرعب، وأنك حالما تظهر يتجمد الآخرون مكانهم، فتتقصَّد إرهاب الآخرين بالهيئة المصطنعة المتكلَّفة.

وقد قال جَرير ﷺ: «ما حجبني النبيُّ ﷺ منذ أسلمتُ، ولا رآني إلا تبسَّم في وجهي»[1].

ب ـ العدوان اللفظي بالأصوات العالية والصخب والضجيج والصراخ، والتشاتم والتهديد بالكلام، وحتى عند المواقف العاطفية قد نستخدم لغة خشنة.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٥)، ومسلم (٢٤٧٥).

ج ـ العدوان ضد الأشياء، فالأبواب تُضرب بعنف، والكراسي والطاولات، والأثاث يُبعثر، والأدوات والكتب، والكتابة العشوائية الرديئة على الجدران والأماكن العامة، وتكسير الأدوات، وتهشيم النوافذ، وإشعال الحرائق.

وهذا مدرج لتكسير القلوب، وتهشيم العواطف، وإشعال الخلافات، وقد رُوي أن النبيَّ ﷺ نهى عن قطع السِّدر لغير مصلحة[1].

د ـ العدوان ضد الآخرين بالضرب والمهاجمة، أو القتل، والعدوان على الحقوق المادية والأدبية للناس، وخاصة ممن نسميهم أحيانًا بـ«الأجانب»، وهم حقيقة إخوة أحبة لهم الحقوق نفسها، والبلد بلدهم.

ومن المؤسف أن الثقافة السائدة في كثير من المجتمعات العربية، يغلبها نظرة الازدراء والتهميش والاستخفاف بالمقيمين، في حين أن نصوص الكتاب والسنة مستفيضة في رعاية حقوق الناس والإخوة المسلمين، وتحريم الظلم والاحتقار والتمييز.

يجب أن نعمِّم الثقافة الأخلاقية التي تربِّي الفرد على

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٢٣٩)، والنسائي في «الكبرى» (٨٥٥٧)، والبيهقي (٦/ ٢٣٠)، والضياء (٩/ ٢٣٧) (٢١٥).

ولا يصح في قطع السدر حديث، كما قال أحمد والعقيلي وغيرهما. ينظر: «ضعفاء العقيلي» (٢/ ٩٢)، (٤/ ٣٩٥)، و«العلل المتناهية» (٢/ ١٦٧)، و«المنتخب من العلل للخلال» لابن قدامة (ص٧٦ ـ ٨٠)، و«بيان الوهم والإيهام» (٤/ ٥٠٢ ـ ٥٠٣)، و«السلسلة الصحيحة» (٦١٤).

احترام الآخرين، ورعاية حقوقهم، وحفظ المصالح العامة، والتزام الذوق السليم، واختيار الأحسن من القول والفعل، تحقيقًا لقوله سبحانه: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٨]، وقوله: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥].

وما أحوجنا إلى إحياء هدي الأنبياء ﷺ في هذا الجانب وغيره، وتعليم الناس أنه من السنة، وأن العبد ينال به الثواب الجزيل، والدرجات الرفيعة.

وفي الحديث أن النَّبي ﷺ قال: **«إن الرجلَ ليُدرِكُ بحسنِ الخُلُق درجةَ الصائم القائم»**[١].

وفي ما يأتي جوانب من المعالجات الاجتماعية لظاهرة العنف في مجتمع مسلم:

---

(١) أخرجه أحمد (٢٥٠١٣)، وأبو داود (٤٧٩٨)، وابن حبان (٤٨٠)، والحاكم (١/ ٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها، وله شواهد. ينظر: «السلسلة الصحيحة» (٥٢٢، ٧٩٤، ٧٩٥، ١٥٩٠).



كلهم قُساة!

لماذا طبع القسوة يغلب على مجتمعات المسلمين، مع أن دينهم دين الرحمة، ثم يرون التقصير في غيرهم، ولا يرونه في أنفسهم!

ويظن كثير من أصحاب العلم والمعرفة والفقه والثقافة؛ أن الاعتراف بالأخطاء والمعالجة العلنية من قلّة السياسة والفقه.

حين تقرأ قول الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۞ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۞ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۞ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾ [عبس: ١ ـ ٤]، فإنك تجد في هذه الآيات نموذجًا راقيًا للعلنية.

وكل قصص الأنبياء في القرآن مع ما تحويه من دلائل دعوية وفكرية مهمة؛ كإخبارها بخصائص الأنبياء الدعوية، تجدها في الوقت ذاته تخبر عن بشريتهم: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩]، وهذا ما لم يستوعبه أغبياء المشركين: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

إن القرآن صريح في بشرية الأنبياء؛ فالهدهد يعلِّم سليمان ﷺ، وموسى يتعلَّم على يد الخَضِر ﷺ؛ ليدل ذلك على أن المعالجات العلنية أقرب لتلمس الداء، وهي جزء من الدواء.

والنقد الذي تجب ممارسته لا بد من أن يكون متوازنًا؛ وأن نأخذ نحن نصيبنا منه، لنكون مع هذا المجتمع شركاء المغنم والمغرم.

وبعض المثقفين الذين يقدمون أنفسهم على أنهم ضحايا العنف من جهة سياسية أو اجتماعية أو دينية؛ لا يذكرون أن الناس قد يكونون ضحايا لعنفهم الثقافي، وصرعى حروبهم الفكرية، فهم قتيل المجتمع وقاتله!

إنهم أحيانًا يمارسون عدوانًا لفظيًا مع مَن يختلف معهم، وينحازون إلى جانب القوة ضد الأبرياء، بالإرهاب الفكري في عمليات التخوين والتبديع والتفسيق، وتفسير النوايا، وتوزيع التُّهم، واستخدام أدوات الحرب الكلامية والإعلامية، واستعداء أطياف المجتمع والسلطة.

فبُؤسُ العالم الثالث السياسي ومشاكله اليومية تحوَّل إلى تأزم فكري وصراع اجتماعي، وأنتج مشكلات في الفهم والحوار لدى الشرائح كافة من الإسلاميين إلى القوميين والماركسيين والليبراليين.

السؤال: لماذا نبدو أكثر انفعالًا وتشنجًا واندفاعًا غضبيًّا؟!

لماذا نسعى بكل قوتنا لإدانة خصومنا الذين لا نتفق معهم، ونستميت في محاولة إلصاق الدعاوى بكل من يخالفنا الرأي، أو المشرب أو الاتجاه!

وهل العاجز في هذا العالم المهووس هو مَن لا يستبد، كما يدَّعي عمر بن أبي رَبيعة[1]؟!

ما سبب هذا الاحتقان، والقابلية الشديدة للتطاحن، والاشتعال السريع من كل الأطياف!

ففي السياسة: الانشقاقات والحزبيات واللغة الرديئة.

وفي العلم والمعرفة: التيارات والصراعات غير الأخلاقية في سباق محموم للتسلّح اللفظي، والتراشق بالتهم والألقاب، وفي المجتمع: ضروب الاستهزاء العصبي والقبلي والمناطقي.

ربما هي ثقافة عامة في العقل الباطن للناس والمجتمع، ثقافة انحرفت عن سبيل الرحمة والسعة والسلام وغيرها من المعاني التي اشتقت من أخلاق الدين الإسلامي.

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ...﴾ [الأنعام: ٦٥].

وفي القرآن الكريم دعوة عالية للعودة إلى الأمن الديني والنفسي والثقافي والاجتماعي والسياسي: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

إنها دعوةٌ لتطليق أشكال الاعتداء والظلم التي تأكل المجتمعات، بأخضرها ويابسها، من الكبار والصغار، والمثقفين

---

(١) في قوله المشهور: «إنما العاجز مَن لا يَستبد». ينظر: «ديوان عمر بن أبي ربيعة» (ص١٢٤).

والعامة، إلى الجدال الثقافي والعلمي والفقهي والتربوي ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.



لماذا نقسو؟!

١ ـ وكيف لا يقسو مَن نشأ في أسرة جافية فقيرة العواطف، يصدق عليها وصف الأول:

تحيةُ بَينِهم ضربٌ وَجيعُ[1]؟!

أثبتت الدراسات أن (٥٠٪ ـ ٨٠٪) ممن يضربون زوجاتهم رأوا آباءهم من قبل يضربون أمهاتهم!

ويستدل بعضهم خطأً بالآية الكريمة: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ﴾ [النساء: ٣٤]، ويظن أنها تفويض بالضرب!

وهذا..

أولًا: خاص بحال النشوز والعصيان وليس إذنًا مطلقًا.

ثانيًا: جزء من منظومة متكاملة في التعامل تحدد الحقوق والواجبات، ولا يجوز تناولها بمفردها معزولة عن غيرها.

---

(١) ينظر: «شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي» جمع مطاع الطرابيشي (ص١٤٩)، وينظر: «الكتاب» لسيبويه (٣/ ٥٠)، و«معاني القرآن» للنحاس (٤/ ٦٣)، و«شرح أبيات سيبويه» لأبي محمد السيرافي (٢/ ١٨٧).

وثالثًا: هو آخر المطاف، بعد محاولة التأديب والتغيير بالوعظ، والهجر في المضجع، دون الهجر في المنزل.

ورابعًا: فسَّره النبي ﷺ بأنه ضرب غير مبرِّح[1]، فهو حركة تعبِّر عن التأديب وليس الأذى أو العدوان، وهو ضرب مقصود به كسر الأَنَفة والاستعلاء.

ويلحظ في خطوات التأديب هذه: أن أولها مرغَّب فيه مستحب، وهو الوعظ، أما الهجر والضرب غير المبرِّح، فليس بمرغَّب فيه، والشرع لا يتشوَّف إليه، بل هو رخصة للحاجة، ولذا فالأفضل عدمه، مع الإصرار على الوعظ، ومحاولة الإصلاح من هذا الباب، ولذا صحَّ عنه ﷺ أنه لم يضرب شيئًا قَطُّ بيده، ولا امرأةً، ولا خادمًا، إلَّا أن يجاهدَ في سبيلِ الله[2].

وأما حديث: «لا يُسْأَلُ الرجلُ فِيمَ يضربُ امرأَتَهُ». فهو حديث ضعيف[3].

وعلى فرض صحته؛ فمعناه ـ والله أعلم ـ نهي الناس أن

---

(١) كما في «صحيح مسلم» (١٢١٨) من حديث جابر ﵁، في خطبته ﷺ في حَجَّة الوداع.

(٢) كما في حديث عائشة ﵂، أخرجه مسلم (٢٣٢٨)، وأصله في «صحيح البخاري» (٣٥٦٠).

(٣) أخرجه الطيالسي (٤٧)، وأحمد (١٢٢)، وعبد بن حميد (٣٧)، وأبو داود (٢١٤٧)، وابن ماجه (١٩٨٦)، والنسائي في «الكبرى» (٩١٢٣)، والحاكم (٤/١٧٥)، والبيهقي (٧/٤٩٧)، والضياء (١/١٨٨ ـ ١٨٩) (٩٤، ٩٥) من حديث عمر ﵁. وينظر: «بيان الوهم والإيهام» (٥/٥٢٥، ٧٦٢)، و«ميزان الاعتدال» (٢/٦٠٢)، و«مسند الفاروق» (١/١٨١ ـ ١٨٢)، و«فيض القدير» (٦/٣٩٧)، و«إرواء الغليل» (٢٠٣٤)، و«السلسلة الضعيفة» (٤٧٧٦).

يسألوا الرجل عن السبب؛ لأن هذا من الفضول والتطفل على حياة الآخرين.

وليس المقصود أنه لا يُسأل يوم القيامة، بل يُسأل المرء عن كل شيء، ولا يقصد أن لا يسأله الحاكم، بل الحاكم يلزمه شرعًا النظر العادل في أي قضية شكوى ضد زوج اعتدى على امرأته بالضرب من دون وجه حق، وقد ورد في السنة ما يدل على هذا(١).

وأما حديث: «ولا ترفعْ عنهم عصاكَ أدبًا». فهو ضعيف(٢).

ومثله حديث: «علِّقوا السَّوْطَ حيث يراهُ أهلُ البيت»(٣).

---

(١) وهو حديث عائشة رضي الله عنها، أن حبيبة بنت سهل كانت عند ثابت بن قيس ابن شمَّاس، فضربها، فكسر بعضها، فأتت رسولَ الله ﷺ بعد الصبح، فاشتكته إليه.. وفيه أنه أمره أن يفارقها. أخرجه أبو داود (٢٢٢٨)، والبيهقي (٧/ ٥١٦).

وأخرجه أحمد (٢٧٤٤٤)، وأبو داود (٢٢٢٧)، والنسائي (٦/ ١٦٩)، وابن حبان (٤٢٨٠) من حديث حبيبة رضي الله عنها.

وأصله في «صحيح البخاري» (٥٢٧٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وينظر: «فتح الباري» (٩/ ٣٩٩ ـ ٤٠٠)، و«إرواء الغليل» (٢٠٣٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٠٧٥) من حديث معاذ رضي الله عنه.

وأخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١٨)، وابن ماجه (٣٣٧١، ٤٠٣٤) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

وله شواهد أخرى ضعيفة. ينظر: «إرواء الغليل» (٢٠٢٦).

(٣) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١٢٢٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٦٦٩ ـ ١٠٦٧١)، وفي «الأوسط» (٤٣٨٢)، وابن عدي (٣/ ٥٥٦، ٥٥٧)، (٨/ ١٣٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وأخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٣٣٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وينظر: «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (١/ ٣١٥ ـ ٣١٦)، و«السلسلة الصحيحة» (١٤٤٦، ١٤٤٧).

إن العنف ضد المرأة ظاهرة عالمية على الرغم من مدونات حقوق المرأة وما يسمى «اليوم العالمي لمناهضة العنف ضد المرأة».

ويكفي أن واحدة من كل ثلاث نساء في العالم تعاني مشكلات صحية خطيرة بسبب تعرضها للضرب، أو الاغتصاب، أو أشكال أخرى من العنف، ومن آثار ذلك تورط المرأة في إدمان المخدرات أو التدخين أو الشيشة ـ على الأقل ـ فضلًا عن الأمراض النفسية، كالاكتئاب والتوتر، وقد تصل إلى الانتحار، أو محاولته.

لا إحصائيات رسمية في العالم العربي، فهي معاناة صامتة في الغالب، والمرأة أعجز من أن ترفع شكواها، أو توصل صوتها إلى الجهات القضائية أو غيرها...

كم من امرأة تعيش القهر المدمِّر في ظل زوج لا يرى لها حقًّا، ولا يقيم لها وزنًا، ولا خيار لها غيره!

وكم من فتاة تقطع العمر حسرات وآهات تحت ولي يعضلها، ويمنع عنها الخطّاب؛ لأنها محجوزة لابن العم، أو لأنه يصادر مرتبها، ويقتات عليه.

وهكذا العنف ضد الأطفال: فالطفل ذو النشاط الزائد أو المتخلِّف يتلقى عبارات قاسية تزدري شكله، أو خلقه، أو مستواه الدراسي، ويتعرض للضرب والحرق، فيترك الطعام، ويُصاب بالأرق، فلا ينام، ويضعف دراسيًا، ويصاب بالاكتئاب والعزلة، ويفقد السيطرة على نفسه.

وهذه الأعراض تسبِّب له دورة أخرى من التحقير

والازدراء، وتكاد الدمعة تطفر من عيني، وأنا أكتب هذه الكلمات الحزينة.

أين التغنِّي بالطفولة وبراءتها؟!

أين استشعار البهجة في وجود الأطفال في المنزل، وأن صياحهم أعذب لحنًا في آذان الآباء الناضجين؟

ماذا لو كنت عقيمًا ترى الصبيان يضحكون ويلعبون، وأنت منهم محروم؟

ماذا لو مرض طفلك وذبل، أيظل قلبك في مكانه؟

ماذا لو مات...؟

فأي إحساس سينتابك، وأنت تتذكَّر تلك اللحظات القاسية التي تَمَلَّكَك فيها الغضب، فقهرت تلك الزهرة الغضة البريئة؟!

ما الذي يحملنا على سرقة الفرحة من عيونهم في المناسبات والأعياد والاجتماعات؟!.

أين هدي المصطفى ﷺ: «اللهمَّ ارحمهما، فإني أرحمهما»[1]، و«إني لأقومُ إلى الصلاة وأنا أريدُ أن أُطَوِّلَ فيها، فأسمعُ بكاءَ الصبي، فأتجوَّزُ في صلاتي؛ كراهيةَ أن أشُقَّ على أمِّه»[2].

مَن قدوتنا الحقيقية؟! محمد ﷺ أم ذلك الأعرابي الذي استغرب تقبيل النبي للصغار وأجابه النبي ﷺ بقوله: «أوَ أَمْلِكُ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٠٣) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٧) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

لك أن نَزَعَ اللهُ من قلبك الرحمةَ؟!»[1].

لماذا نسمح للجفاف العاطفي أن يحكم علاقتنا بصغارنا؟

لماذا نربيهم على الثأر والانتقام من الآخرين؟

لماذا نجعل حالات الطلاق والانفصال مجالًا لأن يعصر قلب الطفل اللين بين تناقضات والديه؟

أو أن يكون وسيلة ضغط من الأب أو الأم؟

ألا نشفق على مستقبله أن ينشأ مشوهًا معقدًا عليل النفس؟

أطفالُ مَن هؤلاء الذين يفترشون الشوارع، ويتراكضون عند الإشارات ومراكز التجمعات للتسول، حيث إراقةُ العزة ووأدُ البراءة؟

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۞ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨ ـ ٩].

٢ ـ وكيف لا نقسو ونحن خريجو مدارس أشبه ما تكون بالثكنات العسكرية، تعتمد على حشو المعلومات وتلقينها، وتنحاز إلى الجانب المعرفي على حساب التربية، وبناء الشخصية، ولقد قرن الله بين العلم والرحمة فقال: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

فالعلم بلا رحمة غلظة وجفاء، والرحمة بلا علم تدليل وضياع.

ولقد حبَّب إلينا العلم الشيخ صالح بن إبراهيم البليهي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بابتسامته الساحرة وخلقه النبيل.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٨)، ومسلم (٢٣١٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

ثم من بعده سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ في صبره ولطفه العظيم، وفي كل علماء الإسلام خير.

أَلَا يجدر أن يُقَرَّر على البنات والأولاد منهج في التهذيب والأخلاق والعلاقات الاجتماعية؟

إنه مُقَرَّر يجدر أَلَّا تخلو منه مرحلة دراسية من الابتدائي إلى الجامعة.

٣ ـ وما لنا لا نقسو ووسائل الإعلام تعرض مشاهد العنف والقتل، وتقدِّمها للكبار والصغار، سواء أكان من قَبِيل العنف الترفيهي في الأفلام والمسلسلات وبرامج التلفزيون والفيديو والسوني والكمبيوتر، أم كان من قَبِيل العنف الإخباري الذي هو صدى للإرهاب العالمي؟!

٤ ـ وما لنا لا نقسو والأحداث العالمية تصنع القسوة؟! بحسب الدراسات العلمية، إن الاستفزاز من أهم مكونات العنف؛ لأنه يؤثِّر في إفرازات الغُدد في الجسم، فيحدث الاضطراب النفسي والفكري الذي يصاحب العنف والعدوانية.

الاستفزاز يمكن أن يحطِّم كل شيء، ويحمل الناس ـ ولا سيما الشباب المراهقين ـ إلى جرائم وتهور، يرديهم في الهلكة.

٥ ـ وكيف نتعجَّب من القسوة، والخطاب الديني يغلب عليه لغة الغلظة والعنف والقسوة، مع أن الأصل في الشريعة الربانية الرحمة، كما يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي[1]، وما جاء وعيد إلا وسبقه وعد ورحمة.

---

(١) ينظر: «مجموع مؤلفات الشيخ السعدي» (ص٤٠٨)، وينظر: «موسوعة نضرة النعيم» (٢١٠١).

وحتى النار يقول سفيان بن عُيينةَ: «خُلقت النارُ رحمةً، يخوِّفُ اللهُ بها عبادَه؛ لينتهوا»[1].

ومع أن «بسم الله الرحمن الرحيم» هي ما نقوله في بدء أعمالنا، وأن «السلام عليكم ورحمة الله» هي ما نقوله في ختم صلاتنا، فإن التراشق حين الاختلاف، وقساوة اللغة والاتهام، والتخوين، والتفسيق، والتبديع، والتكفير من دون وجه حق، وبحق أئمة وأكابر من المتقدِّمين والمتأخرين فضلًا عن عامة المسلمين، كل هذا وغيره لا يدل على التأدب بأدب القرآن والسنة.

٦ ـ ولا يغيب عن البال عنف المتنفذين بالمصادرة، وإهدار الحقوق، والهيمنة على المجالات والفرص، وما يقع في عددٍ من البلدان من الاحتجاز التعسفي، وصور التعذيب، وغياب المحاكمات، والقتل خارج القانون.

إن الممارسات التي سجلتها كتب التعذيب في السجون «البوابة السوداء»، و«نافذة على الجحيم»، وغيرها... ليست سوى رأس لجبل من الجليد، بل من الجحيم، والضابط الذي يمارس التعذيب لا يلعب بمستقبله الوظيفي، بل بمستقبل الأمة.

إن المقابر الجماعية، والقبضة الحديدية، وسيطرة الخوف على العلاقة بين السلطة والناس، جعلت الترابط الاجتماعي مهدَّدًا بالتفكك؛ لأن الناس بانفصالهم العاطفي وسيطرة روح الغضب عليهم قد يتصورون ألَّا وضع أسوأ مما هم فيه، ويتولَّد

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «صفة النار» (١٤١)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٣٧٥).

وقد رُوي من قول الحسن البصري: «إن اللهَ خلقَ جهنمَ؛ ليحوش بها الخلق إلى طاعته». ينظر: «أخلاق الوزيرين» (ص٢٥٣ ـ ٢٥٤).

لديهم أمنية خفية بالتغيير على أي جواد كان، ومهما كان برنامجه المستقبلي، وصدق الله حيث يقول: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فها هنا نص على أن الناس تجمعهم الرحمة، وتفرقهم الفظاظة والغلظة، ومَن أصدق من الله قيلا؟!

٧ ـ وأخيرًا، فإن التاريخ والجغرافيا ذواتا أثر وحضور، فالثأر مثلًا من أهم مكونات الشخصية العربية، لا سيما في القبائل والصحراء، ومن ذلك ما يسمى جرائم الشرف، وهي فعلًا جرائم.

ومن أمثالنا الشعبية: «قوِّ نارك، تغلب جارك»، «الدم بالدم، ولو كانوا أبناء العم».

من الأمثلة التاريخية: العنف السياسي، فالبطش السلطوي من جهة، وثورات الخوارج التدميرية من جهة أخرى، وضياع الاحتجاج الشرعي على الاستبداد والظلم.

ومن الأمثلة ما ورد في السنة من استنكار ضرب الرجال لزوجاتهم، وحدوث ذلك والنهي عنه[١].

وبعض العرب كانوا يعدُّون المرأة إنسانًا من الدرجة الثانية، أو من سَقَط المتاع.

البيئة تصنع مناخًا ملائمًا للجفاء، وهو باب يطول ذكره.

---

(١) ينظر: «مسند الدارمي» (٢٢٦٥)، و«سنن أبي داود» (٢١٤٦)، و«سنن ابن ماجه» (١٩٨٥)، و«سنن النسائي الكبرى» (٩١٢٢)، و«صحيح ابن حبان» (٤١٨٩).

وقد رأى أبو حازم المديني الزاهد في الحج امرأةً ذات حُسن وجمال، تطوف بالبيت، مسفرةً عن وجهها، فوعظها، وقال لها: «يا أمةَ الله، إن هذا موضعُ رغبة، فلو استترت، فلم تفتني الناسَ!». فقالت: أنا ممن قال فيهن الشاعر:

مِنَ اللَّاءِ لَم يَحجِجنَ يَبغِينَ حِسبَةً ... وَلَكِن لِيَقتُلنَ البَريءَ المُغَفَّلا

فأعرض عنها، وقال بإشفاق: «أسألُ اللهَ ألَّا يعذِّبَ هذا الوجهَ بالنار».

يعلّق سعيد بن المسيب رَحِمَهُ اللهُ بقوله: «هذا ظُرف أهل الحجاز، ولو كان من المغالية من أهل العراق لقال: أغربي قبّحك الله»[1].

أستغفر الله أن أكون قسوتُ على أهلي ومجتمعي، ولكن الباحث حين يقصد إلى معالجة ظاهرة ما يتجه إلى حشد النظائر، واستكمال الرؤية، ولو أردنا أن نتحدث عن مظاهر الرحمة وآثارها في علاقاتنا وحياتنا، لوجدنا لها متسعًا.



(١) ينظر: «أخبار مكة» للفاكهي (١/ ٣١٤)، و«عيون الأخبار» لابن قتيبة (٢٩/٤)، و«اعتلال القلوب» للخرائطي (٢٩٦)، و«نثر الدر» لأبي سعد الآبي (١٠٤/٢)، و«زهر الآداب وثمر الألباب» لأبي إسحاق الحُصري (١/ ٢١١)، و«ربيع الأبرار ونصوص الأخيار» للزمخشري (٢/ ٢٩٨)، و«تذكرة الحمدونية» لابن حمدون (١٤٧/٦)، و«المنتظم» (٨/ ٣٤).

ورُويت أيضًا لسالم بن عبد الله بن عمر. ينظر: «تاريخ دمشق» (٢٠/ ٦٦)، و«بغية الطلب في تاريخ حلب» (٩/ ٤١٣٣ ـ ٤١٣٤).

العبادة والعنف

ترتفع معدلات العنف ضد الأطفال في خليجنا لتصل إلى (٤٧٪)، وتخص الأيتام ونحوهم وصولًا إلى (٧٠٪)!

وقالت دراسة حديثة؛ إن (٤٥٪) من الأطفال السعوديين؛ يتعرضون لصور مختلفة من الإيذاء والعنف يوميًّا.

وكان العنف النفسي هو الأوفر حظًّا؛ حيث بلغت نسبة الحرمان من المكافآت المادية والمعنوية (٣٦٪)، والتهديد بالضرب (٣٢٪)، والسباب والسخرية (٢٥٪)، ووصل العنف الجسدي المصحوب بالإيذاء النفسي (٢٦٪) بشتى صوره؛ من ضرب مبرّح، وصفع، وقذف بأشياء في متناول اليد، وضرب بآلات حادة وخطيرة.

وأكدت الدراسات أن أكثر فئة تتعرض للعنف في السعودية هم الأطفال الذين انفصل والديهم (٥٨٪)، ثم المتوفى والديهم (٢٤٪)، ثم المتوفاة أمهاتهم (١٩٪)، ثم المتوفى كلا والديهم (١٠٪).

ويعرف كل أحد أن مستوى المحافظة على الشعائر مرتفع أيضًا، بشكل يكاد أن يكون متفوقًا على معظم البلدان الإسلامية!

وهذه مفارقة محزنة.

قطعًا ليست العبادة هي سبب هذا العنف؛ بيد أن السؤال هو: لماذا لم تروِّض العبادة هذا العنف؟!

داهمني طفلي يومًا وأنا أصلِّي، وحال بيني وبين سجودي بعبثيته البريئة، وهممتُ أن أدفعه بقوة، ثم استذكرتُ فورًا أن الإله الذي أصلِّي له يحب أن أحضن هذا الطفل، وأرحمه وأشفق عليه، وقلتُ لنفسي:

هما سببان للزلفى إليه؛ الصلاة والسجود، و«**أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربه وهو ساجدٌ**»[1].

والرحمة بالخلق، و«**الراحمونَ يرحمهم الرحمنُ، ارحموا مَن في الأرض، يرحمْكُمْ مَن في السماء**»[2].

والرحمة بالبهائم والطير معتبرة شرعًا، فما بالك بالإنسان، وخاصة القريب من زوج أو ولد أو أب أو أخ..؟

والصلة بالله ذاتها تصنع هذا الإحسان، وهذا ما كان الأنبياء يلقِّنونه قولًا وفعلًا.

فقد ساور طفلٌ رسولَ الله ﷺ وهو يصلِّي، ورقى على ظهره؛ فأطال محمد ﷺ السجودَ، حتى لا يعجل هذا الطفل، ثم اعتذر إلى الناس الذين كان يصلِّي بهم، وقال: «**إن ابني**

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٦٤٩٤)، وأبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤)، والحاكم (٤/ ١٥٩)، والبيهقي (٩/ ٧١)، وفي «شعب الإيمان» (١٠٥٣٧) من حديث عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٩٢٥).

ارتحلَني، فكرهتُ أن أُعَجِّلَهُ حتى يقضي حاجتَه»[1].

وفي «الصحيحين» أنه ﷺ صلَّى مرة بالناس، وهو حاملٌ أُمامةَ بنتَ زينبَ، ابنة أبي العاص بن الرَّبيع، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها[2]؛ رعاية لألمها وفقدها لأمها!

وكان يصلِّي فيريد أن يطيل الصلاة؛ فيسمع بكاء الصبي؛ فيخفِّفها شفقةً على أمِّه التي قد تكون دخلت في الصلاة مع النبي ﷺ[3].

تداعت إلى ذهني هذه المواقف العظيمة، التي يزيد من عظمتها أن يحاول المرء استحضار الموقف بخياله كاملًا، والإمعان في تفصيلاته، ومشاهدته من وراء حجب الزمان والمكان!

ثم استذكرتُ قصة جُريج العابد، الذي كانت أمه تناديه وهو يصلِّي؛ فيقول: «أي ربِّ، أمي وصلاتي»! ويمضي في صلاته، ويدع إجابة أمه، فتدعو عليه ألَّا يموت حتى يرى وجوه المومسات!

وتقع له محنة، يُتَّهَم فيها، ويُجرجر من صومعته ويُضرب،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٢١٩١)، وأحمد (١٦٠٣٣، ٢٧٦٤٧)، وابن أبي الدنيا في «النفقة على العيال» (٢١٩)، والنسائي (٢/ ٢٢٩)، والحاكم (٣/ ١٦٥، ٦٢٦) من حديث شدَّاد بن أوس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٥١٦)، ومسلم (٥٤٣) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٧٠٩، ٧١٠)، و«صحيح مسلم» (٤٧٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

فتحين منه التفاتة؛ فيرى المومسات! فيتذكَّر دعاء أمه[1]!

هذا الانحياز السافر إلى الحقوق؛ حقوق الأب والأم والولد، حتى حال العبادة، لا بد من أن يكون مادة للحديث المستفيض، حتى يعلم المصلُّون والصائمون أن العبادة الحقة آيتها أن تثمر قلوبًا لينة رحيمة.

وفي حال الزوجية؛ تتداعى إلى الذهن قصة عبد الله بن عمرو ابن العاص ﵄، الذي تزوَّج؛ فسأل أبوه زوجته عنه، فقالت: نِعْمَ الرجلُ عبد الله من صائم قائم، لم يكشف لنا سِترًا!

فيشكوه أبوه إلى رسول الله ﷺ القائد الاجتماعي العظيم، ويدعوه ويسأله عن صيامه وصلاته، ويصحِّح له ويعدِّله، ويقول له: «**إنك إذا فعلتَ ذلك** - يعني طوَّلتَ في العبادة وأفرطتَ - **هَجَمَتْ له العينُ، ونَفِهَتْ له النفسُ، ولكن صُمْ وأَفْطِرْ، وقُمْ ونَمْ؛ فإن لجسدكَ عليك حقًّا، وإن لعينكَ عليك حقًّا، وإن لزوجكَ عليك حقًّا، وإن لزَوْرِكَ عليك حقًّا**»[2].

آن الأوان أن تفعل العبادة فعلها في نفوسنا وسلوكنا ومجتمعاتنا، وآن لنا أن نعلم أن الله يُعبد بالصلاة والصوم، ويُعبد بالإحسان إلى خلقه، والله يحب المحسنين.



(١) ينظر: «صحيح البخاري» (١٢٠٦)، و«صحيح مسلم» (٢٥٥٠)، و«فتح الباري» (٦/ ٤٨٢).

(٢) أخرجه البخاري (١١٥٣، ١٩٧٩، ٣٤١٩)، ومسلم (١١٥٩).

وداعًا للقسوة!

تتسم الشخصية القاسية عادةً بعبوس الوجه، وتقطيب الجبين، وغياب الابتسامة، وحينما يحاول صاحبها أن يبتسم تتجمد ملامحه، ويحسّ بالخجل، وقد يذهب به الوهم إلى أن البسمة تسبب له الازدراء، وتزيل هيبته لدى الناس.

وكأن النبي ﷺ عناه حينما ضرب مثلًا للبخيل الذي لبس جُبَّة أو جُنَّة: **«كلما همَّ بالصدقة انقبضتْ كلُّ حَلْقة إلى صاحبتها، وتقلَّصتْ عليه، وانضمَّتْ يداه إلى تَراقِيهِ؛ فيجتهدُ أن يوسِّعها، فلا تتَّسعُ»**[1].

لقد تضخمت عنده «الأنا»، واكتمل لديه الترسم الإمبراطوري، حتى أضحى جلده كجلد التمساح، ودموعه كدموعه، ومن ثَمَّ ضعف إحساسه بالآخرين، وغابت روح الجماعة، وحينما يتحدث عن (التعاون)؛ فهو يريده من الآخرين، من دون أن يضع نفسه معهم على قدم المساواة، وهذا ثمرة ضعف سيطرته على نفسه، واسترساله وراء النوازع الشريرة، كحب الذات، وسوء الظن بالناس.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩١٧)، ومسلم (١٠٢١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهو يعاني - ولابد - الجفاف العاطفي، وربما كانت العاطفة يومًا جَذوةً قابلة للاشتعال، ولكن ضعف التعبير عنها أهال عليها التراب، حتى صارت في عداد الموتى.

لا يستطيع لسانه أن يقول لولده: أحبك. أو أن يقول لزوجته كلمة ملاطفة أو وداد، هو يقول: هذا معروف، ولا يحتاج إلى تعبير أو حديث. والحقائق تقول: الحب والعاطفة شجرة يسقيها التعبير عنها بالقول وبالفعل، ويقتلها الصمت.

الشخصية القاسية مفرطة الثقة بآرائها وقناعاتها، عسيرة التحول عنها، ولذا لا يستفيد الإنسان العنيف من آراء الآخرين، ويفشل في إقناعهم بالرأي والمشروع الذي لديه، كما أنه يتعامل مع الناس بخوف وريبة، ويتعامل مع الجديد بتوجس وحذر مفرط، وينظر إلى الأشياء والأفكار من جانبها السلبي دون الإيجابي.

هذا هو ﴿أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ الذي إذا ﴿قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]، ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وقد نطقت هذه الآيات الكريمة بسماته وخصائصه النفسية والسلوكية؛ فسبحان من أنزل الكتاب تبيانًا لكل شيء!

إن شيوع هذه القسوة، كظاهرة اجتماعية سبب في ذبول الشخصية وضعفها، وتحطيم المواهب والطاقات والكفاءات، وإشاعة الجبن والتردد والارتباك، والخوف من المحاولة والخطأ، والجزع من كلام الآخرين، وفقدان السعادة والاستمتاع بالحياة، والقسوة المنعكسة على نفسه ومن حوله، ومن ثَمَّ

تفكك الأسر والدول والجماعات والمؤسسات والمجتمعات.

ولعل انتشار هذه الظاهرة في مجتمعاتنا الإسلامية من أهم أسباب تخلفنا، ولله دَرُّ عمرو بن العاص ﷺ حين قال في وصف الروم: «وخيرُهم لمسكين ويتيم وضعيف»[1]. وجعل هذا من أسباب بقائهم وكثرتهم ونفوذهم إلى يوم القيامة.

ولعل الحملة على القسوة بكافة صورها وأشكالها أحد محاور الإصلاح الصحيح في المجتمع المسلم. فكيف يساهم المجتمع في التخلص من العنف؟

لعل من أهم ما يعين على ذلك:

١ ـ التدريب على الحوار وآلياته وطرائقه وتقنياته.

الحوار مع الصغار من الأطفال في التعليم والترفيه والتوجيه.

الحوار مع المرؤوسين لتفهم وجهات نظرهم، وكسب ثقتهم، وتحقيق انتمائهم إلى العمل، وشعورهم الصادق بالإخلاص فيه.

الحوار مع الطلاب في قاعات الدراسة وغيرها، وفي قصة موسى والخضر أسوة وعبرة.

الحوار داخل شرائح المجتمع وأطيافه للاتفاق على كلمة سواء.

الحوار مع المنحرفين ـ أيًا كان انحرافهم ـ لكشف

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٩٨).

ضلالات عن عقولهم، والمؤثرات في سلوكهم.

المطلوب إصلاح شامل، وليس إصلاحًا سياسيًّا فحسب.

هب أن المرء ليس لديه أي قوة إدارية أو سلطوية، أليست لديه قوة العقل، وقوة الأخلاق؛ ليؤثر بها في الآخرين بالإقناع، وليس بالفرض والإجبار؟!

٢ ـ الترويح النفسي المعتدل، فإن النفوس إذا كلَّت عميت، كما يُروى عن علي ﷺ[١]، وأن يكون للفرد أو المجموع أوقات وأماكن يستمتعون فيها بتسلية مباحة، تزيل عن النفوس همومها وغمومها، وتعيد توهجها وإشراقها، فذلك ينفي عنها شِرَّة الانفعال، ويمدّها بالتوازن والهدوء الضروريين، ويجدِّد الأنسجة والخلايا بعد تلفها أو عنائها، ويبعث فيها الهمة والنشاط.

٣ ـ إشاعة الكلمة الطيبة الهادفة والخلق الكريم والابتسامة والنظرة الحانية، وللقدوة دور كبير في ذلك، ولتكن أنت بالذات ـ قارئ هذه الأحرف ـ أحد هذه النماذج والقدوات التي تتطوع لتقديم هذا العمل السهل الممتنع، مهما يكن رد الأطراف الأخرى، إنها صدقة تملكها، وإن كنتَ صفرًا من أرصدة المال.

عوِّد نفسك أن تبتسم ملء شِدْقَيك، وبصدق وصفاء لِمَن

(١) أخرجه البلاذري في «أنساب الأشراف» (٢/ ١٣٥)، وابن أبي الدنيا في «العقل وفضله» (٩٤)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (٧١٩)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٦٥٩)، والخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» (١٣٨٩)، والسمعاني في «أدب الإملاء والاستملاء» (ص٦٨) بلفظ: «روِّحوا القلوب، وابتغوا لها طرَف الحكمة، فإنها تَمَلُّ كما تَمَلُّ الأبدانُ».

تلقاه من إخوانك، محاولًا أن تكون الابتسامة تعبيرًا عن شعورك القلبي، وليست ابتسامة صفراء.

نشر ثقافة التسامح والعفو والصفح: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ [النور: ٢٢]، ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣]، ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٩]، وهذا هو مظهر القوة الحقيقية، والسيطرة على المشاعر والانفعالات العدوانية.

وفي «الصحيحين» عن أبِي هريرةَ رضي الله عنه، أن رسولَ الله ﷺ قال: **«ليس الشديدُ بالصُّرَعة، إنما الشديدُ الذي يملكُ نفسَه عند الغضب»**[(١)].

لم لا أجرِّب العفو عمَّن ظلمني، ولو بعد ما تسكن حرارة الغضب، وأن أسامحه حيث يعلم الناس أو لا يعلمون، ومهما تكن دوافعه لهذا الظلم؟!

سامحِ الناسَ ودعْ عِرْ ... ضَك وَقْفًا للسبيلْ
وأعِرْ سمعك وقرًا ... عند إكثار العذولْ[(٢)]

وحينما أضع رأسي على الوسادة تهيؤًا لنوم عميق، لم لا أنخرط في دعاء صالح للمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، من دون أن أستثني أحدًا؟ بل لم لا أخص أولئك الذين ظلموني أو أساؤوا إليَّ بدعوة خالصة صادقة أن يهديهم الله ويسامحهم...؟!

---

(١) أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

(٢) ينظر: «لباب الألباب» لابن منقذ (ص٢٧٥)، و«حسن السَّمت في الصمت» للسيوطي (ص١١٢).

إنه موقف صعب: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥]، لكن جرِّب أن تقسر نفسك على هذا المعنى الرفيع، ثم انظر.

كم من الراحة وجدتها في نومك؟

وكم من السعادة قفزت إليك حالما استيقظت؟

إن التجربة تؤكِّد أنك الرابح الأول بلا تردد.

وحتى في الآخرة، فلن يضيع لك أجر.

وحينما تألَّم أبو بكر ﷺ من تنكر مِسْطَح بن أُثاثة لجميله، وانهماكه في حديث الإفك، وحلف ألَّا ينفق عليه، أنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرةَ ﷺ، أن رسولَ الله ﷺ قال: **«كان الرجلُ يُداينُ الناسَ، فكان يقولُ لفتاه: إذا أتيتَ مُعسرًا فتجاوزْ عنه، لعل اللهَ أن يتجاوزَ عنا. قال: فلقي اللهَ فتجاوزَ عنه»**. وفي رواية للنسائي: **«إن رجلًا لم يعملْ خيرًا قطُّ، وكان يُداينُ...»**[1].

أنا مؤمن أن هذا المبدأ يجب أن يشاع بين الناس، لكنني لا أوافق أصحاب فكرة «اللاعنف»، كما في كتاب «سيكولوجية العنف» للدكتور خالص جلبي، وكما في موقع (اللاعنف) في الإنترنت.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٨٠)، ومسلم (١٥٦٢)، والنسائي (٧/٣١٨).

فقد فشل الكتاب وتوابعه في صناعة توازن أخلاقي بين التسامح النابع من قيمة معنوية صادقة وبين القوة العادلة التي هي ضرورة وجودية تمثلت في قوة العقل والمادة والتي هي سر من أسـرار الإصـلاح: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وهي حماية للإنجاز البشري من تسلط البربرية الوحشية المدجَّجة بالسلاح.

إن تصور التاريخ كله بلا حرب... هو تصور أخرق، قد يكون أي شيء آخر إلا أن يكون هو تاريخ البشرية.

٧ ـ تفعيل دور القنوات العلمية والدعوية والإعلامية، لبث الصورة الصحيحة للإسلام، وتعريف الناس بدينهم الحق، ومناقشة الاتجاهات التي يصاحبها نوع من الحدة في الهواء الطلق، وليس من وراء القضبان، وإذا لم تعرض الدعوة الإسلامية الصحيحة الناضجة من الكتاب والسنة، **فالبديل عن ذلك أمران:**

أ ـ شيوع المنكرين الفكري والخلقي بلا نكير، وهذا يؤدِّي إلى التطرف.

ب ـ الدعوات المنحرفة التي تجد آذانًا صاغية من الناس.

٨ ـ ضبط مناهج التعليم، وغرس مفاهيم الاعتدال داخلها، وربطها بدين هذه الأمة وتاريخها وحاضرها ومستقبلها، حتى يتخرج جيل مؤمن يعرف دينه باعتدال، ويعرف عصره ويؤدي وظيفته.



خامسًا:
العالم والعنف

لعل من أكبر المشكلات ـ التي يواجهها العالم ـ مشكلة الإرهاب، والمسلمون من أكثر الشعوب تضررًا بهذه الظاهرة.

بل ليس غريبًا أن معاناة المسلمين من الإرهاب في القرنين الماضيين أكثر من أي شعب آخر، لكن مع اعتبار الإرهاب مشكلة تواجه العالم، فهذا يستدعي خلق نظام يتسم بالقوة والأخلاقية؛ لمواجهة هذه المشكلة، ومع هذا فإنه من وجهة النظر الإسلامية المؤسسة على شمولية النظرة إلى الحياة، وصناعة الخير للعالم ندرك أن العالم يعاني مجموعة كثيرة من المشكلات، وليس الإرهاب فقط!

فهناك انتشار واسع للجهل والأمية والخرافة في حياة ملايين من البشر.

كما أن عشرات الملايين في العالم يعانون الأمراض، ويفتقدون أبسط حقوق العلاج والصحة.

كذلك في العالم مئات الملايين في العالم يعيشون تحت

خط الفقر، ومن الواجب علينا أن نشعر بهؤلاء، وأن ندرك أن مشكلات العالم لا يمكن أن تختصر في شيء واحد لصالح طرف واحد، ليس له امتياز إلا أنه الأقوى، ويمكن أن يستخدم القوة ضد المعارضين.

إن تردِّي الحياة المدنية والحريات لمئات الملايين في العالم يجعل من غير الأخلاقي ألَّا نفكر بهؤلاء، ونصر على تحديد المشكلة الخاصة في نظرة أحادية الجانب.

وكموقف أكثر وضوحًا؛ فإننا نعتبر الوقوف مع مشكلة الإرهاب فقط، وتجاهل المشكلات الأخرى، يعني أن العالم وبإرادة القوة يتجه إلى كارثة ستجعل الأمن في العالم كله مؤهلًا لمزيد من المفاجآت التي تدمِّر الحياة المدنية، أو على أقل تقدير تخلق حالة من عدم الاستقرار والشعور بالرعب، وحينها سيكون العالم أكثر معاناة من فترة الحرب الباردة أو أي فترة أخرى.

إن سلاح القوة والقدرة على إلحاق الضرر ليس حكمة صائبة، حتى في صناعة السيادة والسيطرة على الآخرين، فضلًا عن الجدية في معالجة الأخطاء، وترسيخ الأمن.

ومن المؤكد أن الأمن المدني في العالم اليوم لا يشهد حالة من الاستقرار؛ نظرًا إلى إصرار الإدارة الأمريكية على نشر الفوضوية في التفكير، وتبني الملاحقات التي لا تستند إلى القانون والعدالة.

ولقد بات واضحًا ـ لدى الإنسان العادي في العالم كله ـ أن الإدارة الأمريكية ليست جادة في الإصلاح العالمي، بل

تسعى إلى مزيد من السيطرة وضرب الاستقرار في أماكن عديدة من العالم، وكأن الإنسان المؤهل للحقوق هو الإنسان الأمريكي فقط!

لذا فإننا نؤكِّد أننا ـ نحن المسلمين ـ نمتلك إمكانية لفهم كل أساليب التعامل المناسبة لمواجهة الخيارات التي يرسمها طرف ما.

ومن المؤكد أننا سنكون الأكثر استعدادًا لاحترام الأخلاق والعدالة، وفي الوقت ذاته الأكثر استعدادًا للتضحية إذا اقتضى الأمر.

وفي هذا يقول أحد شعرائنا:

لي وإنْ كنتُ كقطرِ الطَّلِّ صَافِي — قصفةُ الرعدِ وإعصارُ السوافي
أتحاشى الشَّر جهدي فإذا ما — لجَّ في عسفي تحداه اعتسافي
خلقٌ وَرَّثَنِيهِ أحمد — فجرى ملءَ دِمائي وشِغافي
لم يغيره على طولِ المدى — بطشُ جبارٍ ولا كيدُ ضعافِ

وستأتي معالجات لجوانب من مشكلة العنف العالمية:

التطرف.. والتطرف المضاد

ربما كانت كلمة «التطرف» من أكثر الألفاظ إلحاحًا على ألسن الكتّاب والإعلاميين والساسة، والأحداث وتداعياتها تدفعها دفعًا إلى مقدمة المصطلحات الدارجة التي تعبِّر عن بعض مكنونات النفس، وتغني عن تطويل وسرد عريض، وهي كلمة مولَّدة غير أصيلة، ويفترض أنها تعني عند مَن يطلقها: وقوف الإنسان في طرف بعيد عن مركز الوسط.

ومتاهة المصطلحات سبب وطيد للتباين بين المواقف، وتحول الحوار إلى نوع من الصراخ في قوم لا يسمعون، إذ إن التطرف هو محاولة للتعريف بحسب الموقع الذي يشغله المرء.

فأنت إذا افترضت نفسك تعبيرًا عن الوسط، الذي هو رمز الاعتدال والتوازن والفضيلة، وهو مقام يتفق الجميع على نشدانه وطلبه، فالفضيلة وسط بين رذيلتين، كما كان يقول أرسطو، وقرر هذا علماء الإسلام، كالغزالي وابن تيمية وابن القيم وغيرهم، وهو أحد معاني «الأمة الوسط» في القرآن الكريم، يقول ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

إذا افترضت نفسك ممثلًا لهذه القيمة الراقية «الوسطية»

فأنت تحدِّد مواقع الآخرين تبعًا لذلك، فهذا يمين، وهذا يسار، وذاك يمين اليمين، وذاك يسار اليسار، وهذا متطرِّف، وهذا غير متطرِّف.

ولنا أن نعتبر هذا امتدادًا للمبالغة في رؤية الذات، وتقدير قيمتها، واعتبارها ميزانًا للحكم والتقدير، وربما محاولة لرسم منهج تفكير الآخرين دون ترك الخيار لهم.

إن من الأشخاص مَن يوجد في نسيج تكوينهم العقلي والنفسي مبدأ التوازن والاعتدال، وهذه قيمة شريفة، ونعمة غالية، ولقد كان العلماء يجعلون الفضيلة العليا هي فضيلة العدالة التي تتمثَّل في التوافق والانسجام بين قوى النفس عن طريق العقل، فلا تبغي إحداها على الأخرى، فيكون ثمة توازن بين قانون العقل وحركة النفس.

وبإزاء هؤلاء جُبل آخرون على نوع من الحدة المتمثلة في تفوق صفة من صفات النفس على غيرها، كصفة الغضب، أو صفة الشهوة، ويفتقد التوازن داخل نظام العقل وحركة النفس، فأحيانًا يكون العقل ذا سلطة مستبدة على النفس، وأحيانًا العكس، وفقدان التوازن هنا مؤهِّل لصنع أنظمة غير وسطية في مناهج التفكير والتربية، وكذلك العلم والمعرفة.

وهذا التكوين الفطري ذو علاقة وطيدة بنوع الاختيار العلمي والعملي الذي ينحو إليه المرء في غالب الأحيان، ما لم يقاومه ما هو أبلغ تأثيرًا، وأعظم وقعًا.

ونتيجة لهذا فإنك تجد اختيارات الإنسان وآراءه، وأنماط سلوكه وحياته متجانسة؛ لأنها تخرج من مشكاة واحدة.

ولحسن الحظ فإن غالب الناس هم في دائرة الوسط والعدل من حيث نظام التعامل الحياتي في أصل تكوينهم، ودائرة الوسط ليست صيغة واحدة، لكنها إطار عام يحتوي طبقات عريضة من الناس.

ويبقى أن هذه الوسطية الفطرية التي يتحلى بها أكثر الناس ليست سوى مؤهل بقبول الحق والتأثر به، والتسليم له، فهي نوع استعداد لا يفيد ما لم تنطبع عليه آثار الهداية الربانية.

والغلو بكل صوره وأشكاله هو الاستثناء الذي يعزز القاعدة ويؤكدها.

ولهذا حذَّر النبي ﷺ من الغلو، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: **«بمثل هؤلاء فارموا ـ يعني: حصى الجِمار ـ وإياكم والغلوَّ في الدين؛ فإنما أهلكَ مَن كان قبلكم الغلوُّ في الدين»**[1].

وكان الصحابة رضي الله عنهم هم الوسط العدول الشهداء على الناس، والذين يرد إليهم من غلا وأفرط، أو جفا وفرط.

والتطرف في الإطار الإسلامي هو تعبير عن فهم منحرف، أو تطبيق منحرف للتعليمات الشرعية، وإن كان قد يتكئ على حجج شرعية مبتسرة منتزعة من سياقها، أو ينطلق من غيرة دينية، كما في أول وأقسى نموذج في التاريخ الإسلامي، وهو نموذج الخوارج الذين لم يقنعوا بمستوى فهم وتطبيق الصحابة،

(١) أخرجه أحمد (١٨٥١)، وابن ماجه (٣٠٢٩)، والنسائي (٥/٢٦٨)، وابن خزيمة (٢٨٦٧)، وابن حبان (٣٨٧١)، والحاكم (١/٤٦٦)، و«الضياء» (١٠/٢٩ ـ ٣٢) (٢٠ ـ ٢٣). وينظر: «البدر المنير» (٦/٢٨٢ ـ ٢٨٣)، و«التلخيص الحبير» (٢/٥٠٢ ـ ٥٠٣).

حتى انشقوا عن نسيج الأمة، ووجَّهوا سهامهم إلى نحورها، بل كان أصلهم يمت إلى صاحب النفس المريضة الذي قدح في عدل النبي ﷺ، وخاطبه قائلًا: اعدل يا محمد[١]. فكانت تلك نواة الشريحة التي تصطفي نفسها، وتستشعر صدقها وطهارتها وإخلاصها، وتزن الآخرين بالجور أو الحيدة عن الصراط السوي.

لكن من الخطأ أن يتم تقديم هذا الأنموذج دائمًا على أنه صورة التطرف، حتى يقع في نفوس كثيرين أن التطرف بضاعة إسلامية، في حين يتم التغافل عن التطرف الصهيوني والتجاهل له، والذي تمثله أحزاب وجماعات رسمية وكبيرة تتبجح بغلوها، ولا تستحي من الجهر بمطالباتها الصارمة إزاء خصومها، دع عنك الغلو المرسّم المبرمج الذي أصبح جزءًا من السياسة اليهودية، وغدا قاسمًا مشتركًا لدى جميع الأطراف.

ومثله التطرف المسيحي المتمثّل في الجماعات والمنظمات الكثيرة في الولايات المتحدة، والتي تجاوز عددها المئة، ويقدر أتباعها بعشرات الملايين.

ولقد كانت الأحداث الأخيرة فرصةً لهؤلاء ليكشفوا مكنوناتهم ضد الإسلام والمسلمين، وكان منهم مَن يطالب بسحق كل ما هو إسلامي، ومنهم مَن يطالب بتدمير مقدسات المسلمين، وتعالت أصوات رسمية تتهم الإسلام ذاته، وتعتبره دينًا سيئًا وشريرًا!

وإسراف الحلفاء في غطرسة القوة، وتجاهلهم لأبسط حقوق الإنسانية، وعدوانهم على الشعوب، كما حصل في أفغانستان

(١) كما عند البخاري (٣١٣٨، ٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٣، ١٠٦٤) من حديث جابر وأبي سعيد رضي الله عنهما.

والعراق وغيرها، واستهانتهم بالدماء وحقوق الإنسان، لهو صورة صارخة من التطرف البغيض، لكنه تطرف القوي الباطش الذي لا يحتاج إلى برهان على ما يفعل والله المستعان.

فنحن في غابة الأشرار منطقها   مَن كان ذا قوة فليلق تمكينا

وهناك التطرف العلماني في العالم الإسلامي الذي يتحدَّث عن الليبرالية، ويمارس الجانب الدموي المتعسف من التجربة الشيوعية لملاحقة المتدينين ومحاصرتهم، إعلاميًّا ووظيفيًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا.

إن دائرة ردود الأفعال لا تنتهي، والتطرف يولِّد التطرف، ولعل أفضل بيئة لتشجيع الفكر المنحرف هي البيئة التي تحرم الناس من حقوقهم الفطرية والشرعية، وتصادرهم، وتحرمهم من فرصة الهدوء النفسي والاستقرار العاطفي، وتمتحنهم في أنفسهم وأديانهم وأهليهم وأموالهم.

إننا هنا أمام ضرورة توسيع مساحة التفكير، وألَّا نسمح للغرب أن يرسم مفهوم التطرف، وأن نعي أن التطرف يتجاوز دائرة القانونية، ليتحول إلى رسالة حضارية تخاطب العقول في العالم كله، وليس في الغرب وحده.

هنا ندرك أن الغرب يعيش أزمة، وإن كنا نعيش شيئًا منها، فيجب أن نكون مستعدين لتجاوز مشكلتنا.

وتجاوزها يتم عبر الحفاوة بالاعتدال وترسيمه، وإشاعة المفاهيم الشرعية الصحيحة التي تنهي حالة الاضطراب والتناقض.



الكيان الصهيوني والعنف

الحرب ذات أهمية للمجتمع الإسرائيلي ذي النسيج المفكَّك غير المتلاحم، فلا نجاة لهم مع وجود سلام حقيقي.

وهذا ينسجم مع الخبر القرآني الصادق عنهم: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

الحرب أو التهديد بالحرب هو الشيء الوحيد الذي يبقي على المجتمع الإسرائيلي متلاحمًا في مواجهة العدو المشترك.

وفي أيام الشيوعية كان الصهاينة يتطلَّعون إلى مقاومة الزحف الشيوعي على الشرق الأوسط؛ نيابةً عن الأمريكان، وبتعبير أعم: دور المدافع عن المصالح الغربية.

ولهذا ظن البعض ـ د. عبد الوهاب المسيري مثلًا ـ أنه مع سقوط الشيوعية وظهور تيار العولمة ربما تتقلَّص أهمية إسرائيل الاستراتيجية بالنسبة إلى الغرب.

لكن يبدو أن الأمر لن يكون بالضرورة كذلك؛ وبخاصة بعدما تعاظم الشعور الأمريكي بالخطر الإسلامي، فقد استطاعت

إسرائيل أن تجعل من نفسها أداةً رئيسةً لمواجهة التهديدات الجديدة، وأهمها الخطر الإسلامي الذي توافقت مصالحها مع بعض جيرانها في وصمه بالإرهاب؛ من دون تمييز بين تيارات العنف المحدودة التأثير، وبين أطياف واسعة ومعتدلة ومعبِّرة عن إرادة شعبية قوية، فحجزت لنفسها مقعدًا جديدًا في غاية الأهمية إقليميًّا وعالميًّا.

وبهذا تبدو الحرب الإسرائيلية جزءًا من الحرب الأمريكية المتجدِّدة على الإرهاب ـ كما تصفه ـ وهدفها تصفية المقاومة الصادقة؛ سواء كانت إسلامية أو وطنية..

إن «السَّلام» أكذوبة كبرى، وهم حين يتحدَّثون عنه يُخرجون ألسنتهم ساخرين، ولا يقبلون بغير العملاء الذين يُنفِّذون إرادتهم.

ولئن كانوا في الماضي يراعون اعتبارات ما فلا يُصرِّحون، فقد باتوا الآن يقولونها من دون وجل؛ لأنهم وجدوا أن بعض المنابر سبقتهم إلى التصريح من دون مواربة، فلم يعد لديهم ما يُخفونه، وممَّ يخافون؟ وكل شيء بأيديهم: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أما: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الحشر: ٢]، فلم تخطر لهم على بال، حتى أصبح شعبها في ملاجئه رهينة لصواريخ المقاومة، وتوقَّفت مطاراتها، ونزف اقتصادها، وبدأت الهجرة العكسية تتعاظم؛ تخوّفًا من قادم الأيام، وبدأت شعوب العالم تعرف ما يجري وترفض الجريمة الإنسانية؛ التي تنفِّذها الصهيونية من دون مبالاة..

تنتقم القوة الغاشمة من هزيمتها الموجعة، فتقتل الأطفال

والنساء والشيوخ، وتهاجم المستشفيات والملاعب والمدارس ودور الإيواء والشواطئ، وبواسطة مناظير دقيقة تحدِّد الهدف تتعمد قنص الأطفال، وهي لا تؤمن بحق الفلسطينيين في الحياة والعيش بسلام.

والذين يضعون أيديهم في أيدي الصهاينة سيندمون: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢].

والذين يُسوِّدون حساباتهم بتغريدات الولاء للصهاينة سيمسحونها، ولكن هيهات أن تُمحى من ذاكرة الأجيال!

يا أيها اليهودْ

لا يأخذكم الغرورْ

عقارب الساعة إن توقفت.. لابد أن تدورْ

إن اغتصاب الأرض لا يخيفنا

فالريش قد يسقط من أجنحة النسورْ

والعطش الطويل لا يخيفنا

فالماء يبقى دائمًا في باطن الصخورْ

من كل باب جامع.. من خلف كل منبر مكسورْ

سينهض القتلى إليكم.. حاملي أكفانهم

قد أيقظتهم نفخة في الصورْ

لم يخوضوا من قبل حربًا بمثل هذا الحلف الذي يركنون

إليه.. كانوا يخافون أن تطول الحرب فتحرك كوامن الشعوب، لكنهم حين تأكَّدوا أن الأمور تحت السيطرة، مضوا مأخوذين بقوتهم الحديدية، وفي عزمهم ألا يعودوا إلى ثكناتهم حتى يكسروا المقاومة، فخيَّب الله سعيهم: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وأسأله سبحانه أن يَمُنَّ على عباده بتحقيق باقيها: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأحزاب: ٢٦].

وثَمَّ عِبْرَتان من هذه الحملة ونتائجها:

الأولى: هذه الحرب على ضراوتها تؤكِّد أننا أمام مشروع قلق قابل للهزيمة، وأن الهالة الإعلامية التي تحاط بها أكذوبة غير بريئة، إن انتصارات الصهاينة السابقة لا تعكس قوتهم بقدر ما تعكس ضعف العرب والمسلمين.

لقد هزم الجزائريون فرنسا، وهزم الأفغان السوفيات، وهزم الفييتناميون أمريكا، ومن الضرورة أن نضع في الاعتبار الخلل في توازن القوى، إلا أنه كي تكتمل الصورة.. علينا أن نتذكر أن شعب فلسطين يملك الكثير:

١ ـ الاستعداد للتضحية والموت في سبيل الله، وشهادة القرآن عن عدوهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ٩٦].

وما دام عشاقُ الشهادة في الحِمى ... فكل الذي شاد الطواغيت باطل
ويرحل قتلانا وفي الحلق غُصَّة ... يريدون عمرًا ثانيًا كي يقاتلوا

سنُهدي كما أهدوا ونشوي كما شووا فمخزوننا من هذه النار هائل[1]

٢ ـ الإيمان بعدالة قضيتهم، فقد أُخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق، وحوربوا في رزقهم وأهلهم وأطفالهم.

٣ ـ ويملكون سحب اليد من أي علاقة مع إسرائيل، وها هي دول في أوروبا وأمريكا الجنوبية وأفريقيا تتحدث عن قطع علاقاتها مع إسرائيل.. بينما دول عربية ما زالت تحتفظ بهذه العلاقة!

٤ ـ إنهم يسندون ظهورهم إلى قاعدة عريضة من شعوب العرب والمسلمين لا يمكن أن يستمر صمتها على ما يحدث.

إن المال سلاح فعَّال في هذه المعركة، وإسرائيل تجني سنويًا مليارات الدولارات من اليهود المتعاطفين معها في العالم، فضلًا عن الدعم الحكومي الأمريكي.. والتعويضات وغيرها.

فلماذا يظل أثرياء المسلمين محجمين؟

والله تعالى جعل الجهاد بالمال قرين الجهاد بالنفس، بل مقدَّمًا عليه: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١].

نعم؛ نحن ندرك العين المتلصِّصة على التبرع، والمتسرِّعة في التهم بدعم الإرهاب.. ولهذا نقول لكل خائف: فليدعم الأعمال الخيرية، وليندفع لإعادة الإعمار، فأرض غزة تحتاج إلى بنية تحتية جديدة، ومدارس ومستشفيات، ومطار، وميناء..

(١) شعر الدكتور عبد الرحمن بارود في «ديوانه».

كل هذا لن يُعيد الأرواح التي أُزهقت، ولن ينشر الأسر التي أبيدت بكاملها، ولن ينزع الرعب من عيون الأطفال، ولكنه يُسهم في رفع المعاناة عن المضطرين من أبناء هذا الشعب.. وما أكثرهم!

اقترح عليَّ شاب أن أفعل وأفعل، فقلت: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠].

قال: أوص الشباب بالذهاب!

قلتُ: لا أرى الذهاب للشباب ولا لغيرهم، اتركوا المواجهة لأصحاب القضية، وهم أدرى بظروفهم وواقعهم، وأبعد عن الشتات، ويكفي أن يرسل كل متحمِّس منكم دعمًا بقدر ديته، عسى أن يكون فِكاكه من النار، وإنما يتقبَّل الله من المتقين!

٥ ـ التعبير عن الرفض والاحتجاج بكل الوسائل المشروعة؛ بالكلمة، بالخطبة، بالدرس، بالقصة، بالقصيدة، بالبرنامج..

ثمة مَن يقدرون على إقامة الأمسيات والمهرجانات التضامنية.

وثمة مَن يستطيعون أن يوصلوا صوتهم إلى العالم عبر وسائل الإعلام أو الفضائيات أو الشبكات الاجتماعية والأوسمة (الهاشتاقات).

٦ ـ سلاح الوحدة وتجاوز خلافاتنا وأنانياتنا، نملك أن نتفق على أصول الشريعة، ومعاقد إجماعها، وأصول المصالح

الدنيوية؛ التي تتحقق بالتصالح والتوافق، وليس بالتصفيات، وتمزيق الأنسجة الاجتماعية في الشعوب، وشن الغارات المتبادلة!

٧ ـ الدعاء الصادق الذي يقرع أبواب السماوات لا يحجزه بغي ولا ظلم؛ في هدآت الأسحار، وخشعات السجود، ولحظات الانكسار بين يدي الله، وساعات الاستجابة، في قنوت فردي أو جماعي، في نفل أو فرض.

٨ ـ مليار ونصف المليار من المتعاطفين الذين يحتاجون إلى شحذ الهمة وتقوية العزيمة، وتهيئة المضمار، وتيسير الأسباب، ولو أن يشاركوا بالعاطفة الحيَّة، والوعي الرشيد، والكلمة المساندة، والإعداد للمستقبل، فالمشوار طويل.

الثانية: إن المعركة مع الصهيونية وحلفائها ممتدةٌ زمانًا ومكانًا وميدانًا، ممتدة إلى الوعد الآخر: «**يَا مُسْلِمُ.. يَا عَبْدَ اللهِ..**»[(١)].

وهي ممتدة جغرافيًا إلى كل منطقة خطر يظنون أن سيأتيهم منها تهديد يومًا من الدهر؛ سوريا، ليبيا، مصر، العراق، اليمن.. إلخ

وهي ممتدة ميدانًا في محاور متداخلة من السياسة إلى الاقتصاد إلى الإعلام إلى السياحة إلى الأمن..

---

(١) كما أخرج البخاري (٢٩٢٦، ٣٥٩٣)، ومسلم (٢٩٢١، ٢٩٢٢) من حديث أبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهم، أن رسولَ الله ﷺ قال: «**لا تقومُ الساعةُ حتى يقاتلَ المسلمونَ اليهودَ، فيقتلهم المسلمونَ حتى يختبئَ اليهوديُّ من وراء الحجر والشجر، فيقولُ الحجرُ أو الشجرُ: يا مسلمُ يا عبدَ الله، هذا يهوديٌّ خلفي، فتعال فاقتله، إلا الغَرْقَد، فإنه من شجر اليهود**».

إن منطقة الخليج ـ بنفطها، وخيراتها، وثرواتها، وموقعها الاستراتيجي ـ حجر أساس في المعادلة المطروحة إسرائيليًّا وأمريكيًّا، والحلم اليهودي بالجمع بين رأس المال الخليجي والعقل الإسرائيلي واليد العاملة المصرية لا يزال خيارًا يروجون له بذريعة أنه يكفل أمن المنطقة واستقرارها..

المعركة طويلة وعلينا أن نُعيد ترتيب أوراقنا، وأن نعمل بجِدٍّ وبنَفَسٍ طويل، ونتلافى المعارك الخاصة؛ المعارك الذاتية.

كل المخلصين لأمتهم ولمستقبلهم يجب أن يشاركوا في التفكير الواعي الذي نعيد به صياغة حياتنا وفق المتغيرات والمخاطر القائمة، وليست القضية للإسلاميين ولا للفلسطينيين، بل لكل العرب، ولكل المسلمين إلا مَن أبى!



أمريكا والحرب على الإرهاب

خلال إعداد هذا الكتاب كشفت التقارير الفضائحية عن جرائم السجن والتعذيب البشع الذي قامت بها وكالات الاستخبارات الأمريكية التي وضعت المسؤولين عنها في موقف حرج ومخيف من الملاحقة، فضلًا عن المزيد من تشويه سجل الإدارة الأمريكية في المجال الحقوقي.

حين واجهت الولايات المتحدة ضربات (الحادي عشر من أيلول/سبتمبر) تحرَّك القرار الأمريكي لمواجهة ما يسمِّيه بالإرهاب، دون أن تقدِّم خطة تحدِّد مفهوم الإرهاب، وصور معالجاته، بل تمثَّلت الحركة الأمريكية في ترسيم (العنف والعنف المضاد) كخيار للعالم في هذا القرن.

والإدارة الأمريكية توسِّع نظرتها في تصنيف الإرهاب، وتعتبر كل مَن يعارضها ملاحَقًا في هذه الحرب التي تأخذ في البداية تجاربًا على مجموعة من الضعفاء، كما هو الحال في ضرب المدنيين في أفغانستان.

وهذا يعني أن هذه الحرب لن تقف ـ بحسب طموح إدارة الصراع في الولايات المتحدة ـ حتى تنتهي كل أشكال

الاستقلالية والطموح الذي يختار مسارًا آخر قد لا تتذوقه الإدارة في الولايات المتحدة.

وهنا، فإن الاصطدام الأمريكي لن يكون في العالم الإسلامي فقط ـ الذي قاوم الغرب أي محاولة منه للنهضة والتقدم ـ بل سيكون الحياد ذاته شكلًا من أشكال الإرهاب في نظر الإدارة الأمريكية، حتى مع الدول الأكثر تقدمًا وقدرة على تقرير مستقبلها الخاص، وهذا يعني أن الخطة المعلنة ستصنع كارثة عالمية تتجه لتقويض الأمن المدني، وضرب جميع صور الاستقلال السياسي والثقافي في العالم.

ولا شك في أن نهاية الحرب الباردة قد غيَّرت كثيرًا من الأوضاع، وأصبح مسوقًا في دوائر الغرب والولايات المتحدة بوجه خاص أن العالم مقبل على حياة أفضل، ومهيَّأ لقدر من التعايش والعدالة بين أجناسه وشعوبه وأممه بمختلف تشكلاتها ونماذجها.

لكن هذه الطمأنة لم تكن تتمتع بقدرة على التطبيق من حيث إن المشكلة التي كانت تمثلها الشيوعية لم تكن هي المشكلة الوحيدة التي تهدِّد الأمن العالمي، وهنا يبدو النظام العالمي الجديد بعد الشيوعية يحتفظ بقدر من التطرف والاستبداد؛ لأنه نظام أحادي التكوين والتركيب.

وفي ظل هذا النموذج الجديد المبشَّر به باسم الديمقراطية وحقوق الإنسان وحرية التجارة، اتجهت الولايات المتحدة لفرض خياراتها على مجموعة من حلفائها الأوروبيين، فضلًا عن دول العالم الثالث.

وهذا يعني أن الولايات المتحدة الدولة الأقوى صارت تخلق أسبابًا تخولها ملاحقة كل أشكال الطموح والتميز في العالم، الذي قد يسبِّب مزاحمةً للإدارة الأمريكية.

ولم يكن مفاجئًا أن تخرج الولايات المتحدة أكثر من مرة عن الخارطة الدولية في الأمم المتحدة؛ لتتبنى قرارات أحادية الجانب، أو تعترض على إجماع دولي.

ومن المؤكَّد أن الرأي العام العالمي لم يشعر قط بعدالة كافية في الحركة الأمريكية، وبات أكثر ذكاء ووضوحًا في رفض المزايدة الأمريكية تجاه قضية الإرهاب.

إن التقرير الاستراتيجي الأمريكي يفوِّض الإدارة الأمريكية في مصادرة كل صور القوة والمنافسة لتظل هي القوة الوحيدة في العالم.

كنتُ أشعر بالقهر والغيظ؛ كلما سمعتُ مسؤولًا في الإدارة الأمريكية يتحدث عن القيم والحرية والديمقراطية والحقوق!!

ولقد وصف أحدهم الحرب على العراق بأنها واحدة من أكثر الحملات العسكرية إنسانية في التاريخ.

أقول: لستم أهلًا لأن تعطوا الناس دروسًا في هذا المجال، وأنتم أول مَن يطيح بها!

ويشاء الله أن تتعرض هذه الإدارة لامتحان عسير في ما أسمته: (حربًا على الإرهاب)، وأن تتكتم لفترة على ممارساتها الوحشية في أفغانستان وغوانتنامو، ثم في العراق؛ لينكشف الأمر غير بعيد.

إن آلاف الصور التي نشرتها الصحف ومحطات التلفزة الأوروبية والأمريكية؛ تفضح ممارسات في غاية البشاعة ضد الإنسانية والأخلاق، فتعرية الأجساد والإجبار على الممارسات الجنسية والإهانات النفسية والسحل والسحب والضغط الهائل والتضليل، والقتل المتعمد هي مفردات في سجل أسود لهذه الإدارة وآلتها العمياء (البنتاغون).

والذي ظهر ليس سوى جزء من جبل الجليد!! فثمة المزيد مما لم تصله الكاميرات، أو وصلته ولم يصل بعد إلى وسائل الإعلام.

وقد يقول المرء: إن ممارسات البعث البائد أهون مما عملته هذه الإدارة خلال عام أو أقل!!

ولو أُتيح لكل امرئ أن يتحدث ويظهر أمام وسائل الإعلام ليبوح بمعاناته؛ لكنا نسمع ونرى ما تشمئز منه النفوس، وتنفطر له القلوب، وتدمع له العيون.

ولعل هذا اليوم غير بعيد.

والإدارة ظلت متكتمة على هذا الإجراء الإجرامي لبضعة شهور، حتى فضحتها الصور؛ فقال أحد مسؤوليها: إن الأمر لا يعجبه..!!

ثم رفع اللهجة ليقول: إنها ممارسات شائنة!

لكن تظل الإشادة المفرطة بأداء العسكريين، ومحاولة حصر المسؤولية بعدد محدود من الجنود ليذهبوا ضحايا.

ويأبَى اللهُ إلا أن تتحوَّل المشاهد والصور ووسائل الإعلام

إلى أدوات لتعرية وجه أمريكا القبيح، وأعمالها الوحشية، واستخفافها بالقيم الإنسانية؛ فلقد أصبحنا نعرف جيدًا معنى الحرية التي تعدنا بها أمريكا.. وماذا تعني حقوق الإنسان.. وماذا يعني الإصلاح والشرق الأوسط الكبير الذي يبشرون به..

إن الأمر أكبر من الاعتذار! وهذه الصور وقود جديد لكراهية عارمة ضد أمريكا، قد تتحول إلى طوفان جارف لا يميِّز ولا يفرِّق، وتصعب السيطرة عليه، أو التحكم في برامجه واتجاهاته وردود أفعاله، أو محاكمته بالمنطق.

وإذا كنا رأينا آلاف الاعتداءات العنصرية على مسلمين في أمريكا وأوروبا بعد أحداث أيلول/سبتمبر.. فكيف نتخيل ما سيقع نتيجة هذا القهر والعدوان الرسمي الموثّق.. والمرتبط بعدوان أوسع على استقلال الشعوب الإسلامية، وإرادتها.

وظلت أمريكا أكبر مصدِّر للعنف في العالم كله، وأكبر متملص من الالتزامات الدولية في مجال العدل والحقوق، إلا حينما تكون محتاجةً إليها.

ويكفي أن (٤٥٪) من صادرات الأسلحة في العالم أمريكية، ومنها الأسلحة التي يُقتل بها الأبرياء في فلسطين.

إن للإدارة الأمريكية سجلًا في الإرهاب لا يُنَافَس، ولأنها الدولة الأهم، والأولى في العالم؛ فقد تولّدت لديها نزعة إمبراطورية متعاظمة، تمثلت في غمس يدها في الصراعات الدولية؛ لبسط نفوذها، وحماية مصالحها على حساب: العدالة، والخير، والأخلاق.

ولو أننا بنينا أهرامًا من جماجم قتلى العدوان الأمريكي في بلاد العالم؛ لكان شموخها يفوق شموخ برج التجارة العالمي المنهار بضع مرات.

وقد هممتُ أن أدوّن جرائم أمريكا، فوجدتني أحاول محالًا! وأستعيد آلاف الملفات الملأى بالأرقام، والإحصائيات، والحقائق الدامغة.

وهذه بعض عنوانات الجرائم الإرهابية الغادرة، كمقدمة في ما نريد أن نخلص إليه:

١ ـ (١٨٩٩م) التدخل الأمريكي في الفيليبين، قتل مئات الألوف من الفيليبينيين الذين دفعوا حياتهم ثمنًا لنداء: (الحرية والعدالة) على حد تعبير الصحافة الأمريكية ذاتها.

٢ ـ في الذكرى السابعة والخمسين للقصف الذريِّ على مدينة هيروشيما؛ ذكر راديو اليابان الدولي أنه تم إضافة (٤٩٧٧ اسمًا)، تم التأكد حديثًا من أن وفاتهم كانت إثر القصف!!

وفي (القبر الأجوف) يرقد (٢٢٦٨٧٠) ضحية! الرقم صحيح!

وكان القصف في (٦ آب/أغسطس ١٩٤٥م)، وهذه أول قنبلة نووية شهدتها البشرية.

٣ ـ (١٩٥١م) التدخل في كوريا، بدعوى صد العدوان الشيوعي الشمالي ضد كوريا الجنوبية، ولا يزال في كوريا الجنوبية ثلاثون ألف جندي أمريكي.

٤ ـ (١٩٥٣م) التدخل في إيران؛ وقتل الآلاف من

الجماهير، وإعلان مسؤول في الخارجية الأمريكية أنه: كان علينا أن نتدخل لحماية مواردنا!

نعم! لحماية مواردهم، التي وجدت اتفاقًا في أراضي الغير!!

٥ ـ (١٩٦٥م) في إندونيسيا؛ انقلاب مدعوم أمريكيًا، حيث وصلت حصيلة المجازر إلى ما يقرب من مليوني قتيل من الفلاحين والفقراء، وقد شبهت أجهزة الاستخبارات الأمريكية ما حدث هناك بالجرائم التي اقترفها هتلر وستالين، وقامت مظاهرات الفرح في أمريكا، ولم تخف الصحافة الوطنية سرورها بما جرى!!

٦ ـ (١٩٧٣م) في تشيلي؛ انقلاب أمريكي، ومصرع الآلاف في ما عرف بـ(إستاد الموت).

٧ ـ فييتنام التي غزاها نحو مليون جندي، ولمدة أحد عشر عامًا، استُخدمت فيها أنواع الأسلحة المحرمة دوليًا، وامتدت إلى عام (١٩٧٥م).

وبعد ثلاثين عامًا من توقف الولايات المتحدة عن رش المواد الكيماوية هناك؛ كشف حديثًا عن معاناة مليون شخص، من بينهم مئة وخمسون ألف طفل مشوه، من آثار المواد الكيماوية، التي كانت تلقيها الطائرات الأمريكية على الغابات؛ لحرمان المقاتلين من الاحتماء بها.

٨ ـ تدخلات عديدة في نيكاراغوا، منذ (١٩١٢م)، مات بسببها مئتا ألف من السكان، وشهدت البلاد حالات تعذيب بشعة، ومجازر وحشية، وتدميرًا هائلًا!

وقد أدانت المحكمة الدولية الولايات المتحدة بهذا العدوان من دون جدوى.

٩ ـ نظام جنوب أفريقيا العنصري، بدعم من الغرب؛ يقتل مليونًا ونصف مليون إنسان، ويمارس عمليات تخريب، كانت كلفتها ستين مليار دولار، خلال حكم الرئيس ريغان.

١٠ ـ ذكرت مصادر رسمية أن نحو مليون طفل عراقي ماتوا بسبب الحصار، ونقص الأغذية، والأدوية والمستلزمات الإنسانية. ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨ ـ ٩].

وقد بات في حكم المؤكد إطلاق قنابل مشعة باليورانيوم المنضب، وذكرت تقارير عديدة، منها تقارير منظمة اليونيسف: أن عدد الإصابات بسرطان الدم زاد بنسبة أكثر من ستة أضعاف عما كان عليه في السابق.

وحين سُئلت وزيرة الخارجية الأمريكية عما يحدث قالت: إنه خيار صعب، ولكن الثمن يستحق ذلك!

١١ ـ أما في فلسطين، ففي قوائم شهداء الانتفاضة الأولى، نحو ألف وثمانمئة اسم بالتفصيل، وبحسب مصادر نقابة الأطباء؛ فإن (٢٥٪) منهم هم من الأطفال، أما الجرحى فيزيدون عن مئة ألف.

وفي سجن (تلموند) يقبع الرجال الصغار من الأطفال الفلسطينيين، في ظل ظروف صعبة للغاية، ويقدّر عددهم بأكثر من مئتي طفل.

ولقد شرَّد العدوان الإسرائيلي أكثر من سبعمئة وخمسين ألف فلسطيني من مدنهم وقراهم، ومزارعهم، وشن حرب إبادة

على هذا الشعب الأعزل، حتى أصبح الموت والدمار مشهدًا يتكرر كثيرًا، حتى لا يكاد يمر أسبوع إلا وتقع مأساة، فضلًا عن الحصار وما يستتبعه من ظروف اقتصادية وإنسانية مأساوية.

والولايات المتحدة هي (الراعي الرسمي) لهذا الإرهاب، و(الداعم) الأكبر، و(المحامي) عنه في المحافل الدولية.

وإن المرء ليشعر بالعجز! حينما يحاول أن يدلّل على الحقائق الواضحة الجلية، أو يدون في إحصائيات حجم القتل والدمار والتخريب في فلسطين خلال أكثر من خمسين عامًا.

١٢ ـ وفي أفغانستان قُتل وجُرح أعداد كبيرة، لا يكاد يأتي عليها الحصر من المدنيين الأفغان، ودُمِّرت منازلهم وممتلكاتهم أثناء القصف الجوي، استخدمت فيها قوات التحالف الأسلحة العنقودية، وغيرها.

وقد دعت المنظمات الدولية الإنسانية إلى فتح تحقيقات في الانتهاكات القائمة، والتي منها: وفاة مئات السجناء في قلعة (جانجي)، والعثور على أعداد كبيرة من الجنود المختنقين.

١٣ ـ ومن قبل قامت القوات الأمريكية اعتباطًا؛ بضرب مصنع الشفاء للأدوية في السودان (١٩٩٨م)، وبضرب أفغانستان بالصواريخ في السنة نفسها.

وقد مات مئات الألوف من أطفال السودان بسبب نقص الأدوية.

١٤ ـ وفي غوانتنامو في كوبا يعتقل مئات الأسرى، في ظروف غير إنسانية، من دون محاكمة، ولا توجيه تهمة، وتبخل عليهم الإدارة الأمريكية حتى بلقب (أسير حرب)! ولا تسمح لأهلهم

بزيارتهم، ولا بالاتصال الهاتفي، أو التحادث عبر الإنترنت!

هذا شأن تطول قراءته، إننا نستعرض تاريخًا طويلًا، ونُطِلُّ على غابة متشابكة الأشجار، ملأى بالوحوش الضواري والحملان الوديعة!

ولقد تجاهلت الإدارة الأمريكية كل هذا، ثم قدَّمت نفسها على أنها: نموذج الخير، والعدالة، والأخلاق. وقال قيصرها حين ذلك: إن من لم ينحز إلى صف الولايات المتحدة في حربها ضد الإرهاب؛ فإنه منحاز بالضرورة إلى الإرهابيين، ويكون قد اختار مصيره!

وحسبما نستقرؤه في السنن الربانية؛ فإن هذه القوة العظمى تسير في الطريق الخطأ، ليس بالنظر إلى الحق والعدل ـ فهذا أمر مسلَّم به ـ ولكن بالنظر إلى مصالحها المستقبلية.

إن السُّنَّة آتية لا ريب فيها، وإن استبطأها الناس واستعجلوها: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ❊ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ❊ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ❊ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ❊ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ❊ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٢ ـ ٤٧].



نهاية التاريخ، أم نهاية المثقف؟

مثقف، أم كاتب بلاط؟

لم أستطع أن أمسك خيطًا واضحًا في مجموع أطروحات الكاتب الأمريكي (فرنسيس فوكوياما)، سوى خيط الولاء الرسمي لإدارته؛ فأطروحته الشهيرة في تمجيد الديمقراطية الغربية، وأنها نهاية التاريخ تعني: توقّف الحياة والإبداع والأشواق الإنسانية للمعرفة والترقّي والطموح.

وإذا كان (فوكوياما) يقول بتواضع: إنه لا يملك نظرية كنظرية ماركس في التاريخ، فلقد صدق، وكان تواضعه في محلّه، فمدار نظريته هو إطراء النتائج المشهودة لتطورات السياسة الغربية.

ولا خلاف على جوانب من إنجازات النظم الديمقراطية، بيد أن هذا لا يعني أنها نهاية التاريخ.

وهجومه غير الموضوعي على الإسلام، واعتباره (فاشية القرن الحادي والعشرين)، كما في «نيوزويك» (السبت: ٥ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢م) يكشف عن تطابقه مع رؤية الإدارة

الأمريكية في صناعة الإسلام، وترسيمه عدوًا للحضارة والحرية.

وتصويره بأن مشكلة الإسلام هي في التباسه بالسياسة، وحاجته إلى فصل الدين عن السياسة على غرار ما حدث في أوروبا، هو ما تنادي به الإدارة الأمريكية من تفريغ الإسلام من محتواه السياسي.

وكنتُ أشعر بإشفاق حين أراه يقول: (إن المشكلة لا ترتبط بعلاقة الإسلام بالغرب، بل بالمعركة داخل الإسلام نفسه. . .).

في حين أن التقرير الذي نشرته مؤسسة (راند) التي كان (فوكوياما) أحد أعضائها يومًا ما يؤسس لافتعال صراعات بينية داخل القوى الإسلامية، ومحاولته دعم أطراف على أخرى بحجة دعم الاعتدال والعصرنة.

ولست أدري إلى متى هذه الثقة لدى مثقف بأن الإدارة الأمريكية تمثِّل الشفافية والصدق والخير في مقابل محاور الشر العالمية؟!

وإلى متى تظل الجهود الجبارة لمقاومة الغلو إسلاميًّا، غير ذات جدوى ما دامت لا تتطابق مع الأجندة الأمريكية؟!

ما مقاييس الخطأ لدى (فوكوياما) في تدخل الإدارة الأمريكية في أفغانستان؟

ثم في العراق؟

هنا لم يأت الحديث قط عن حقوق الإنسان ولا عن حريات الشعوب، وإنما كان الخطأ وفق معيار خاضع للسياسة الأمريكية ومصالحها.

لماذا الحديث عن التدخل الأمريكي في مناطق مختلفة من العالم على أنه (ضلوع في مسألة أمنية)، وأن هذا يسوّغ استثناء الجنود الأمريكان من المحاكمة الدولية؟

لم نفترض أن الأمن القومي الأمريكي هو المحور الوحيد الذي يرسم السياسة، وأنه يمر عبر عواصم العالم؟

ولم نفترض أن السياسة هنا هي التدخل.. في حين أن (فوكوياما) يقول: إنه ضد استخدام القوة؟!

حرب الإرهاب، أم حرب الإسلام؟

إن دوائر كثيرة في الغرب بعد أحداث (الحادي عشر من أيلول/سبتمبر) توجَّهت لإيجاد صورة من الصراع مع العالم الإسلامي، وبخاصة دول الارتكاز، ومن المؤكّد أن الغرب يعي هذا الانتقاء، ومَن وراءه.

لقد بدأ الغرب بملاحقة ما يسميه بالإرهاب في أفغانستان ثم العراق، ثم وسع الدائرة إلى معاقبة دول إسلامية أخرى، ثم بدأت الرؤية الغربية ـ بشكل كبير ـ تتجه إلى شمولية الصراع، وملاحقة الرؤية الإسلامية التي سجلت إدانتها لأحداث (الحادي عشر من أيلول/سبتمبر).

هذا التحضير لشمولية الصراع ضد القوى الحضارية الإسلامية الثقافية والاقتصادية والاجتماعية تحاول دوائر في

الغرب سياسية وإعلامية وثقافية واقتصادية أن تبحث له عن مسوّغ يستوعبه عقل الفرد الغربي.

وهنا تحاول هذه الدوائر أن تقدم صياغةً مناسبةً عن المفهوم والفكرة الإسلامية لتعبئة العقلية الفردية في الغرب؛ لتقبُّل هذا الصراع الذي من المؤكد أنه يتجه لغير صالح الغرب، والذي سيكون مسؤولًا عن مستقبل أكثر مرارة ومفاجأة من تصرف خاص وقع في (الحادي عشر من أيلول/سبتمبر).

إننا هنا يجب أن نحترم أمانة التاريخ، وأن نقرأ الأمور بجدية أكثر، وربما كانت مجموعة القوى الغربية المفضلة لهذا الخيار تركض وراء الوهم، أو تفضل مشاهدة نشوة الغرور.

إن الغرب حين يتصرف كقوي مستبد، فإنه يقول للآخرين: يجب أن تتصرفوا كمستبدين أقوياء، وهذه مصادرة لمنطق الفضيلة والعقل.

لقد استعملت دوائر إعلامية وثقافية في الغرب تبرير هذا الخيار في عقلية الفرد الغربي بأن الأزمة التي بدأ الغرب يواجهها إنتاج للثقافة المَتداولة في العالم الإسلامي، والتي تهدِّد الغرب وحضارته حسب نظر هذه الرؤية الصاعدة في الغرب.

ونحن نفضِّل ـ اهتداءً بهدي أنبياء الله ـ ألَّا يكون هذا خيارنا الأول، بل أن يكون ثمة حرية لإعطاء الفرد الغربي مساحة من الحياد والهدوء يحاول أن يعرف بها الإسلام.

حقيقة عادلة

لا شك أن واقع المسلمين اليوم ليس هو المفهوم الذي رسمه الإسلام، فالإسلام رسالة متعالية عن الازدراء، والظلم، وصناعة الشر، وهذا معنى شمولي يجب أن يبرز ليتعرف عليه الآخرون كما نزل، لا كما هو واقع المسلمين.

ومع هذا فإننا نعي أن واقع المسلمين ـ وإن لم يكن تمامًا ـ هو الإسلام فمن المؤكد أن الإسلام مطبق في واقع المسلمين في شريحة لا تحدها دولة أو لغة، بل هي معتبرة بمفهوم الإسلام الصحيح الوسطي الخالد.

ومن الأمانة والعقل أن نعترف بمظاهر كثيرة سيئة في الواقع الإسلامي، لكنها لا تمثّل الإسلام، ولا تمثّل أيضًا كل هذا الواقع، وأيضًا فهي قابلة للمعالجة والتصحيح، والغرب حين يتحدَّث عن مفهوم سيئ في واقع المسلمين، يجب أن يدرك أنه ربما يتحدَّث عن أنموذج يُنتقى بموضوعية، أو يمارس نوعًا من التحريف للحقيقة، والمزايدة على الوهم حين يتحدَّث عن أُنموذج فاضل، لكنه لا يعترف له بذلك.

إن مفهوم التعامل الإسلامي مع الغرب يجتمع في آيتين من كتاب الله، يدرك حقيقتهما أصحاب العلم والوسطية في العالم الإسلامي، هما قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨ ـ ٩].

هذا المفهوم هو الحقيقة العادلة التي رسمها القرآن الذي يؤمن به المسلمون جميعًا، وإن كان بعضهم قد يخطئ في فهمه، لكن من المهم ألّا نخلق جو هذا الخطأ.

إن منطق العقل يقف ضرورةً لاحترام هذا المفهوم العدلي في التعامل، ومن المؤكد أن الغرب على مستوى القرار لا يمتلك ولو مجرد رؤية معتدلة في التعامل مع العالم الإسلامي.

من الأفضل أن يعي الغرب أن مظاهر الخطأ التي تقع في العالم الإسلامي، وإن كانت تتمتع بأسباب بيئية خاصة إلا أنه من المُدرك ـ حتى للفرد العادي ـ أن الغرب من صناع هذا الانحراف الذي قد يكون أزمة تواجه الغرب نفسه، بل هذه حتمية قادمة في ظل هذه الممارسة الغربية لورقة الصراع، وهنا يجب أن يدرك الغرب أن المجتمعات الإسلامية ستكون متسامحة بشكل عفوي، وربما متعاطفة مع كل أشكال المواجهة والعداء للغرب من دون امتلاك فرصة كافية لقراءة التصرفات وصوابيّتها.

كهنوت السياسة والاقتصاد

الدور البائس الذي أدّاه رجال الكنيسة ضد الفرد في المجتمعات الغربية في القرون الوسطى يؤديه اليوم بشكل أكثر سَحقًا للفرد الغربي مجموعة من رجال السياسة، وبعض الفصائل الفكرية الغربية، وكثير من مؤسسات المال والاقتصاد والإعلام التي لا تمتلك معرفة كافية بقوانين الوجود، وحركة النظام الكوني، بل تتصرف تحت رؤية خيالية أشد وهمًا من تلك المواعدات التي رسمها رجال الكنيسة والباباوات.

الحرية الغربية يشكلها الأقوياء فقط في الغرب، والذين يولدون يتجهون نحو الأقوى في التأثير، ومن المؤكد أن هؤلاء لا يمتلكون خيارات كافية، ومن المؤكد أن الأقوى ليس بالضرورة هو الأفضل.

لقد أنتجت الحضارة الغربية المعاصرة ليس للفرد الغربي فحسب، بل لقطاع عريض في العالم مجموعة من الإيجابيات في حركة التطور والصناعة والتقنية والتقدم العلمي في علوم الطبيعة والتجربة والتخطيط، وإن كان كثير من دوائر القوة والسيطرة في الغرب يحاول المحافظة على التخلف الذي تعيشه دول العالم الإسلامي في هذه المفاهيم وما شاكلها، ويطلب ثمنًا باهظًا لتقديم اليسير لدول العالم الإسلامي.

ومع هذا التقدُّم أبقت الحضارة الغربية فراغًا واسعًا في مفاهيم كثيرة ضرورية لحفظ الفضيلة والعدل، تلك التي حاول الفلاسفة الغربيون في عصر التنوير أن يشكِّكوا في مصداقيتها، وجاء الواقع الغربي اليوم نتيجة لهذه الفلسفة التي تعالج هذه الفراغات بتهمة وهميّتها، وعدم التأكد من ضرورة وجودها، وكان أخص هذه المفاهيم قانون الثقافة والتفكير، ونظام المجتمع اللذين عالجهما الغرب بفلسفة (الحرية) تحت سلطة (العلمانية).

إن أحداث (الحادي عشر من أيلول/سبتمبر) يجب ألَّا تتحول إلى سلطة تحاصر التفكير والعقلانية في قراءة المشكلة التي تواجه الغرب.

يقول أحد فلاسفة الغرب: إن كل إنسان يمكن أن يكون مفكّرًا حرًّا.

وربما كان يتحدث عن حقيقة مهمة، وهي: أن كل إنسان يمكن أن يتعرف إلى الحقيقة.

والمجتمع الأمريكي يشكّل سوقًا مفتوحة للأفكار، كما يقول (فوكوياما)، ولكن الأقوى من الفكر هي مؤسسات الضغط والتأميم الغربية السياسية والاقتصادية والثقافية والإعلامية، التي تتعارض مصالحها في حركتها داخل المجتمع الغربي المستهلك، ولكنها قادرة على التوحّد في الحركة الخارجية إلى حد ما.

إن الفرد الغربي هنا يعيش تحت سلطة هذه المجموعة الساحقة لخياراته الخاصة.

صحيح أن الفرد في الغرب يشعر بنوع من التعدّديّة في الاختيار، لكنها خيارات محدودة فرضها تصارع القوى المنتجة داخل المجتمع الغربي، وفي دائرة اللاوعي فإن الفرد الغربي لا يتمتع بحرية خاصة، بل يبقى أن الخيارات الثقافية والاجتماعية مفروضة عليه باسم الحرية، والحقيقة أنها مجموعة من السلطات المتعددة المستبدة، وربما كانت الكنيسة أكثر هدوءًا وعفوية في استهلاك الفرد لصالحها.

غطرسة القوة والشر

حينما يفترض الغرب أن شرط صلاحيتك للبقاء ألّا تكره الغرب ومفاهيمه وثقافته، في حين أنه يمارس صناعة الأزمة

المصعّدة لمفهوم العداء، ليس عند المسلمين فقط، بل هذه ظاهرة مشاهدة في القوى العالمية القائمة، فهو يطرح معادلة من الصعب على كل قوانين العلم والعقل أن تستوعبها أو تحترمها.

إن كراهية الغرب ليست أزمة صنعها المسلمون، بل ثمة مؤثرات متعددة في هذا الواقع.

والغرب يرى لنفسه حق كراهية الآخرين، ووصفهم بالشر، وصناعة مشاريع للصراع معهم، لكنه يختار أن مبادلته الشعور نفسه يُعدّ جريمة من الضروري أن يصدّق عليها كل العالم تحت قانون: «إن لم تكن معي فأنت ضدي».

وهذا القانون يفترض أن يؤمن به الغرب نفسه حين يُقدمه له العالم الإسلامي أو غيره من القوى الحضارية التي تفضّل حتى الآن أن تتمتع بوجودها وسيادتها فقط، لكن الغرب في صراعه يتحرك تحت مفهوم تعطيل حركة الوجود لهذه القوى، أيًّا كانت آلية الوصول إلى هذا الهدف ودرجتها الأخلاقية.

ربما من المشكل في العقلية الغربية أنها عقلية ذاتية مطالِبة، من الصعب أن تستوعب خيارات الآخرين ومطالبهم، وليس سرًّا أن الغرب يكره القوى الحضارية المنافسة له، وفي مقدمتها العالم الإسلامي الذي قد تكون خطواته أكثر سرعة في ممارسة تعويق الاستبداد الغربي.

إننا لم نطالب الغرب يومًا ما ألّا يكرهنا إذا كان يفضل ذلك، ونفضل أن نتركه يمارس خياراته، لكننا نطالب أن يكون ملتزمًا بالمعايير الأخلاقية.

والإسلام يستوعب التعامل مع الغرب، لكن المشكل أن مفهوم الحرية في الغرب لا يستطيع أن يستوعب التعامل مع الإسلام؛ لأن العلمانية تمارس سلطة يرسمها الأقوياء فقط في الغرب، ويصعدون لها، ويحاولون إقناع العقلية الفردية بها، تحت وعد قادم في تصفية قوى الشر والإرهاب، كما يردّد الساسة، وكثير من رجال الثقافة والفكر والإعلام هناك.

لكن من المهم أن نؤكِّد للغرب في شتى طبقاته ومستوياته أننا قد نبدو بسطاء، لكن من الجيد أن يفهم الغرب أننا لسنا كذلك، وأننا نتمتع بدرجة كافية من الذكاء. إن الغرب قد يصنع للعالم الإسلامي من حيث لا يريد ما عجز عن الوصول إليه.

وإذا كان الغرب يعتقد أنه خرج من عصر الظلمات من قرون قريبة، فإننا تجاوزنا عصر الظلمات منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا، وإننا في الوقت نفسه نفضل خيار التعامل بالعدل، والسعي إلى الإصلاح البشري، ومعالجة الفساد والشر، بشرط أن يكون لدى الغرب استعداد للاستماع إلى الرؤية الإسلامية المعتدلة التي هي رسالة الخير التي نحبها لكل الناس في العالم، ونبي الإسلام أرسل رحمة للعالمين، ويقول كما في الرواية الواردة عنه في كتب السنة الصحيحة: **«مَن قتل معاهَدًا لم يَرَحْ رائحةَ الجنة»**[1]. فأي ضمان يمكن أن تقدمه رسالة للآخرين أرقى من هذا المفهوم؟!

ومن الأفضل هنا أن يراجع الغرب موقفه من أخلاقيات التعامل مع القضايا الإسلامية.

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٦٦، ٦٩١٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

هذا هو الحل، وهو حل يتسم بالاعتدال والعقلانية، ومن الأفضل أن نحترمه جميعًا، وأن نتجاوز المزايدة على الإسلام والمجتمعات الإسلامية لصناعة الصراع؛ لأن الغرب هنا بكل تأكيد يتصرف بغباء.

إن قُرّاء الفلسفة الغربية يدركون أن ثمة مشكلة كامنة في العقلية الغربية، وهي سيطرة عقلية الصراع، وفرضها على الفرد الغربي للمشاركة والتفاعل معها، لكن من المهم أن يدرك الغرب أن الصراع يقود إلى النهاية والحتمية، وهذا بكل تأكيد لا يستطيع الغرب التعامل معه واستيعابه.

إن من أهم أسس الحضارة السماح للفرد فضلًا عن المجتمع بممارسة الخيارات الثقافية والاجتماعية، لكن الدوائر المتسلطة في الغرب غير مستعدة أن تمنح المسلمين هذا الحق حتى في تفسير الإسلام، فهي تريد أن تملي صياغة خاصة في مفهوم الإسلام، من أهم أسسه المحافظة على سيادة الغرب، وتسخير العالم الإسلامي حتى على مستوى العواطف والولاء له.





القسم الثاني

العنف.. مفاهيم تصحيحية



في هذا القسم من الكتاب سأعالج بشيء من الاختصار مجموعة من الجوانب التي نحسب أن الخلل في تصورها أسهم في تشكيل هذا النوع من التفكير الذي ينزع نحو التطرف، تاركًا المجال في تفصيلها إلى الدارسين ليعمقوا فيها البحث والنقاش والدراسة، وأحسب أن العناية بهذا النوع من الفقه كفيل بأن يكبح جماح كثير من التصرفات التي وقعت من تيارات العنف.

ومن أهم تلك الجوانب التي ينبغي العناية بها في تشكيل هذه العقلية جانبان:

١ ـ فقه تأويل الشريعة.

٢ ـ فقه تنزيل أحكامها على أرض الواقع.

أما المسائل في الأمر الأول، فسأعرض لأهم القضايا الشرعية، التي حصل بسبب عدم فهمها على الوجه الشرعي المطلوب كثير من اللبس والإشكال عند أصحاب هذا التيار، وأهمها في نظري ثلاثة: فهم طبيعة التدين، وفهم قضية الإيمان والكفر، وفهم مسائل الجهاد. فالخلل في فهم هذه الأمور الثلاثة كثيرًا ما تسبب في الانجرار نحو أعمال العنف التي نشاهدها على أرض الواقع.

وأما المسائل في الأمر الثاني، حول فقه تنزيل الشريعة، فسأتحدث فيه حول ثلاثة أمور: فقه المآلات، وفقه الموازنات، وفقه التغيير وسننه، لأن مَن يتابع مسيرة تيار العنف، يدرك أنه لم يكن يحسن التعامل مع مآلات أفعاله، ولا يجري موازنات حقيقة في طبيعة تصرفاته، ولم يتعامل مع السنن الكونية والشرعية في عملية التغيير على أرض الواقع.



المبحث الأول

في فقه تأويل الشريعة



أولًا:
في فقه التدين

مفهوم الوسطية

الحديث عن الوسطية يستدعي الوقوف لتكوين مفهوم الماهية العلمية للوسطية من وجهين:

١ ـ باعتبارها منهجًا شرعيًا بعث به سائر الرسل عليهم الصلاة والسلام.

٢ ـ باعتبارها قانونًا يمثل أفضل صياغة للمعادلة بين العقل والنفس.

ربما كان الاعتراف بصحة مفهوم الوسطية، وتأهيله للتأسيس والصياغة في العلم والعمل، يعد حقيقة مسلمة لا جدال حولها.

لكن هذا لا يعني الخلاص من إشكالية الصياغة التطبيقية لهذا المفهوم، والتي يقع حولها الاختلاف بين كثير من الإسلاميين اليوم.

بل إنك إذا نظرت إلى التاريخ الإسلاميّ، وبخاصةٍ التاريخ العلمي المعرفي، وجدت الإشكال في صياغة المفهوم الوسطي

من أكبر العقبات التي تواجه أصحاب الاهتمامات المعرفية في تاريخ الأمة.

إن الجدل حول جدوى هذا المفهوم الأصيل «الوسطية»، لم تكن قائمة قط حول التسليم به من حيث المبدأ، لكن مثار الجدل كان الخلاف حول الصياغة العلمية التأسيسية، أو حول النموذج التطبيقي، ومحاولة تحديد المدلول الشرعي والعقلي للوسطية في هذين الجانبين.

فمع القبول العام بمبدأ الوسطية والتسليم به، ظلَّ تحديد الرؤية الشرعية الواضحة لهذا المبدأ مثارَ جدلٍ.

وربما يكون من اليسير رؤية الخلاف في التطبيق في مساحة العمل الإسلامي اليوم، والذي قد يصل إلى حد التناقض في العمل والأهداف، ويقوم على تسليم نظري على الأقل بالوسطية، ولكنه يجرُّها إلى جهة تلائمه.

نعم، ليس بالضرورة أن تكون الخلافات نتاجًا لمفهومات قَبْلية مُسبقة، فقد تكون - في كثير من الأحيان - إفرازات للمحيط الاجتماعي والنفسي والسياسي والاقتصادي. . . إلخ.

وعلى أي حال، فإنه يمكن التأسيس لرؤية مناسبة لهذا المفهوم الشرعي الشمولي في العلم والتطبيق، من خلال التأمل في الحديث النبوي الذي رواه البخاري عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: **«إن هذا الدينَ يسرٌ، ولن يُشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غَلَبَهُ، فسدِّدوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغَدْوة والرَّوْحة وشيءٍ من الدُّلْجة»**[1].

(١) أخرجه البخاري (٣٩).

وعن ابن عباس ﷺ قال: قيل لرسول الله ﷺ: أيُّ الأديانِ أحبُّ إلى الله؟ قال: «**الحَنِيفيَّةُ السَّمْحةُ**»[1].

فهذا الخطاب النبوي يمثِّل صياغة شرعية للوسطية.

إن من المهم الإدراك بأن بعض الصياغات التي يُؤَسَّس بها لبناء مفهوم واضح للوسطية، قد تتحوَّل تحت تأثير واقع معين، ورؤية اجتهادية خاصة، إلى أُسس مناقضة للمفهوم الشرعي، بدلًا من كونها أُسسًا لبنائه.

وهذه مشكلة ربما تواجه أي مفهوم ثبوتي آخر، يكون من المسلَّمات المتفق عليها لدى الأطراف جميعًا، لكن يقع الإشكال في فهمه وصياغته، واستئثار كل طرف بتعريفه الخاص، ونموذجه الخاص.

إن المفهوم الثبوتي لأي مُسَلَّمة أو مبدأ شرعي يحسن أن يحدّد ويؤكّد من خلال معانٍ وأصول وقواعد ثابتة، لا أن يحول إلى صياغة اجتهادية مطلقة؛ لأنه حينئذ قد يتحول إلى نموذج تطبيقي، لا يؤمن إلا بمفهومه الخاص.

وهنا نرى أن كثيرًا من المناهج في العمل الإسلامي اليوم لا تعترف بغير المفهوم الخاص الذي تنادي به، وصار يتولَّد من كثير من المفاهيم والمسلمات الثبوتية صياغات تمثل رؤية واحدة، لا تؤهل للتعامل مع أشكال العمل والدعوة.

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٠٧)، وعبد بن حميد (٥٦٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٨٧)، والضياء (١١/ ٣٦١ ـ ٣٦٢) (٣٧٠ ـ ٣٧٢)، وينظر: «السلسلة الصحيحة (٨٨١).

ولن يحظى الفهم العام للوسطية بالإجماع نفسه الذي يحظى به المبدأ الأصلي؛ لأن الفهم اجتهاد تفصيلي، وثبات المبدأ لا تستلزم ثبات الاجتهاد في فهمه وتحصيل معناه.

ولذا يحسن أن نفرق بين ثلاثة مستويات هنا:

الأول: الإيمان بالمبدأ باعتباره قاعدة شرعية ضرورية.

الثاني: فهم القواعد الشرعية المتعلقة بهذه المبادئ الثبوتية.

الثالث: الفهم الخاص المبني على الاجتهاد في الحكم على واقع معين بأنه هو الوسطية.

فهذا المستوى الثالث لا يحظى بالتسليم المطلق الذي يحظى به المبدأ الأصلي، ويحظى به الفهم العام المبني على القواعد الشرعية.

والرؤية الخاصة الاجتهادية لفئة أو طائفة لا تحتمل القداسة والثبوت المطلق بل هي على أحسن الأحوال: صواب يحتمل الخطأ.

وهذا التفريق ضروري لمعالجة الإشكالات التي تثور اليوم في كثير من مجالات العمل والعلم والدعوة في الواقع الإسلامي، حيث يعزى معظمها إلى فرض اجتهاد خاص، لأنه مبني عندهم على مبدأ عام مسلَّم به، وهنا يقع الخطأ في عدم التفريق بين المدلول القواعدي الكلي، وبين المدلول الاجتهادي الخاص.

وربما يكون ذلك صياغة جديدة معاصرة لأنماط التقليد والتعصب بين أهل الإسلام، وإضفاء صبغة رسمية على أسماء

ذات قيمة مطلقة شرعية، أو بأسماء مصادمة للتقليد في أصلها.

إن تأكيد رسم المشكلة، وتحديد موضع الداء ضروري؛ لأن عدم فهم صورة الإشكال وموضعه يترتب عليه عدم فهم إمكانية التصحيح وطريقه.

وإذا أخذنا الحديث النبوي المتقدِّم - يمكن بصورة تقعيدية - أن يقال:

الدين يسر، واليسر هو الوسط، فالدين وسط، والأمة وسط، كما نطق التنزيل.

وهنا نرى النبي ﷺ قد رسم قواعد الوسطية على التحقيق:

١ - السداد في قوله: «فسدِّدوا». فإن السداد هو إصابة عين الشيء، من قولهم: تسدد السهم، إذا أصاب غرضه.

وهذا يعني أن الوسطية والتيسير لا تجاوز القصد الشرعي والتحقيق لأحكام الشريعة على وفق الدليل من الكتاب والسنة، وأن الوسطية والتيسير لا تعني التهوين من شأن حدود الشريعة وعصمتها، والاتباع لما تهوى الأنفس في منهج الدعوة والقضاء والإفتاء والتعليم، بل والتعامل مطلقًا.

إنّ مَن يفتقد الاتصال الجاد القاصد إلى أحكام الشريعة وأدلتها فهو يفتقد أحد قواعد الوسطية النبوية.

٢ - لما كان وضع القاعدة الأولى «السداد» قد يوحي أو يولِّد عند بعض مَن لا يتمتع بسعة في الفقه والمعرفة بحكمة الشريعة ومقاصدها قدرًا من الإلحاح في المطالبة بتطبيق الرؤية الواحدة الاجتهادية، واستتمام تطبيق الأحكام الشرعية في الذات

والغير، جاء قوله: «**وقاربوا**» ليرسم قاعدة مكملة للقاعدة الأولى.

إن «السداد» لا يكون ذا إمكانية في التحصيل والتطبيق إذا لم يصاحبه إيمان بقصور النفس والعقل عن رتبة الطلب العليا مهما كان وضوح الشريعة فيها، فقد خلقَ اللهُ آدمَ خلقًا لا يتمالك[1].

وهنا يعلم أن النفس الآدمية ليست نفسًا كمالية مطّردة السموّ إلا بنوع من العصمة والاصطفاء الإلهي، ولهذا جاء قوله: «**وقاربوا**» والمقاربة ليست هي «الكمال».

بل يتحصل: أن فرض قاعدة «التمام» في المفهوم الشرعي للوسطية يعد من أخص المناقضات لهذا المفهوم الشرعي، هذا في التمام الذي هو شرعي ثبوتي، فكيف التمام في ما هو محصل اجتهادي؟

إذا تَـمَّ شـيءٌ بـدا نـقْـصُـهُ   تـرقَّـبْ زوالًا إذا قيـل: تَـمْ[2]

إنَّ الوسطية تعني ـ لزومًا ـ الاعتراف والإيمان بعدم لزوم التمامية والكمال، بل عدم إمكانية ذلك.

٣ ـ ولما كان اعتبار الوسطية بهذين الأصلين «السداد»، و«المقاربة»، قارنهما قاعدة «البشارة».

---

(١) كما في «صحيح مسلم» (٢٦١١) من حديث أنس ﷺ.

(٢) ينظر: «اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/٥٤٧)، و«نفح الطيب» (٢/٣٥٩).

إن الأصلين، الأول والثاني: «السداد»، و«المقاربة» هما البناء العلمي لهذا المفهوم الثبوتي «الوسطية». ثم هذه القاعدة «البشارة» هي البناء المحصل لتجاوز الأزمة الذاتية الشخصية الولائية.

إن الدين والعمل له لا يجوز أن يتحول إلى مجالات ولائية خاصة، ومن الغلط أن يكون العمل الإسلامي استجابة ولائية ساذجة لحزب أو جماعة أو دائرة أو غير ذلك.

وبقدر ما نؤمن بعمل إخواننا في الدوائر والجماعات القائمة على اتباع الكتاب والسنة والدعوة إلى دين الله، نؤكد رفع مقام دين الله عن الأثرة الولائية.

فالعمل للدين هو استجابة لله ورسوله، وهنا ترى أهمية قوله: «وأبشروا».

إن كثيرًا من أشكال الخلاف والإقصاء هو نتيجة لموقف ولائي، لا يمثل عند التحقيق لزومًا شرعيًّا.

ومن هنا صار من قواعد الوسطية ربط العمل لدين الله بمقصد وجه الله سبحانه وحده.

لا يصح المطالبة بقطع الصلات الولائية، فهذا ليس من العقل، ولا من الشرع، لكن لا يجوز أن تتحول التجمعات الإسلامية الكثيرة اليوم إلى مقاصد ولائية تصاغ المفاهيم الشرعية تحت تأثيرها.

إنَّ المفهوم الشرعي لأيِّ قضية يفترض أن يكون متعاليًا على المقدرات الولائية الخاصة بقدر الإمكان.

٤ ـ «واستعينوا بالغَدْوة والرَّوْحة وشيءٍ من الدُّلْجة»: فمن قواعد الوسطية اعتبار القدْر الممكن من العمل في ذات الشخص، وفي محيطه الدَّعوي، والتزام هذا القدْر، وأن يعمل كلٌّ لما خُلق له، وأن يتحقَّق الترفع عن مقام التعاند على الأشكال الممكنة.

ومن هنا كانت المحافظة على قدْر من العمل المؤسّس شرعًا تستدعي لزوم الاعتراف بضرورة العمل مع إدراك محدودية الإمكان.

وهذا يحصّل فرصة جيدة للإيمان بتعددية العمل الإسلامي في شتى أشكاله، ويجب ألَّا يتناول الإقصاء إلا من خرج عن أصول الشرع الثابتة المتحققة باعتبارٍ عِلمي لازم، وليس بمأخذ اجتهادي خاص.

وربما كان من المشكل أن كثيرين لا يحصلون مفهوم الوسطية إلا بتجاوز إحدى هذه القواعد النبوية الأربع.

فقد ترى مَن يتجاوز القصد لمقام الشريعة على التحقيق والعناية لدعوى وسطية يراها، فيسبح في مفهومات غامضةٍ لا حدود لها.

وفي مقابل ذلك ترى مَن يبالغ في المطالبة بالتمام، مع أن الشارع قصد تحقيق المقاربة في ما هو شرعي، فكيف باجتهاد خاص يصر عليه كثيرون من أهل الإسلام، ويبنون عليه إقصاء مَن لم يحقق توافقًا مع اجتهادهم، فضلًا عمن يخالفهم!

ومما يؤسِف أن الإقصاء يكون باسم أحد الثوابت المبدئية،

كالخروج عن الوسطية، أو اتباع الكتاب والسنة، أو اتباع السلف، وأمثال ذلك.

ولا يحصل هنا تفريق بين لزوم المبدأ، وعدم لزوم الفهم الخاص فيه، ويقع التنازع بين الأطراف بدعوى تحقيق المبدأ، مع الغفلة عن أن المخالفة لم تقع بسبب المبدأ، وإنما وقعت بسبب اجتهاد خاص.

لعل افتقاد بعض أصحاب العمل الإسلامي للفهم الشرعي الصحيح للوسطية، جعل كثيرًا من صور العمل الإسلامي تتجه إلى الرؤى المتقابلة، فصار قانون التضاد يمثّل واقعًا في الأعمال الإسلامية، مع أنه بحمد الله لا زال في أهل الإسلام ودعاته خير كثير واعتدال محمود.

لقد كان من المفيد ألَّا نشعر بأن حل مشكلة عدم تحقيق الوسطية تكون بإلغاء التعددية القائمة في العمل الإسلامي اليوم.

هذا ليس ضروريًا في ما أرى، فضلًا عن كونه ليس ذا إمكانية تطبيقية، بل من المناسب محاولة جعل هذه التعددية قوة تكاملية لاستيعاب سائر الفروضات.

إن الوسطية لا تعني إلغاء التعددية، بل تعني تقريرها وترشيدها، وربما كان هذا مفهومًا صعبًا عند كثيرين، لكنك إذا حققتَ من أصول الشريعة وقواعدها وجدته واضحًا في هدي الرسول ﷺ وفي هدي خلفائه.

فليست الوسطية خطًّا دقيقًا يمثله شخص أو مدرسة محدودة، بل هو تيار واسع عريض يلتزم بعموم الضوابط

الشرعية، وليس للتيار ذاته عصمة ولا قداسة، وإنما العصمة للمنهج والشريعة.

ومن هنا اختلفت اجتهادات الصحابة ﷺ، واعتنى العلماء بحفظ أقوالهم في مسائل الخلاف، كما اعتنوا بحفظ إجماعهم في مسائل الإجماع، فما أجمعوا عليه قطعًا فإجماعهم حجة، وما اختلفوا فيه فاختلافهم رحمة وسعة.

وهذا باب واسع لا يستوعب الأمة سواه، وقد مدح الله تعالى مَن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، والأحسن يختلف من حال إلى حال، ومن زمان أو مكان إلى آخر، ومن شخص إلى آخر.

وقد جعل الله للأمة مندوحة في دائرة الاختيار، ومع التسليم بترجيح أن الحق واحد في مواطن النزاع، كما اختاره جمهور الأصوليين، إلا أن القول بكونه في هذا الفريق أو ذاك، يظل محل اجتهاد، والعبرة بحجة الشرع وقواعده ومعاقده، وليست بتوفر القناعة الذاتية لدى هذا أو ذاك.



لعنة الدنيا!

تزخر أدبياتنا وأمثالنا وأحاديثنا بذم الحياة وتحقيرها والدعوة إلى مجافاتها، فهل هذا نظر شرعي مؤيَّد بالكتاب والسنة، أم هو موروث ملتبس يجب فحصه وفرزه؟

الذي أجده في التنزيل أنها: ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ [الحديد: ٢٠]، و﴿مَتَاعٌ﴾ [غافر: ٣٩].

وهذه الألفاظ تتسق عندما تفهم أنها في مقابل نعيم الآخرة، ولا يعكِّر عليها ما أمر الله به من اجتناب الهوى والتزام الشريعة.

وهذه الأوصاف تقرأ إيجابيًّا، فليس كل لعب أو لهو مذمومًا، بل منه ما هو مذموم، ومنه ما يكون انسجامًا وتنشيطًا للنفس؛ لتتهيَّأ لخير أو حق، ومن اللهو المحمود ملاعبة الزوجين أحدهما الآخر، ومشامة الولد، وسياسة الفَرس..

ومن هنا ذهبتُ إلى تضعيف حديث: «**الدنيا ملعونةٌ، ملعونٌ ما فيها، إلا ذكرَ الله وما والاهُ..**».

والحديث رواه الترمذي، وابن ماجه، وغيرهما من حديث

أبي هريرة ﷺ[1].

وقال عنه الترمذي: «حسن غريب». و«الغريب» عنده من أقسام الضعيف، و«الحسن»، أي في مأخذه أو معناه.

ورُوي من حديث ابن مسعود ﷺ[2]، وحكم عليه الدارقطني بقلب إسناده، وأن الصواب حديث أبي هريرة ﷺ[3].

وهو من رواية عبد الرحمن بن ثابت بن ثَوْبان، والظاهر أن في حفظه ضعفًا، وحديثه محتمل[4].

ورُوي عن أبي هريرة ﷺ من طريق آخر، وفيه كذَّاب[5].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (١٢٦)، والعقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٣٢٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٥٨٠)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٣٥).

(٢) أخرجه البزار (١٧٣٦)، والطبراني في «الأوسط» (٤٠٧٢)، وفي «مسند الشاميين» (١٦٣).

(٣) وقال الدارقطني أيضًا: «لا يصح». ينظر: «علل الدارقطني» (٥/ ٨٩)، (١١/ ٤٥).

وصحَّحه السيوطي، وقال المناوي في «فيض القدير» (٣/ ٥٥٠): «وليس كما زعم». وقال الذهبي في «المقتنى» (٥٨١٣) عن راويه: المغيرة بن مطرِّف الواسطي: «واهٍ».

(٤) وقال المناوي في «فيض القدير» (٢/ ٣٢٧): «سنده جيد». وقد ذكر العقيلي، والذهبي في «الميزان» (٢/ ٥٥٢) هذا الحديث من منكرات ابن ثوبان، وقال العقيلي: «لا يتابعه إلا مَن هو دونه أو مثله». وقال ابن القطان في «بيان الوهم والإيهام» (٣/ ٦٠٥)، (٥/ ٨٢٥): «لا يصح».

(٥) أخرجه الثعلبي في «الكشف والبيان» (٧/ ٢٨٣)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢/ ٣١١ ـ ٣١٢).

وقد تفرد به خالد بن يزيد العدوي، وهو: العمري: كذَّبه أبو حاتم وابن معين، وقال ابن حبان: «يروي الموضوعات عن الاثبات». ينظر: «علل الدارقطني» (١١/ ٤٤)، و«ميزان الاعتدال» (١/ ٦٤٦).

بل ورد هذا الأثر موقوفًا على كعب الأحبار[1]، وكعب كان من أهل الكتاب ويأخذ عنهم.

وورد أيضًا من كلام أبي الدرداء ﷺ[2].

ورُوي مرفوعًا من طرق أخرى لا تخلو من مقال.

ومثل هذا الحديث تترَّست خلفه ثقافة تسللت إلى تراثنا الإسلامي؛ فقعدت بعقولنا وهمتنا، وأحاطتنا بكهنوت جعل الرقي والتطلع إلى الغد، واستشراف المستقبل عملًا ضد الآخرة والزهد والإخلاص والعمل لله..

وهو أيضًا ينتظم معاني منكرة يتوجب علينا مطاردة مفاهيمها السلبية عن الحياة..

الدنيا نفسها معنى محايد، فهي مزرعة للآخرة، ودار إعمار وبناء: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

كما أنها للشر والفساد والفتنة إذا أراد الإنسان ذلك.

وتحتمل أن تكون لغير هذا وذاك عند فئام كثيرة من الناس،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٥٣٣٢)، والدارمي (٣٣١).

وقال الدارقطني في «العلل» (١١/ ٤٥): «هو وهم». وينظر: «ميزان الاعتدال» (٤/ ٤١٦).

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٥٤٣)، وابن أبي شيبة (٣٤٥٩٢)، وأبو داود في «الزهد» (٢١٣)، وابن أبي الدنيا في «الزهد» (٢٤٣، ٣٣٤)، وفي «ذم الدنيا» (١٨٥، ٣٥٥)، وعبد الله بن أحمد في زوائد «الزهد» (٧٣٦)، وابن الأعرابي في «الزهد وصفة الزاهدين» (٦٨)، والآجري في «أخلاق العلماء» (ص٤٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٠٣٣، ١٠١٧٨)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٣٤).

إذ هي قد خلقها الله وسخّرها لعباده وسلطهم عليها، وجعلهم خلفاء فيها، فأين يتأتى اللعن في هذا المقام!!

والدنيا فيها قسم عظيم يندرج تحت الإباحة الأصلية، لا محرمًا ولا مكروهًا، كالبيع والشراء الذي هو في أصله مباح، ولو تركه الناس لتعطلت مصالح الدين فضلًا عن الدنيا.

ثم إن النبي ﷺ لم يكن سبَّابًا، ولا فحَّاشًا، ولا لعَّانًا[١].

وحتى لما قيل له: يا رسولَ الله، ادع على المشركين قال: «**إني لم أُبعث لعَّانًا، وإنما بُعثت رحمة**»[٢].

وجاء في أحاديث صحاح النهي عن لعن شيء من الدنيا، كحديث: عمران بن حُصين رضي الله عنهما قال: بينما رسولُ الله ﷺ في بعض أسفاره، وامرأةٌ من الأنصار على ناقة، فضَجِرَتْ، فلعنتها، فسمعَ ذلك رسولُ الله ﷺ، فقال: «**خُذوا ما عليها ودعوها؛ فإنها ملعونةٌ**».

قال عمرانُ: فكأني أراها الآن تمشي في الناس، ما يَعْرِضُ لها أحدٌ[٣].

فكيف يصدق أن يلعن رسولُ الله الدنيا كلها، إلا ما استثني، وفيها كثير من الطيب المباح، أو المستحب، أو ما هو ذريعة لواجب أو مستحب..

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (٦٠٣١، ٦٠٤٦)، و«صحيح مسلم» (٢٠١٢) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٩٥).

وهذا الحديث بمفرده لا يقوى على الاستقلال بهذا المعنى الخطير الذي يجنح بالدنيا كلها إلى غير ما خُلقت له؛ من مجافاتها والخوف منها، وكأنه أثر من آثار الرهبانية عند الأمم السابقة: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

فهذا مما يؤكِّد نكارة هذا الحديث، وبعده عن الهدي النبوي.

والذم الوارد في الكتاب والسنة للدنيا ليس راجعًا إلى زمانها الذي هو الليل والنهار المتعاقبان إلى يوم القيامة؛ فإن الله تعالى جعلهما خِلْفة لمَن أراد أن يذكَّر أو أراد شكورًا.

وليس الذم راجعًا إلى مكان الدنيا الذي هو الأرض، التي جعلها الله لبني آدم مهادًا ومسكنًا، ولا إلى ما أودع الله فيها من الجبال والبحار والأنهار والمعادن، ولا إلى ما أنبته فيها من الزرع والشجر، ولا إلى ما بث فيها من الحيوانات وغير ذلك، فإن ذلك كله من نعمة الله على عباده بما لهم فيه من المنافع، ولهم به من الاعتبار، والاستدلال على وحدانية صانعه وقدرته وعظمته؛ وإنما الذم راجع إلى ما يستحق الذم من أفعال بني آدم الواقعة في الدنيا؛ لأنه واقع على غير الوجه الذي تُحمد عاقبته، بل يقع على ما تضر عاقبته أو لا تنفع..

إن نقد هذه المرويات متنًا وسندًا وفق القواعد العلمية المرعية، جدير بأن يعزِّز النظرة التفاؤلية الإيجابية لدينا، ويقصي النظرة السلبية المتشائمة، المتحججة على فشلها وإخفاقها بتدجين أو رفض ما يحلو لها من الآثار..





الحياة في سبيل الله

لا يستغرب أحدٌ أن يسمع كلمة: «**الموت في سبيل الله**»، أن يموت المجاهد صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر، وهي الشهادة التي لا تحدث إلا باصطفاء من الله لعباده: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ولكن لا يسمع الناسُ كلمة: «**الحياة في سبيل الله**» بالقدر نفسه الذي يسمعون به: «**الموت في سبيل الله**».

إن صناعة الحياة معنى رائع عظيم، وهو الأصل، وصناعة الموت حينما تكون ذودًا عن الحق والإيمان والأوطان، فهي تضحية تفخر بها الشعوب كلها، وتقدِّس فاعليها الذين تجرَّدوا من الأنانية، وتفانوا في مصلحة أمتهم أو وطنهم.

الحديث عن الموت سيطر على ثقافتنا وقصائدنا ومحفوظاتنا وأدبياتنا، أيُّنا لا يحفظ قصيدة النابغة الجعدي:

يا بنتَ عمي كتابُ اللّه أخرجني   كرهًا وهل أمنعنَّ اللّهَ ما فعلا؟

فإن رجعتُ فربُّ الكون يرجعني   وإن لحقت بربي فابتغي بدلا

ما كنتُ أعرجَ أو أعمى فيعذرني   أو ضارعًا من ضنى لم يستطع حولا![1]

على أنني أجد في الأبيات معنى جميلًا حين يصرِّح بأن خروجه ﴿كُرْهٌ﴾، وهكذا هو في القرآن: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

إذًا هو أمرٌ يلجأ إليه مضطر، حفاظًا على الذمم والأعراض، وعلى الحياة ذاتها، وعلى المشروع العظيم..

الشهادة ليست مقصودة لذاتها، بل هي لحفظ الحياة وإحيائها، تمامًا كما قال سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، ورُبَّ موت فرد كان سببًا في هبة الحياة لأمة من الناس.

- الأصل في معركة الحياة أنها للبناء والإصلاح والتشييد والصبر والمصابرة.

حين تجد شاعرًا فلسطينيًّا، مثل: عبد الرحمن بارود، أو هارون هاشم رشيد، أو محمود درويش، أو سميح القاسم... إلخ، أو تجد شاعرًا عربيًّا يتغنَّى ببطولة الفدائي، كما تغنَّى شعراء مصر، من أمثال: علي محمود طه، وإبراهيم ناجي، أو شاعرًا خليجيًا، كما في قصائد غازي القصيبي، أو عبد الرحمن العشماوي.. فلن تتلقى هذا البوح الرائع إلا بالإعجاب، لأنه يقدِّس الحق، ويتغنَّى بالمضحِّين في سبيله.

ولكن لن يكون معنى هذا أن مشاريع الإسلام انتهت وتوقفت عند هذا الحد، ولا أن التغنِّي بمجد شهيد، يعني

(١) ينظر: «الشعر والشعراء» (١/ ٢٨٣ - ٢٨٤).

تجاهل تضحية العالم والمبدع والمجاهد في ميدان الحياة والإصلاح والنهضة والمعرفة والدعوة إلى الإيمان والحق والصبر.

ـ الحياة غالية عزيزة، وقد مات رسولُ الله ﷺ على فراشه، بعدما عاش حياته كلها في سبيل الله، وكذا أبو بكر رضي الله عنه.

الاستقالة من وظيفة العيش على ظهر هذا الكوكب ممنوعة، وهي هزيمة لا يقبلها الله ولذا حرَّم الجنة على مَن مات منتحرًا، يبادر ربه بنفسه(١)، بسبب ضيق العيش أو مرارة الألم..

في وصيته ﷺ للمجاهدين وقادة الجيش كان يقول لهم: **«لأن يهدي اللهُ بك رجلًا واحدًا، خيرٌ لك من حُمْر النَّعَم»**(٢).

ويقول: **«لا تتمنَّوا لقاءَ العدوِّ، واسألوا اللهَ العافيةَ، فإذا لقيتموهم فاصبروا»**(٣).

الموت نهاية لا بد منها، وقد قال يوسف عليه السلام في آخر مشواره: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١]. لكن بعدما عَمَرَ الحياة، وضحَّى، وصبر، وصنع، وصار على خزائن الأرض، وحفظ، وعلَّم، وكان ذا نفس طويل في البناء والتأثير والقيادة السياسية والاجتماعية، وإدارة الأزمات بجدارة واقتدار،

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (١٣٦٤، ٣٤٦٣)، و«صحيح مسلم» (١١٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٠٩)، ومسلم (٢٤٠٦) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٦٥، ٢٩٦٦، ٧٢٣٧)، ومسلم (١٧٤٢)، من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

وبعدما أشاع قيم العدل والإنصاف والسلام، وإيصال البر والمعروف لأفراد شعبه ولغيرهم، وفعل ذلك كله بروح إيمانية عالية.

فالموت إذًا ليس نقيضًا للحياة، بل هو امتداد لها، ومَن عاش في سبيل الله، جديرًا أن يكون موته في سبيل الله أيضًا، وإن مات على فراشه، كما حدث لخالد بن الوليد ﷺ.

- الموت ليس عملية خلاص سريع من تكاليف الحياة وتبعاتها، والجهاد الكبير هو في ميدان الحياة بالدعوة والصبر وطول النفس ومقاساة الشدائد، حتى في داخل النفس، وتلقِّي التهم، ومواصلة الطريق إلى الله، مستهديًا بدعائه: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

حين يخاف الشاب من الإغراءات، أو يخشى من معاودة حياة الدَّعة والخمول واللذة والإثم، فإنه يريد أن يختصر الطريق على نفسه، ولكن قد يغفل عن أنَّ هذا ربما يطيل الطريق على أمته!

- إن العالم الإسلامي يتعرض لهيمنة الأقوياء واستحواذهم، وعزة المسلم وأنفته لا تسمح له بأن يغضي على القذى، وفي الوقت ذاته فقدرات الشاب الذهنية والعقلية والتربوية لا تمكِّنه من مضارعة هؤلاء في شؤون الحياة ومنافستهم في الحياة كلها، وحين لا يجد البيئة الحاضنة التي تمنحه الفرص المتنوعة، يتوجَّه إلى خيار واحد، حيث يجد القوة والاستعداد في المقاومة.

ومع أننا لسنا في مقام منافسة ولا مقاربة مع كثير من

شعوب العالم، إلا أننا في مقام التضحية نَبُزُّ هؤلاء جميعًا، وهذا جانب من جواب القوة والعظمة في الأمة، لكن ينبغي أن نضبط هذا الجانب بحيث لا يتحول إلى مسلك من العدمية، والبحث عن الموت بذاته، وأن ندرك أن التضحية وحدها لا تصنع مشروعًا، ولا تُقيم بناءً، ولا تبني حضارةً.

- مؤلم أن يكون عطاء المسلم في مجال البناء والتقنية والاقتصاد والإعلام والسياسة والأسرة ضعيفًا، ومن ثَمَّ يجد نفسه في جانب التضحية والموت أكثر مما يجدها في جانب الحياة..

إن التضحية إنما هي من أجل البناء، فإذا غلب جانب التضحية على جانب البناء، فقد تفوَّق الفرع على الأصل، والسبب على النتيجة!

- التفكير العسكري يسيطر حتى حينما نتحدث عن الصناعة والإعداد، فلا يذهب الذهن إلا إلى القوة العسكرية فحسب، وكأن الحياة كلها معركة، لا يهدأ أوارُها!

وننسى قوة المعرفة التي هي أساس التفوق، وقوة الاقتصاد، وقوة الإعلام المؤثِّر في عقول الأجيال، وقوة التربية والتعليم، وقوة الوحدة والتنسيق بين المكونات المختلفة!

- لدينا مشاريع فدائية عديدة، لكن كم لدينا من مشروع اقتصادي، أو تقني، أو إعلامي، أو دعوي، أو اجتماعي؟

وفي كل نموذج من هذه الأمثلة نجد عشرات القصص للأنبياء والصحابة والأئمة عبر التاريخ مما تزدحم به كتب السير..

- الموت حافز على الفعل والمبادرة وملء الحياة بالعمل والإنجاز والبصمة المؤثِّرة، وكما قيل:

وكن رجلًا إن أتوا بعده يقولون: مرَّ وهذا الأثر!

أما الحديث عن الموت، كما يفعل بعض الوعاظ الذين يطيلون في وصف الفناء، وماذا يفعل الدود في الجسد، وكيف تبلى الرِّمم، فهو مما يصنع الكآبة، ولا يساعد على طاعة، ولا عبادة، ولا عمل، وليس هو من هدي الأنبياء، ولا من عمل الصالحين، ولا طريقة السلف الأولين.

إن الحياة تكليف وتشريف وتكريم لآدم، ولمَن بعده من الذرية.

- وإذا كان الجهاد أحد شرائع الإسلام العظيمة، فهو معنى واسع، وليس بابًا واحدًا.

والمجاهد المقاتل قد يرجع بالأجر والمغنم..

وقد رأى الصحابة ﷺ رجلًا شديدًا يمشي، فقالوا: يا رسولَ الله، لو كان هذا في سبيلِ الله! فقال رسولُ الله ﷺ: **«إن كان خرجَ يَسْعَى على وَلَدِهِ صِغَارًا، فهو في سبيلِ الله، وإن كان خرجَ يَسْعَى على أبوَيْن شيخينِ كبِيرينِ، فهو في سبيلِ الله، وإن كان يسعَى على نفسه يُعِفُّهَا، فهو في سبيل الله، وإن كان خرجَ رِيَاءً وَمُفَاخَرَةً، فهو في سبيل الشيطانِ»**[1].

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٩/١٢٩) (٢٨٢) من حديث كعبِ بن عُجْرَة رضي الله عنه. =

وسأله رجلٌ: يا رسولَ الله، أيُّ الناس خيرٌ؟ فقال: **«مَن طالَ عمره، وحسُنَ عمله»**[1].

وعن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: **«إن المؤمنَ لا يزيدُه طولُ العمر إلا خيرًا»**[2].

وعن طلحة بن عُبيد الله رضي الله عنه، أن رجلين قدما على رسول الله ﷺ، فأسلما معًا، وكان أحدهما أشد اجتهادًا، فغزا فاستشهد، ثم توفي الآخر بعده بسنة، قال طلحةُ: فرأيتُ في المنام بينا أنا عند باب الجنة، فخرج خارج فأذن للآخر، ثم خرج فأذن للشهيد، ثم قال لي: ارجع، فإنه لم يأنِ لك. فتعجبنا وسألنا رسولَ الله، فقال: **«من أي ذلك تعجبون؟ أليس مكث بعده سنة؟ وأدرك رمضانَ، وصلَّى كذا؟ فما بينهما أبعد مما بين السماء والأرض!»**[3].

فما بالك لو عاش بعده عشر سنين، أو عشرين سنة؟

في الجانب التعبدي المحض جانب القرب الذي هو علاقة العبد بربه من المحافظة على الصلوات والأذكار والسجود، يقول النبي ﷺ: **«إذا قرأ ابنُ آدمَ السجدةَ، فسجدَ، اعتزلَ الشيطانُ**

= وأخرجه البيهقي (٧/ ٤٧٩)، وفي «شعب الإيمان» (٧٨٥٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٩٧٠، ٢٣٩٧٣)، وهو حديث حسن.

(٣) أخرجه أحمد (١٣٨٩، ١٤٠٣)، وابن ماجه (٣٩٢٥)، وأبو يعلى (٦٤٨)، وابن حبان (٢٩٨٢)، والبيهقي (٣/ ٥٢٠)، والضياء (٣/ ٢٧ ـ ٢٨) (٨٢٧)، وهو حديث صحيح.

يبكي، يقولُ: يا وَيْلَه ـ وفي رواية: يا وَيْلي ـ أُمرَ ابنُ آدمَ بالسجود فسجدَ، فله الجنةُ، وأمرتُ بالسجود فأبيتُ، فلي النارُ»[1].

احسب كم سجد أخوه المتأخّر في اليوم من مرة؟

كم سجد في الأسبوع، في الشهر، في السنة، في عشر سنوات؟

هذا كله فات على الذي رحل عن الحياة.

الكلمة التي لو وُضعت في كِفَّة، والسماوات والأرض في كِفَّة، لرجحت بهن: «لا إله إلا الله»، كم يستطيع الإنسان أن يقولها في اللحظة الواحدة والدقيقة الواحدة؟ فضلًا عن اليوم؟ وهو مضطر إلى أن يقولها في الصلاة، وفي مناسبات كثيرة.

الصلاة على النبي ﷺ، التسبيح، التحميد، الاستغفار، التهليل، الشكر، حتى الكلمات التي يقولها أحدُنا بعفوية، أن يقابل أخاه ويسلِّم عليه، فهذا فيه ثلاثون حسنة، و«السلام اسمٌ من أسماء الله تعالى»، ودعاء لأخيك المسلم، فإذا قال: ورحمة الله وبركاته، يكون ذكر الله ست مرات بهذا الكلام العفوي.

ـ الذي يحدث في حياتنا وسلوكنا من الخطأ والتصحيح والذنب والتوبة جزء من الحكمة والرحمة، والله قد يخلي بينك وبين الذنب لحكمة..

---

(١) أخرجه مسلم (٨١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

والموت انقطاع: «فإذا مات ابنُ آدمَ انقطع عمله»، وفات عليه أوان التوبة، فالله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر.

- حب الحياة فطرة، والمؤمن يكره الموت غالبًا، وفي الحديث القدسي: «..المؤمنُ يكرهُ الموتَ، وأنا أكرهُ مَساءَتَه»[1].

وقالت عائشة رضي الله عنها: «كلنا نكره الموت»[2].

ولكن يجب أن يكون حب الله ورسوله أقوى وأشد..

- إن من حب الحياة الإحسان إلى الأبناء.

وكما قيل:

لقد زاد الحياةَ إليَّ حُبًّا بناتي إنَّهنَّ من الضِّعافِ
مخافةَ أن يذقن الفقرَ بعدي وأن يشربنَ رَنْقًا غير صافِ

الإحسان إلى الوالدين، وهما أوسط أبواب الجنة.

الإحسان إلى الزوجة، وبناء الأسرة الصالحة.

الإحسان إلى الضعفاء والمساكين والمرضى والغرباء والمعوزين.. وما أكثرهم في العالم الإسلامي.

- إن الزواج استجابة لغريزة فطرية، ولكنك ترضي ربك فيها، وتقتدي برسولك ﷺ، وتنفع مسلمة، وتفيد صاحب البيت الذي تستأجره، وصاحب البقالة التي إلى جوارك، وتعزِّز

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٤).

العائلة التي صاهرتها، وتتيح عملًا لسائق أو خادمة في أحيان كثيرة، وتنفع صاحب السيارة، وتتدرَّب على تحمل المسؤوليات، وقد تنجب ذرية، تكون ذِكرًا لك في الأرض، ورفعة لك في السماء.

- إن الرفض المطلق للحياة ومشاريعها لا يصنع شيئًا، والمشاركة هي الأفضل والأبقى والأتقى.

والله تعالى جعل الليل والنهار خلفة لمَن أراد أن يذكَّر أو أراد شكورًا.

فكم في الحياة من فرص التعبد والاقتراب من الله، ومناجاته، وإشباع العقل والقلب والروح بذكره، وتسبيحه، وتلاوة كتابه، والتدرُّب على القيام، والصلاة، والاستحضار والخشوع، وهذه مقامات جليلة، يرفع الله بها عباده المصطَفين الأخيار، ولذا أحبوا الحياة من أجل صف الأقدام بين يدي الملك العلَّام في جنح الظلام، ومن أجل ظمأ الهواجر في اليوم الصائف، بعيد ما بين الطرفين، ومن أجل بذل المعروف والنَّدى، وكف الأذى، وتدارك النفس من آفاتها وعيوبها الباطنة قبل الظاهرة.

- طول الحياة يسمح لك بتجديد النية، وتصحيح المقصد، وقد يغلب على الشاب حب الظهور، أو الاستعجال، أو الإعجاب بالنفس، أو ما سوى ذلك من الشهوات الخفية، وكم من قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته، وإنما الأعمالُ بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى.

وكان بعض السلف يقول: «طلبنا العلم لغير الله، فأبَى إلا أن يكون لله».

من فضل الله عليك أن يمهلك الله حتى تسدِّد، وتقارب، وتحاول، وتتسع تجربتك، وتعطي الأشياء مقدارها، من دون غلو أو إجحاف، وتصحِّح نواياك ومقاصدك التي يراها الله ولا يراها الناس.

ـ على أن جهاد الإحسان إلى الناس لا يفتقر إلى نية، كما ذكر أهل العلم، أن تغيث ذا الحاجة الملهوف، أو تعين صانعًا، أو تصنع لأخرقَ، أو تسقي أخاك من مائك، أو تميط شوكًا عن طريق الناس.. فذلك كله من الخير الممدوح عند الله، حتى لو لم تحضرك فيه نية، وما ذلك إلا تسهيلًا لفعله، وتحفيزًا عليه من دون تردد.

ـ التوازن إذًا بين صناعة الموت في ميدانها وبشرطها ونيتها، وهي الاستثناء الذي لا بد منه لحفظ الأمة وديانتها وحياتها، وبين صناعة الحياة التي هي المشروع الأصل الذي نضحِّي من أجله ونحميه، فتلك قضية تربوية وأخلاقية، يجب أن يقف عندها الشاب المخلص لنفسه ولأمته طويلًا، قبل أن يتخذ قرار وجهته!

ـ الأب الحاني، والصديق الوفي، والأستاذ المشفق، والخطيب الموفَّق، كلهم عون على بناء الحياة، وتجنب المغامرات غير المحسوبة، التي قد يندفع إليها شاب لم تكتمل خبرته، ولم تنضج تجربته، وما زال في مدارج الحياة الأولى، وربما سبقت إليه فكرة، فتشبَّع بها، ولم ير غيرها، حتى لم يعد

في عقله وقلبه متسع إلا لمشروعه الوحيد، الذي يظنه قضاءًا على كل المشكلات، وحلًّا لكل المعضلات.

ولو أنه أقبل على برامج الحياة الإيجابية، وتلمَّس مقعده منها؛ لوجد من وراء ذلك خيرًا كثيرًا، والموفَّق مَن وفَّقه الله، والله يحول بين المرء وقلبه، وإليه المصير.



الزّهدُ الإيجابيّ

كان مالك بن دينار يقول: «ليس الناسك ناسك الصومعة، بل هو ناسك المدينة».

الزهد.. حقيقةٌ قلبيةٌ قبل أن يكون حقيقةً واقعيةً، وهو أداءٌ روحيٌّ وامتثالٌ قبل أن يكون سلوكًا محدَّد المعالم..

بهذا تشهد مقاصد الشرع، وهو ما تنطبق عليه النصوص وكلام السلف والأئمة، يقول النبيُّ ﷺ: **«ليس الغِنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغِنى غِنى النفس»**[(١)].

ويقول أبو مسلم الخَوْلاني: «ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، إنما الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يدي الله أوثقَ مما في يدك»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (٩٦).

وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (١٠٧)، وابن الأعرابي في «الزهد وصفة الزاهدين» (٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٥٩٧، ١٠٢٨٩) من قول يونس بن ميسرة بن حَلْبَس.

ورُوي مرفوعًا ولا يصح. ينظر: «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٨٥٧ ـ ٨٥٨).

وسفيان الثوري لما سُئل عن الزهد قال: «ليس الزهد في الدنيا بلبس الخَشِن، ولا أكل الجَشِب، إنما الزهد في الدنيا: قصرُ الأمل»(١).

فالزهد هو معنًى روحيٌّ يفيض في القلب فيغذِّي الجوارح بإيجابية وعمل وجهد، لا بكسل وخمول وتماوت؛ فالخمود والكسل الزهدي أشكال انتقدها بصراحة وجرأة أئمة السلف والخلف والتصوف المعتدل، مثل: ابن الجوزي وابن تيمية وغيرهما.

وأما التخلِّي عن المال والدنيا، فليس معنًى محمودًا بإطلاق، فقد تُرى عند بعض الذين ابتُلوا بكثرة الأموال أمراضًا في نفوسهم وشخصياتهم وطبائعهم، كالكِبر، والطُّغيان، واحتقار الآخرين، والادِّعاء والأثرة، كما قال جل وعلا: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ - ٧].

كما أن بعض الذين يتركون الدنيا، ويزهدون فيها، لا يزالون عُرضة لعيوب أخرى، كالإعجاب بالنفس، واعتقاد كمالها، وسوء الظن بالناس واحتقارهم.

والمدار في كل هذا وذاك على القلب والإرادة والقصد، فالذي يسعى إلى المال لنفع الناس وفتح مشاريع الخير فهو مأجور، فليس كلُّ مَن سعى للمال مذمومًا.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/٣٨٦)، وفي «أخبار أصبهان» (٢/١٠٦)، والبيهقي في «الزهد الكبير» (١٦٠).

والزهد في المعنى الإسلامي ليس أداةً لتثبيط العزائم والتواكل، أو نقيضًا للاستمتاع الحلال، أو معارضًا للذوق أو لعمارة الأرض، بل إن المعاني السلبية لكل هذا هي إرثٌ منحرف، لا يمتُّ للدين الإسلامي بصلة، فالزهد الإسلامي معنًى يهذِّب الشعور والوجدان، ويدفع للعمل في سبيله، والزهد عمل إيجابي رشيد.

إن حبَّ المال وحبَّ الحياة فطرة: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]، ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، فالإنسان بفطرته يحب الحياة، ويكره الموت، وكان أنبياء الله عليهم السلام قدوةً في ذلك؛ يستمتعون بالخير والمال، بل إن سليمان عليه السلام طلب مُلْكًا لم يُؤْته أحد من بعده، قال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص: ٣٥]، فكان عندهم مال يقيمون به حق الله، وما أوجب الله عليهم به.

فالمال في الدنيا ليس رجسًا ولا نجسًا، وليس مطلوبًا من المسلم أن ينأى عنه، أو يستوحش منه بذاته.

إن قيم الدين مرتبطة بالعمل والإيجابية والحياة والإنتاج، والأجر مرتبط بالفعل والعطاء وخدمة الآخرين.

والنصوص في هذا لا تُحصى، وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: «إني لأكره أن أرَى الرجلَ فارغًا، لا في عمل الدنيا، ولا في عمل الآخرة»[1].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٥٦٢)، وأحمد في «الزهد» (٧٨٩)، وهنَّاد في «الزهد» (٢/ ٣٥٧)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ١٣٠).

إذًا: فللّه تعالى عبادة على خلقة، كلٌّ بحسبه:

فالغَني عبادته بماله.

والقوي عبادته ببدنه.

والحاكم عبادته بسيادته.

والإداري بقراره.

والمفكِّر بعقله.

والمثقَّف برأيه.

والفقير بتعفُّفه وصبره.

وكل واحد له نوع من العبادة مرتبط بطبيعة الحياة التي يعيشها.

فالزهد إذًا لا يُحمل على السلبية تجاه الحياة والناس، ولكن يربي على الاعتدال في تناول متع الحياة الدنيا، من دون إفراط ومبالغة، ودون أن يزجّ بنفسه في كل الشهوات من غير مراقبة أو حس روحيٍّ عالٍ؛ فقد يفضي ذلك إلى الحرام.

أما التمتع بالحلال باعتدال فالله يقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

ويمكن القول إن الزهد حالة خاصة لمعالجة بعض الاندفاع الشهواني تجاه الدنيا، والغرق فيها إلى الأذقان لنيل نصيب الاعتدال فيها، ومراعاة حق الله فيها، وحق الناس وتذكر الفقراء والمرضى والجوعى.

والزهد قد يصلح لأحد فيصلحه، وقد يفسد مَن لا يفيده؛

فهو مرتبط بنفسية الإنسان، وطريقة تعامله مع الحياة.

الزهد بالمعنى الإيجابي مفهوم ربانيّ لا رهبانيّ، يدعو إلى العمل لا إلى الكسل، يهذِّب النفوس، ويجلو عنها أوضار الرياء والعجب والدنس، ويصفيها.

وقد ربح مَن طهَّرها من ذلك كله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّنهَا﴾ [الشمس: ٩]، وهو يمنع الدنيا من أن تستولي على القلب، فتحرمه النظر الطبيعي إلى الكون والحياة على أنهما مسخّران لله، فهو كفاح وجهاد من أجل بقاء الخير، وإرادة الله والإخلاص، لا من أجل الفناء.

فيا أهل الإيمان والدعوة والإصلاح: ﴿كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].





كُنْ جميلًا

هل حب الجمال والحياة مشكلة ينبغي أن تُحل، أم أنها فطرة إلهية ينبغي أن تُطوَّر وتُستغل، وتُرعى حقَّ رعايتها؟

إن من أرسخ الفطر في تركيب الإنسان السوي وحسِّه، حبه للجمال في الصور والأشكال والأزياء والمناظر الطبيعية، وتذوّقه لتفاصيل ذلك في شؤون حياته..

هكذا خلقه الله الذي قال عنه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]. ولحكمةٍ بالغة جبل الله الإنسان على هذا المعنى.

ولذلك يأتي في الشريعة ما يوافق هذه الجِبِلَّة، ويستجيب لها، وفي الوقت نفسه ما ينظمها ويهذبها؛ فالإسلام جاء ليطوِّر حبَّ الجمال ويرشده، لا ليقضي عليه، أو يقلِّل منه أو من قيمته.

وفي «صحيح مسلم» يقول النبيُ ﷺ: **«إنّ الله جميلٌ يحبُّ الجمالَ»**[1].

---

(١) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

فهذا الإحساس الجمالي صفة إنسانية وهبها الله لكل البشر.

ثم هو ثانيًا: معنى جاء الإسلام بالاعتراف به، وتذوقه، وتربية النفوس عليه.

وهو ثالثًا: حاجة أساسية للناس جميعًا في كل مكان وزمان، وبالخصوص في هذا العصر الذي أصبح فيه هذا المعنى هدفًا مقصودًا للحياة المعاصرة ولشؤونها المختلفة ومستجداتها.

وفلسفة الجمال هي جزء رئيس من الإنسان الذي يقول عنه العلماء بأن إنسانيّته مؤسسة على ثلاثة أشياء:

الأولى: معرفة؛ يقول تعالى: ﴿ٱقْرَأْ...﴾ [العلق: ١].

والثانية: أخلاق؛ يقول تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

والثالثة: جمال؛ كما في الحديث السابق: «**إن الله جميلٌ يحبُّ الجمالَ**».

فهذه الأشياء الثلاثة عليها مدار الحكم بإنسانية الإنسان، وإذا اجتمعت فهي علامة الكمال الإنساني.

الجمال.. هو ذلك الإحساس الطبيعي والتذوّق للجوانب الفنية والإيجابية والمبهجة في الحياة والأشياء والأحياء، وفهْمه بهذا الإطار هو أجدى من الخوض الفلسفي في تجريده وتعريفه، والقرآن الكريم يرعى أدقّ الحواس ليقيم في النفس الإنسانية عنصر الجمال؛ فهو يأمر بالنظر إلى الأرض كيف سُويّت، وإلى السماء كيف رُفِعت، وإلى النجوم والقمر، والصبح إذا تنفّس، والليل إذا عَسْعَس، والخيل والأنعام، وفي

الآفاق، بل وفي الأنفس: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

يا الله..! كل هذا ليجعل هذا الجمال دليلًا عظيمًا على جمال هذا الخالق، وعلى وحدانيّته، ويأمر بالسير في الأرض، ويلفت النظر إلى الطير الصافّات، والجياد الصافنات، والعاديات والسابحات، والشجر والماء والخضرة؛ ليعرف الإنسان هذا الوجود، ويستمع إليه بهذا الجمال الناعم الذي يسبح الله: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

فسبحان الله عدد خلقه، ورضى نفسه، وزِنة عرشه، ومِداد كلماته.

والجمال ليس منظرًا بديعًا فحسب، بل هو جمال الصورة والظاهر، وجمال الباطن والقلب، وجمال الفعل والعمل.

أما المعنى الذي تفهمه بعض الوسائل الإعلامية والإعلانية للجمال على أنه الجمال العاري المبتذل في استخدام الجسد للإغواء والإغراء، فهو تعبير مرذول عن الجمال، يجب ألَّا يؤثر في أصل الصورة الربانية الجميلة لمفهوم «الجمال» الذي يشمل حتى جمال التهذيب والخلق في ضبط النفس عن سبل التفسخ العاري، والجمال ـ أيضًا ـ جمال الحديث (اللغة) في اختيار أحسن الألفاظ والكلمات:

تقولُ: هذا مُجاجُ النحلِ تمدَحُه ... وإن تشأْ قلتَ: ذا قيءُ الزَّنابيرِ
مدحًا وذمًّا وما جاوزتَ وصفَهما ... والحقُّ قد يعتريه سوءُ تعبيرِ[1]

---

(١) ينظر: «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/٢٣٣) منسوبًا إلى أبي بكر بن شافع. وينظر: «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» (٢/٩٩)، و«حياة الحيوان» (٢/١٣).

إن علينا أن نشجّع (الجمال) بهذا المفهوم الإيجابي، وأن نجعله طابعًا لحياتنا ومعاملاتنا وفهمنا للحياة والناس في المركب والمسكن والعمل..

ونحن نجد في الشريعة الحديث عن اللباس والجمال، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، فسمّاه: ﴿زِينَةً﴾، وقال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، بل قال: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨]. ليشير إلى جمال المركوب، وفي الآية الأخرى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦].

فالجمال مطلب للإنسان عمومًا، وللمرأة خصوصًا، ولهذا يقول الله ﷻ: ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨].

وبعض الرجال ينظرون إلى المرأة، وينتقدونها في تجمّلها وزينتها وانتقائها الدقيق لما تشتريه، غير مدركين لخاصية المرأة في ذلك على الرجل الذي قد لا يتذوق هذا التزين بالمستوى نفس الذي تدركه المرأة.

والجمال اهتمام وحبّ وتذوّق وإحساس وعمل وإدراك.

ومن المهم أن نتعلم الجمال ونتذوّق معناه بصيغته الظاهرة في حدود ما أحلّ الله ﷻ ونستمتع به، وفي صورته الباطنة أيضًا.

ونتذوّق الجمال في أفعالنا، وفي قراءة الآخرين وأفعالهم، وأن نحارب كل صيغ الجمال الموبوءة؛ كي لا تؤثر في تصوّرنا

الصادق للجمال في إطاره الشرعي، وكي لا نشوّه هذا الجمال الجميل.

فالجمال هو الوجه الإيجابي للأشياء، وحبّ الناس ورحمتهم، وحبّ العطاء والبذل لهم، والبحث في كل شيء عن سبيل الجمال فيه، والنظر إلى جمال الناس وجمال قدراتهم، وجمال الظروف التي تهيّئ كل عمل جميل، وفهم جمال الحياة؛ لأن الذي خلقها أحسن كل شيء خلقه، وبثّ فيها آيات الجمال والجلال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]؛ ولأجل أن تنظر إلى كل هذا الجمال كن أنت نفسك طيبًا جميلًا.

كما قال إيليا أبو ماضي: «...كُنْ جميلًا، ترَ الوجودَ جميلًا».





ثانيًا:
في فقه التكفير والتبديع

الإيمان والكفر

الأصل في المسلم بقاؤه على دينه ما دام يعتقده، ولا يخرج منه لشبهة أو تأويل؛ لقوله ﷺ: **«أيما رجلٍ قال لأخيه: يا كافر. فقد باء بها أحدُهما»**[1].

وفي الحديث الآخر: **«ومَن دعا رجلًا بالكفر، أو قال: عدو الله. وليس كذلك، إلا حَارَ عليه»**[2].

وحار عليه، أي: رجع عليه.

فإخراج المسلم عن هذا الأصل وهو الإسلام، والحكم بالتكفير هوَّة سحيقة سقط فيها بعض المتسرِّعين الذين لا يحتاطون لدينهم، وإلا فإنه من سوء اختيار المرء لنفسه أن يقع في الكبر الذي حذَّر منه النبي ﷺ حين قال: **«لا يدخلُ الجنةَ**

(١) أخرجه البخاري (٦١٠٤)، ومسلم (٦٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
وأخرجه البخاري (٦١٠٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٦١) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

مَن كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كِبْرٍ». قال رجلٌ: إن الرجلَ يحبُّ أن يكون ثوبُه حسنًا ونعلُه حسنةً؟ قال: «**إن اللهَ جميلٌ، يحبُّ الجمالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ الناسِ**»[1].

فكثيرون لا ينظرون إلى الأمور والمسائل نظرة موضوعية معتدلة متعقِّلة، ولا يخافون الله في إخوانهم، فيغمطونهم حقوقهم.

والخوارج كفَّروا أصحاب محمد ﷺ بالشبهات الباطلة والتأويلات الفاسدة.

ولا نجد أي نص يحث على التكفير، أو يدعو إليه، أو يعتبر الإنسان مسؤولًا عن الحكم على الآخرين، وكلٌّ طالب لنجاة نفسه عليه أن يكفَّ عن الكلام في الناس، وأن ينشغل بأمر نفسه، طلبًا للعلم، أو عبادة لله، أو إصلاحًا لأمر الناس أو دينهم أو دنياهم، وأن يحفظ لسانه عن الكلام في العلماء وطلبة العلم والدعاة، والبحث عن عثراتهم وتتبع زلَّاتهم، فإن هذا من مساوئ الأخلاق، ولا يشتغل به إلا مَن سفه نفسه.

وما لي وللناس؟ أتكلم في هذا، وأقول في ذاك، وأهجم على زيد، وأطعن في عبيد، وأكفِّر، وأفسِّق، وأبدِّع، وأشهِّر، وكأني خلقت لهذا؟

أكان هذا صنيع الأنبياء عليهم السلام، أم صنيع الصحابة رضي الله عنهم، أم صنيع العلماء؟!

---

(١) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

إن المرء لو محض وقته للكلام في الكفار الأصليين، وجعله هجِّيراه وديدنه، حتى أشغله عمَّا هو مثله أو خير منه، لكان ملومًا مذمومًا مضيِّعًا لوقته.. فكيف إذا اشتغل بالمسلمين؟

ألم يقل النبيُّ ﷺ: «**استقيموا ولن تُحْصُوا، واعلموا أن خيرَ أعمالِكم الصلاةُ، ولا يحافظُ على الوضوءِ إلا مؤمنٌ**»؟[1].

وذكر الذهبي في «السير» أن أبا الحسن الأشعري لما قرُب حضورُ أجله قال لمَن عنده: «اشهدْ عليَّ أني لا أُكفِّر أحدًا من أهل القبلة؛ لأن الكلَّ يشيرونَ إلى معبود واحد، وإنما هذا كله اختلاف العبارات».

قال الذهبي: «وبنحو هذا أدين، وكذا كان شيخُنا ابن تيميَّة في أواخر أيامه يقولُ: أنا لا أُكفِّر أحدًا من الأمة.

ويقولُ: قال النبيُّ ﷺ: «**لا يحافظُ على الوُضوء إلَّا مؤمنٌ**». فمَن لازم الصلوات بوُضوء فهو مسلم»[2].

وليس من شروط المسلم أن يكون كاملًا ولا معصومًا، بل قد يخطئ عن غير عمد، وقد يخطئ عمدًا، ولكن هذا الخطأ لا يخرجه من دينه.

والأصل إحسان الظنِّ بالمسلم، وإذا فُتِح باب التكفير

---

(١) أخرجه الطيالسي (١٠٨٩)، وأحمد (٢٢٣٧٨)، والدارمي (٦٨١)، وابن ماجه (٢٧٧)، وابن حبان (١٠٣٧)، والحاكم (١/ ١٣٠)، وقال العقيلي في «الضعفاء» (٤/ ١٦٨): «يُروى بإسناد ثابت عن ثوبان». ينظر: «إرواء الغليل» (٤١٢).

(٢) ينظر: «سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٨٨).

وتجرَّأ عليه العوام والجهال وأصحاب القلوب المريضة تبعه باب استحلال دمائهم وأموالهم، ثم انشغل المسلمون بعضهم ببعض، وكُفي أعداؤهم، والله المستعان، فمتى نفيق من هذا السبات العميق؟!

يا ليتنا بدلًا من الجدل المحتدم حول دقائق بعض المسائل نجتهد في دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، وتشجيعهم على اكتشاف الحق الذي جاء به، ورفْع الشبهات والأباطيل التي ألصقها به الشانئون المغرضون، والجهالات التي ألحقها به الضالون والمبتدعون، حتى يُجلَّى لهم دين الله تعالى واضحًا كالشمس ليس دونها سحاب، إذًا لانجفلوا إليه[1] مسرعين، وأقبلوا نحوه مهطعين، وتشرَّبوا هدايته تشرُّب الظمآن للماء البارد..

فكم من أسير رمته الحياة	رأى أنها قيدُه فانتحرْ
يريد السعادةَ في موته	ولم يدرِ ماذا وراء القَدَرْ؟
علينا إذن إخوتي ذنبُهم	سنُسأل عنهم.. فهل نعتذرْ؟!

إن الإسلام اليوم محجوب بمساوئ أهله، وشعوبه صارت أمثولة يتسلَّى بها الإعلام في كل مكان، فإن أرادوا التمثيل على قلة الاهتمام أو التبذير، أو الدموية أو الشهوانية، أو التخلف، فأقرب وسيلة إلى ذلك السحنة العربية الإسلامية، واللباس العربي، واللسان العربي.

والمخالفة التي يقع فيها عموم المسلمين نوعان:

الأول: مخالفة لما ليس كفرًا في الشريعة، بل معصية أو فسق.

(١) أي: لأسرعوا إليه.

فهذا لا يكفَّر فاعله، سواء كان من العامة أو غيرها، بل مَن فعل كبيرة صار فاسقًا مع إيمانه الناقص، فهو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، وتكفير هذا من مقالات الخوارج المخالفة لقول جماهير المسلمين من أهل السنة وغيرهم.

بل صاحب الكبيرة مؤمن ناقص الإيمان، أو إن شئتَ فقل: مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته.

ومن أخطر المسائل الجراءة في تكفير المسلمين بذنوبهم، ولو كانت من الكبائر، ولو كانوا مجاهرين بها، ولو كانوا مصرِّين عليها، فهم على خطر عظيم، ولكنهم مسلمون تحت المشيئة، إن شاء الله غفر لهم، وإن شاء عذَّبهم بذنبهم.

ونسأل الله أن يغفر لهم، ويتجاوز عنهم، ويسامح أولئك المشغولين بتصيد ما يظنونها أخطاء الآخرين ومحاصرتهم بها، وشغل الوقت في مثل هذا، فإنه لا يفعله إلا مَن هانت عليه نفسه.

يجب أن نستفرغ وسعنا تحذيرًا من التكفير، وإنكارًا على أهله؛ لأن أول بدعة في الإسلام كانت بدعة الحرورية الذين يكفِّرون أهل الإسلام، ويستحلُّون دماءهم.

وحتى المسلم الذي يفعل ما هو كفر، فإنه لا يُحْكَم عليه بعينه بالكفر حتى تقوم عليه الحجة، ويوجد السبب، ويزول المانع، فقد يكون جاهلًا أو متأوِّلًا، أو مغلوبًا على عقله، وما دام ثمة وجه لعدم الحكم عليه بالكفر فيلزم الامتناع عن تكفيره؛ لما في التكفير من المخاطر الجسيمة باستحلال دمه وماله وعرضه، ورفْع ولايته على أولاده، وبينونة زوجته منه، ومنْع

ميراثه، وترْك الصلاة عليه ودفنه، وحرمانه من الميراث.. إلى غير ذلك من اللوازم المبنية على الحكم بتكفيره تكفيرًا عينيًّا.

لكن يقال: هذا الفعل كفر. وقد يقال: مَن فعل هذا فهو كافر، من دون أن يطبق أو يوقع في حق امرئ بعينه، إلا من قِبَلِ قضاة المسلمين، أو من قبل جهاتهم العلمية الموثوقة المعتمدة التي تواجه هذا المتهم، وتتأكد من صواب التهمة، وإصراره على ما هو عليه، وزوال الموانع التي تحول دون تكفيره.

ولا مصلحة للشباب في تعاطي مثل هذه المسائل، ولا في تربيتهم على ازدراء الناس والحطّ من أقدارهم، والجراءة على الأكابر بالثلب والعيب والشتم والسب، فإن **«لعْن المؤمنِ كقتله»** كما قال الصادق المصدوق[(١)].

وفي قتل المسلم الوعيد الشديد في «سورة النساء»: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [٩٣].

ولعلك تلحظ أن كثيرين جعلوا أنفسهم في مقام أئمة الجرح والتعديل، وصاروا يتتبعون أخطاء فلان وفلان، حتى لو سألتهم عن صواب فلان وفلان، قالوا: لا ندري. لكنهم مشغوفون بجمع خطئه، فنسأل الله للجميع الهداية.

فأي صفاء وشفافية في هذا القلب المشحون على المسلمين، المتغير بسبب ما تركّب فيه من ظن السوء، وفساد المزاج؟

(١) أخرجه البخاري (٦١٠٥، ٦٦٥٢)، ومسلم (١١٠) من حديث ثابت ابن الضحاك ﷺ.

والنوع الآخر: مَن يقع في مخالفة هي كفر في الشريعة ويخرج من الملة.

فهذا إن كان يُظْهِر الإسلام، وفَعَل ما هو من هذا فلا يُكفَّر، إلا حيث عُلم قيام الحجة عليه التي مَن خالفها كان كافرًا، فلا يكفر ابتداءً إلا إن عُلم حين الابتداء قيام الحجة عليه، كمَن سَبَّ الله ورسوله ﷺ، ولعن المصحف وأمثال ذلك، فهذا يكفر للعلم بأنه كافر زنديق، بخلاف مَن فِعْلُه يقع فيه اشتباه عند كثير من الجهال من العامة، وممن دخلت عليه الشبهة من المسلمين، فهذا لا يكفر، إلا إذا قامت الحجة عليه.

وهذا مذهب السلف المُجْمع عليه، كما حكاه ابن تيمية وغيره.

ولا بد في التكفير من توافر الشروط وتحقُّق الأهلية في الْمُعَيَّن، وزوال الموانع والعوارض؛ كالجهل وقِلَّة العقل وغيرها.

والأَوْلَى الاحتياط بحيث يحجم المرء عن الحكم على الأعيان بالكفر أو الردة أو الشرك ما دام ثمة احتمال، ولو كان يسيرًا، ولا يضرُّه ذلك.

وإنما الذي يضرُّ هو الجراءة على المسلمين بالتكفير، ولقد حذَّر الرسول ﷺ من ذلك أشد التحذير، حتى قال: «**أيُما رجلٍ قال لأخيه: يا كافرُ. فقد باء بها أحدُهما**»[1]. وقال في الحديث

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٠٤)، ومسلم (٦٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
وأخرجه البخاري (٦١٠٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الآخر: «**ومَن دعا رجلًا بالكفر، أو قال: عدو الله. وليس كذلك إلا حار عليه**»[1]. يعني: رجع عليه، وهذا وعيد شديد، وتحذير أكيد.

وإذا كان الرسول ﷺ قال: «**لعْنُ المؤمنِ كقتله**»[2]. فما بالك فيمن يكفِّره، والكفر أشد من اللعن، مع ما ورد في القرآن من وعيد القاتل.

فالحزم أن يتقي المرء تكفير الأعيان والأشخاص، ويكتفي بتقرير المسائل عامة، ولا يحكم على فلان أو فلان ما وجد سبيلًا إلى ذلك.



(١) تقدم قريبًا.

(٢) تقدم قريبًا.

المقالة وصاحبها

العلماء يفرّقون بين المقالة وصاحبها، فليس الحكم على المقالة حكمًا بالضرورة على المنسوبين إليها، ولا على المنسوبة إليهم؛ لوجوه:

الأول: أنه قد يوجد في كتب المخالفين ومصنفاتهم أقوال مهجورة، أو متناقضة، أو ضعيفة بحسب قواعدهم، ومن المعلوم في سائر المذاهب أنه يوجد في المسألة الواحدة أقوال عديدة، كما هو موجود عند الشيعة في مسألة تحريف القرآن، فعندهم قول بالتحريف في كتبهم المعتمدة، ولبعضهم في ذلك مصنَّف خاص، وهذا كفر لا خلاف فيه، وعندهم قول آخر في كتبهم المعتمدة بنفي التحريف وإبطاله، واعتقاد أن المصحف هو ما بين الدفتين، حتى إن في بعضها تكفير مَن يقول بالتحريف.

وقد يرجِّح بعضهم هذا القول أو ذاك، فالحكم على الطائفة أو الفرد المعيَّن مبني على معرفة كونهم يقولون بهذا أو لا يقولون.

الثاني: وهو تفريع عن الأول: أننا نعلم أن كثيرًا من أصحاب المذاهب ـ حقًا كانت أو باطلًا ـ يجهلون مذهبهم،

ولا يعرفون تفاصيله، ولا حتى جمله وقواعده أحيانًا، وأن كثيرًا من المنتسبين إلى المذاهب يتعصبون لها، ويدافعون عنها بالحمية والهوى من غير معرفة بخصوصية المذهب.

الثالث: أن الحكم على الشخص المعيَّن لا يكفي فيه أن يقول أو يفعل ما هو كفر، حتى تتوفر الشروط وتزول الموانع. وفي هذا يقول ابن تيمية: «التكفير له شروط وموانع، قد تنتفي في حق المعيَّن، وأن تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعين، إلا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع..».

ثم ذكر الأدلة الشرعية على هذا الأصل.. ثم قال: «.. وأما الحكم على المعيَّن بأنه كافر، أو مشهود له بالنار، فهذا يقف على الدليل المعيَّن، فإن الحكم يقف على ثبوت شروطه، وانتفاء موانعه»[1].

وحكى رَحِمَهُ اللَّهُ في بعض المواضع الإجماع على هذا الأصل.

الرابع: أن الدعوة إلى الله تعالى واجبة بقدر الاستطاعة، ودليل الوجوب، قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾ [الحج: ٦٧]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقوله: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وهذه النصوص وما في معناها تدل على وجوب دعوة

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٤٨٧ ـ ٤٩٨).

الناس كافة، عربهم وعجمهم، كبيرهم وصغيرهم، ذكرهم وأنثاهم. وتدل على وجوب دعوة غير المسلمين من كتابيين ووثنيين إلى الإسلام، كما تدل على وجوب دعوة المسلمين المنحرفين إلى جادة الصواب وطريق السنة والاستقامة، أيًّا كان لون الانحراف لديهم، عقديًّا أو سلوكيًّا، قليلًا أو كثيرًا.

فالنصارى يُدْعَون، واليهود يُدْعَون، والخوارج يُدْعَون، والرافضة يُدْعَون، وصرعى الشهوات يُدْعَون... ولا يملك أحد كائنًا مَن كان أن يستثني من هذا العموم أو يخصص فئة، أو طائفة بأنه لا توجه إليهم الدعوة.

إذا تقرر هذا، فمن المعلوم بداهة أن الدعوة لا تجتمع مع الهجر، فمَن تدعوه لا بد من أن تجالسه وتحادثه وتصبر عليه، وتعامله بالحسنى رجاء أن يفتح الله قلبه، فيكون لك في ذلك الأجر الموعود في الحديث: **«لأن يهديَ اللهُ بك رجلًا واحدًا، خيرٌ لك من حُمْرِ النَّعَمِ»**[1].

ولا يشك أحدٌ كيف كان رسولُ الله ﷺ يدعو كفار قريش، وهم مشركون وثنيون؟ ولا كيف كان ﷺ يدعو يهود المدينة؟ ولا كيف دعا المسلمون المجوس في (هجر) (وخراسان) وغيرها؟

فالدعوة تكون بالكلام الليِّن، كما قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]. وتكون بالخلق الطيِّب المحبَّب إلى النفوس، فإذا استفرغ المرء وسعه، وبذل جهده،

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٩)، ومسلم (٢٤٠٦) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

وأيس من صلاح المدعو، أو تخفيف ما هو عليه من الشر، آل الأمر إلى هجره ومباعدته؛ لعدم المصلحة في مخالطته ومحاسنته.

الخامس: وبما سبق يُعلَم أنه يمكن القول بوجود الأصناف الثلاثة في أهل البدعة (المسلمون، والمنافقون، والكفار).

فالمسلمون هم الذين يلتزمون بأصول الإسلام، ولا ينقضونها بقول ولا فعلٍ ولا اعتقاد، وإن كانت عندهم مخالفات وبدع، لكنها ليست مكفِّرة، كمَن يقول بتفضيل علي على عثمان، أو حتى على الشيخين أبي بكر وعمر ﷺ، فهذا بمجرده ليس كفرًا قطعًا.

والمنافقون هم الذين يُظهِرون الموافقة للمسلمين على ما هم عليه، ويُبطِنون الكفر، كمَن يُبطِن القول بتحريف القرآن، ويُظهِر القول بعدم ذلك، أو يبطن القول بكفر الصحابة أجمعين، ويظهر عدالتهم، أو نحو هذا، فهذا في الباطن كافر، وفي الظاهر له حكم الإسلام، كما هو الشأن في المنافقين، ومعلوم كيف كان الرسول ﷺ يتعامل معهم، فإنه كان يقبل علانيتهم، ويحقن دماءهم، ويعاملهم في الأخذ والعطاء والتوريث وغيره كمعاملة المسلمين، ويَكِل سرائرهم إلى الله تعالى.

تبقى الفئة الثالثة، وهم **الكفار الْمُعلِنون**، وهم الذين يجهرون بعقائد كفرية صريحة، كمَن يقول بألوهية علي ابن أبي طالب ﷺ، أو يخوِّن جبريل عليه السلام، أو يقول بتحريف القرآن، أو يكفِّر الصحابة، أو أكثرهم إلا نزرًا يسيرًا منهم. فهذه العقائد يخرج صاحبها من الملة، وتثبت عليه أحكام الكفر.

الولاء الإيماني، والولاء الفطري

يقول النبي ﷺ: «ما من مولود يُولد إلا على الفطرة»[1].

إن الناس كلهم يعرفون هذا القدر المشترك من العلاقات والمعاملات، ويمارسون علاقاتهم بطبيعة تامة وبعفوية فطرية، فالإسلام جاء لينظم هذه الشبكة من العلاقات الإنسانية، لا ليحرم الناس منها، أو يقطعهم عنها.

بل إن القرآن جعل من سمات الضالين أن يقطعوا الصلة، ولم يجعل أبدًا الصلة بالناس خطأ أو جرمًا، يقول جل وعلا: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٧، الرعد: ٢٥].

فحب القريب، والصديق، والزوجة، والوطن، والقبيلة، من الولاء الفطري العام، الذي لا يتناقض مع الولاء الإسلامي، والمسلمون الأوائل كانوا يتعاملون مع القضايا التعاملية بفطرية طبيعية، وبأريحية تامة، بعيدًا عن العقد التي تلبَّس بها بعض المتأخرين، فصنعت خليطًا من المفاهيم المغلوطة التي تجنح إما إلى إفراط أو تفريط.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٩)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

إن المقصود بالولاء موالاة المؤمنين بالقرب منهم، ومحبتهم، والإخاء بينهم، والنصرة لهم، والتعاطف معهم، ومن دون هذا المعنى لا يمكن أن نتصور أمة مسلمة؛ لأن وجود الأمة الإسلامية هو بوجود هذا العقد القلبي في الولاء بين أفراد هذه الأمة، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، ويقول سبحانه: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً...﴾ [المؤمنون: ٥٢]، ويقول تبارك اسمه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۞ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥ ـ ٥٦].

وانظر إلى معنى النصرة والتعاطف والولاء المعقود في قول النبي ﷺ: **«مثلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثلُ الجسد، إذا اشتكى منه عضوٌ، تَدَاعى له سائرُ الجسد بالسهر والحمَّى»**(١). وقوله ﷺ: **«المؤمنُ للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضًا»**(٢).

فهذا الولاء بين المؤمنين والبراء من أعدائهم من عناصر التوحيد؛ فالولاء معنى روحي قلبي بالحب والتعاطف والرحمة، ومعنى حياتي عملي بالمؤازرة والنصرة والمعرفة، والنصرة في الحق: الإعانة عليه، وفي الباطل: الردع عنه، ولذلك ورد في الحديث عن الظالم: **«تأخذُ فوقَ يديه»**(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨١، ٢٤٤٦)، ومسلم (٢٥٨٥) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٤٣، ٢٤٤٤، ٦٩٥٢) من حديث أنس رضي الله عنه.

فعقد الولاء عقد ديني لا عنصري، ومن سمات العقد الديني أنه يوجب ربط الولاء بالمبدأ الذي هو فوق الأشخاص، فإذا خالف الأشخاص هذا المبدأ كان أعظم الولاء في منعهم وردعهم، وليس تأييدهم على هذا الباطل أو مجاراتهم فيه.

والبراء في الإسلام هو براءة من الشرك والكفر والظلم والعدوان والبغي، والبراءة ممن يقوم عليها أو يدعو إليها: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١ ـ ٦].

إن معنى «البراءة» هو إخلاص الحب العقائدي لهذا الدين، من دون أن يشترط في ذلك خلو القلب من الحب الفطري والعلاقات الإنسانية التي يتخلَّلها حب ومودة، حتى مع الكفار؛ لأن الأصل في العلاقات مع غير المحاربين: حسن التعامل وتبادل السلم، هذا من محكمات ما نص الله عليه، يقول الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، فذكر البر، وهو الإحسان والعطاء، وذكر الإقساط، وهو العدل؛ ليجمع المسلم بين المعاملة بالعدل، وليخبر بأن اختلاف العقائد لا يبيح الظلم، وبين الإحسان، وهو الفضل والعطاء والزيادة.

والأمم المختلفة ليست على فئة واحدة تجاه المسلمين، وليست سواء من حيث القرب والبعد من هذا الدين أو من أهله، أو من حيث التطرف والاعتدال، أو من حيث الظلم

والعدل، أو غيره، وحتى في العقائد يقول الله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

إن المهم في قضية «البراءة» أن لا تحب غير المسلمين لعقيدتهم أو دينهم، فتلك هي الباقرة التي تقوم على ركن البراءة بالنقض، فمعنى ذلك تقديم غير دين الإسلام عليه، وذلك لا يحصل من مسلم رضي بهذا الدين، واعتنقه، وأحبه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

القضية في هذه الآية لهؤلاء المحاربين الذين يحادون الله ورسوله، ويحاربون أولياءه، وهذا ما صرَّح به الطبري، وابن عطية، وغيرهم[(١)].

إن «الكره» إذًا هو كره الكافر وعقيدته، وكره ظلمه وعدوانه، والبراء من قادة الحروب والدماء والعدوان على الناس والأبرياء من المسلمين، والبراء من كل ممارسة ظالمة جائرة تزيد الظالم قوة، والضعيف البريء ضعفًا، فالإسلام جاء لينصر المظلوم، ويأخذ على يد الظالم.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري»، و«المحرر الوجيز»، «سورة المجادلة»، آية (٢٢).

أما «الولاء النسبي» - إن صحت العبارة - كحب كافر لشخصه أو قرابته أو حسن معاملته أو صداقته، فذلك نوع من الولاء الفطري الذي أباحه الإسلام، ولم يقف ضده أو يحرِّمه؛ فالإسلام أمر بصحبة الأبوين المشركين بالمعروف، وأباح الزواج من الكتابيات، مع أن الله قال عن العلاقة الزوجية: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، والمودة هي الحب، وسيتبادل الزوجان معاني الحب والرحمة، بل قال الله عن نبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] يعني: أبا طالب[١]، فالنبي ﷺ يحب أبا طالب، ولم يكن هذا الحب محرَّمًا، أو ناقضًا لمعنى الولاء الإسلامي الذي جاء به الإسلام وأرساه؛ ليدل ذلك على مستوى رعاية الإسلام للمعاني النظرية عند المسلم وترسيخها.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «لو قال لي فرعونُ: باركَ اللهُ فيك. لقلتُ: وفيك»[٢]. لأن الخلق الإسلامي يحث على رد التحية بأحسن منها أو بالمثل، وجزاء الإحسان بالإحسان.

يقول الله عن المؤمنين: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٩]، فأثبت أن المؤمنين يحبونهم وعاتبهم؛ لأنهم يعطون الحب من لا يبادلهم هذا المعنى، ويتسامحون ويرحمون مَن يسومهم خطط الخسف والجور، ولم يكن الحب المتبادل مجالًا محرَّمًا في الإسلام، فالعلاقات الفطرية المبنية

---

(١) ينظر سبب النزول في موضعه من كتب التفسير.

(٢) تقدم تخريجه.

على المسالمة والمسامحة والإخاء جاء الإسلام ليرسِّخها، ويستفيد منها لبث الدعوة والقدوة، لا ليقطعها وينافر أهلها العداء.

أما قصة إبراهيم ﷺ، فيقول الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

فالآية واضحة في تبادل العداء: ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ﴾، ولم يأت إبراهيم ﷺ إلى المشركين ابتداء ليبادلهم هذا العداء، بل جاء ليدعوهم إلى الإسلام والإخلاص، ولكن لما ناصبوه العداء والبغضاء، كان واجبًا طبيعيًّا أن يبادلهم ذلك؛ حفاظًا على العقيدة التي يحملها من الانحسار والذوبان، ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]، فلم يتبرأ إبراهيم من أبيه إلا بعد أن أشهر أبوه العداوة لهذا الدين، فخالف أصل العلاقة الطبيعية بين البشر التي حث عليها الإسلام المبنية على الرحمة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

إن الأخلاق العفوية الفطرية معنى جاء الإسلام ليكمِّله، ويرسِّخه؛ ليجمع المسلم بين ولائه الطبيعي لقومه وذاته ووطنه... إلخ، وبين ولائه الأهم لعقيدته ودعوته، فكان الولاء

الأخير متمِّمًا للولاء الأول، يقول النبيُّ ﷺ: **«إنما بُعثتُ لأُتمِّمَ صالحَ الأخلاق»**. وفي رواية: **«مكارمَ الأخلاق»**(١).



(١) أخرجه أحمد (٨٩٥٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٣)، وابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (١٣)، والبزار (٨٩٤٩)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (١)، والحاكم (٢/٦١٣)، والبيهقي (١٠/١٩١ ـ ١٩٢)، وفي «شعب الإيمان» (٧٦٠٩)، وغيرهم من حديث أبي هريرة ﷺ.

وفي إسناده اختلاف أشار إليه البيهقي، وقد صحَّحه الحاكم وابن عبد البر في «التمهيد» (٢٤/٣٣٣ ـ ٣٣٤)، وفي «الاستذكار» (٨/ ٢٨٠)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٤٥).



ثالثًا:
في فقه الجهاد

أصبح «الجهاد» موضوعًا ذا صبغة عالمية في التناول والتداول، وكَثُرَ الطّرق حوله باتجاهات متناقضة متعارضة.

فثمة طرف دولي يعتبر الجهاد رديفًا للإرهاب، ثم يحاول أن ينأى بالإسلام عن هذا المعنى؛ ليفرغ الإسلام من قدرته على المقاومة والممانعة، أو يحاول أن يلصق بالإسلام تهمة الإرهاب.

إن تصوير الإسلام على أنه دين وديع، لا يملك القدرة على الدفاع، ولا يحشد أتباعه في مقارعة الباطل، ولا يملك أدوات التجييش عند الضرورة، لهو مجانبة للحق، خاصة في هذه الغابة المتشابكة من المصالح والصراعات.

كما أن وصم ـ الإسلام ـ بالعنف والدموية، والتعطش للقتل، وإشاعة الكراهية، هو ظلم وجناية، ومجافاة للموضوعية.

وثمة أطراف إسلامية تحملها الحماسة على تناول موضوع الجهاد وفق واقع محدَّد، فيتم تنزيل المفهوم الشرعي على هذا

الواقع، ويكون الانطباع بالوضع القائم أكثر من الانطباع بالرؤية الشرعية والتاريخية.

وإزاء هذا الاشتباك يكون الوصول إلى الحقيقة أمرًا صعبًا، لأن الذي يريد أن يصل إلى الحقيقة عليه أن يتجرد.

وكيف يتجرد من تحاصره وسائل الإعلام بإيحاءاتها السلبية، وتخنقه الأحداث العالمية بتعقيداتها، وأحاديثها، واستفزازها المستديم؟!

والموضوع يستوجب المصداقية والوضوح والإخلاص والتقوى.

والواجب على المسلم أن يراعي في ما يقوله رضى الله تعالى، لا رضى الناس مَن كانوا، وأن يكون محتكمه إلى النصوص الشرعية، ومعانيها الصحيحة، لا إلى المستقر في أذهان فئة من الناس، يصرون عليه، ويغضبون له، ويرددونه من دون رؤية، ولا تأمل.

ليس مطلوبًا منا ليّ أعناق النصوص؛ لاسترضاء هذا الطرف أو ذاك، ولا أن نتعسف الأمور هربًا من تهمة الإرهاب عند قوم، أو من تهمة الخضوع للضغوط الدولية عند آخرين.

وكلما استطعنا أن نتعالى عن الظرف الآني السائد، وأن نقرأ الموضوع بأصالة وهدوء كنا أقرب إلى تلمس الحقيقة.

ومن المهم التأكد من مشاعرنا القلبية، ومدى توافقها مع ما يريده الله ويحبه، ومن مفاهيمنا العقلية والمعرفية وتطبيقاتها العملية؛ لأن المرء قد يجد نفسه في طريق ما، ولا وقت لديه

للتصحيح والمراجعة، وقد قال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وفي الحديث: «لا يؤمنُ أحدُكم حتى يكونَ هواه تبعًا لما جئتُ به»[(١)].

وأهواء الناس تختلف، فمنهم من هواه في اللين والرخاوة، ومنهم من هواه في الشدة والحزم، وتحقيق كمال الإيمان أن يكون الهوى تبعًا لما جاء به النبي ﷺ.

وهذا يقتضي عزل الهوى عن التأثير ما أمكن، ومطاردة آثاره، وكثيرون يدركون أثر الهوى في أحكام الآخرين، لكنهم أقل إدراكًا لأثر الهوى في أحكام أنفسهم.



(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٥)، والحسن بن سفيان في «الأربعين» (٨)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٢٧٩)، والبيهقي في «المدخل» (٢٠٩)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٥/ ١٣٣)، والبغوي في «شرح السنة» (١٠٤)، وقِوام السنة في «الحجة في بيان المحجة» (١٠٣)، والهروي في «ذم الكلام وأهله» (٣١٣)، وابن الجوزي في «ذم الهوى» (ص١٨)، وغيرهم من حديث عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما، وبيَّن علله وضعفه ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (٣/ ١١٤٥ - ١١٤٦) (٤١).



الجهاد الكبير

يفهم كثيرون كلمة «جهاد»، على أنها رديف لكلمة «قتال»، ومن هنا أخذت رنينها الخاص، فالجهاد على هذا هو حمل السلاح في المعركة، وهو اختزال لمعنى كبير.

ومن العادة الجارية أن يطلق المعنى العام على بعض أفراده، ولكن حين يكون هذا الإطلاق سببًا في انحراف التفكير والسلوك تدعو الضرورة للنأي عن هذا الاستعمال.

جاءني مرة أحد المتحمِّسين يقول: منذ طفولتي وأنا أقول: لا حل إلا بالجهاد!

قلت له: هذا غلط نشأت عليه، وتأبى أن تعيد النظر فيه.

ولعله لأول مرة يسمع مثل هذه المجابهة، وتهيَّأ للنزال، ولكنه بُهت حينما سمعني أصحِّح له وأقول: لا حل إلا بالإسلام، والإسلام ليس هو الجهاد فحسب، بل الجهاد شعيرة من شعائره!

إن أول آية ذكر فيها الجهاد هي قوله سبحانه: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]. وهي آية

نزلت بمكة قبل الإذن بالقتال، وقد تحدثت عن الجهاد بالقرآن، ووصفت الجهاد به بأنه «جهاد كبير».

فالجهاد الكبير، أو الأكبر، هو جهاد القرآن بتلاوته، وتدبره، وفهمه، والعمل به، والدعوة إليه، والوقوف عند حدوده، والصبر على أحكامه وتحكيمه في قرارات العقول، ومشاعر النفوس، وحركات الجوارح.

والجهاد بالقرآن قد يوجَّه إلى الكافرين به، كما في الآية ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾، فيعني جهاد الحجة والبرهان والإقناع، وإعداد العدة لذلك بالعلم والبصيرة والحكمة والمجادلة بالتي هي أحسن.

وقد يكون الجهاد الكبير غير موجَّه إلى الكافرين على وجه الخصوص، فيعني الجهاد في ميادين الحياة كلها، من الإصلاح والمعروف والبر والإقساط والتقوى والتواصل، وهذه ألفاظ وردت في القرآن الكريم في مقام الحث عليها، والأمر بالتعاون فيها مع الآخرين، والتواصي بها والصبر على تبعاتها.

إن لفظ «الجهاد الكبير» لفظ قرآني راسخ متقدِّم متميِّز، فيجب إبرازه وحشد الجهود حوله بمقتضى كونه «جهاد الحياة».

وهو الموضع الوحيد الذي وُصِف فيه الجهاد بأنه كبير، وهو كبير فعلًا بعمقه وامتداده ومشقة الصبر عليه أمام طوفان المتحمسين للاندفاعات العشوائية.

وقد جاء في حديث مرفوع: «**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى**

الجهاد الأكبر». وهو حديث ضعيف[1].

ولكن تغني عنه الآية الكريمة بوضوحها، وحين سألت النساءُ رسولَ الله ﷺ عن مشاركتهن في القتال، قال: «**عليهنَّ جهادٌ لا قتالَ فيه: الحجُّ والعمرةُ**». وهو في «الصحيح» بلفظ: «**جهادُكُنَّ الحجُّ**». بل في لفظ: «**لكنَّ أفضلَ الجهاد: حجٌّ مبرورٌ**»[2].

فوصفه بالأفضلية، مع النص على أنه لا قتال فيه، فالحديث إذًا يفك الارتباط الذهني بين الجهاد والقتال بصورة لا لبس فيها.

وقد ورد في مواضع كثيرة في القرآن الكريم الأمر بالجهاد بالنفس والمال، وهذه شمولية بينة، لا تعني البذل في ميدان المعركة فحسب، بل تعني بذل النفس والنفيس في سبيل الله، في سبيل الخير وطرقه وأسبابه كلها، سواء كانت لمصالح الدين أو لمصالح الدنيا.

وفي حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا: «**جاهدوا المشركينَ بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم**»[3]. فالجهاد باللسان يكون بالدعوة والإصلاح والبيان وإقامة الحجة.

---

(١) أخرجه البيهقي في «الزهد الكبير» (٣٧٣)، والخطيب (١٣/٤٩٨)، وابن الجوزي في «ذم الهوى» (ص٣٩) من حديث جابر رضي الله عنه، وقال ابن تيمية: «لا يصح»، وقال: «لا أصل له»، وينظر: «مجموع الفتاوى» (١١/١٩٧)، و«الفروع» (٣/٣٠٣)، و«السلسلة الضعيفة» (٢٤٦٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٣٢٢)، والبخاري (١٥٢٠، ١٨٦١، ٢٧٨٤، ٢٨٧٥)، وابن ماجه (٢٩٠١)، وابن خزيمة (٣٠٧٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه أحمد (١٢٢٤٦)، والدارمي (٢٤٧)، وأبو داود (٢٥٠٤)، =

ومثله قوله ﷺ لما ذكر الأئمة المضلِّين في آخر الزمان: «فمَن جاهدهم بيده فهو مؤمنٌ، ومَن جاهدهم بلسانه فهو مؤمنٌ، ومَن جاهدهم بقلبه فهو مؤمنٌ...»[1]. فأشار إلى جهاد القلب بالصبر والإنكار ورعاية المعاني الشرعية الباطنة وتحقيقها.

وفي قوله سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [التحريم: ٩] تأكيد لهذا.

فإن من المجمع عليه أن جهاد المنافقين ليس هو قتالهم، وإنما هو أمر وراء ذلك، من المجادلة بالحجة والإقناع، أو اليقظة والتفطن والحذر، أو كشف خططهم وإحباطها.. وما شابه هذا.

إذًا، ثمة جهاد النفس والمال، وجهاد اليد واللسان، وجهاد القلب، وجهاد الدعوة، وهناك «جهاد الحياة»:

جهاد المسلمين لهم حياة   إن الحياة هي الجهاد[2]

فبناء الحياة وتنميتها، والتأسيس لنهضتها، وتحقيق مصالح الناس ورفاهيتهم، وإصلاح العقول والنفوس والأبدان، وتحسين التعليم والصحة والاقتصاد والإعلام، ورفع مستوى المعيشة، وتطوير أبحاث العلوم، وتشجيع الإبداع، وحل المشكلات القائمة.. كل ذلك هو من الجهاد، وهو من طاعة الله ورسوله.

= والنسائي (٧١٦)، وابن حبان (٤٧٠٨)، والحاكم (٢/ ٨١)، والبيهقي (٩/ ٣٥)، والضياء (٥/ ٣٦) (١٦٤٢).

(١) أخرجه مسلم (٥٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) من شعر محمد إقبال في ديوانه: «شكوى، وجواب شكوى».

وكلمة «جهاد» مأخوذة في اللغة من: الجهد، وهو بذل الوسع واستفراغ الطاقة، فكل مَن بذل وسعه، واستفرغ طاقته في أمر مصلحة عامة، أو خاصة، دينية أو دنيوية، لا إثم فيها، ولا قطيعة ولا إضرار بالآخرين، فله حظ من هذا المفهوم.

إن الاختراعات الحديثة، كالسيارة أو الهاتف أو الطائرة أو التلفاز.. قد أحدثت في حياة الناس ومجتمعاتهم وطرائق عيشهم في البناء والتواصل والفهم والبرامج المختلفة أكثر بكثير مما أحدثته بعض المعارك الكبرى في التاريخ، وأصحابها أصبحوا مشاهير، كشهرة القادة العسكريين العظام، أو أكثر.

وهذا يؤكِّد الأهمية الكبرى لتعميق هذا الفهم في نفوس الناشئة، ليدركوا أن نجاحهم في التعليم والابتكار والتفكير الجاد هو مصلحة دنيوية، وإلى ذلك فهو جهاد أخروي يرجى لهم عليه جزيل الأجر ووافر الثواب، ومَن سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر مَن عمل بها، فكم من الأجور تنالها حين تكون مخترعًا تقدِّم لملايين البشر تسهيلًا في سفرهم أو إقامتهم أو صحتهم أو علاقاتهم؟ أليس تغييب هذا المفهوم الرباني سببًا رئيسًا ومسؤولًا أوليًا عن التخلف الحضاري الذي يعيشه المسلمون؟ والذي لا يفكر كثيرون من أبنائهم بالخلاص منه إلا من خلال البندقية التي صنعها غيرهم؟!





مفهوم الجهاد

المفهوم الواسع لـ «الجهاد» يستحق المزيد من العناية لأسباب:

١ ـ أنه مفهوم مستوعب لكل أفراد الأمة بلا استثناء، وليس مقتصرًا على فئة أو شريحة وُكِّلت إليها مهمات عسكرية أو حربية، وبتفعيله يتم توجيه الأفراد لأدوارهم الحياتية الخاصة والعامة، وفق قدراتهم ولو قلَّت.

إن هذا الفهم الإيجابي يحول الناس إلى فاعلين منتجين مؤثرين، وليس إلى كسالى أو بطالين.

٢ ـ أنه مفهوم سنني صحيح، فالحياة لا يقوم بها إلا مَن حاطها من جميع جوانبها، وكذا الدين، والدين هو للحياة، وفكرة أن معركة قتالية سوف تصحح أوضاع الناس والحياة، هي فكرة ساذجة مغلوطة بيقين، فلكل شيء سبب، والنبي ﷺ الذي علَّم قادته كيف يديرون الجيوش، ووظَّف طاقات المبرزين منهم، كخالد وعلي رضي الله عنهما؛ هو الذي علَّم الناس المعدمين كيف يجمعون الحطب؛ ليكتسبوا، ويستغنوا عن السؤال[1]، وسنَّ

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (١٤٧١) من حديث الزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه، =

لأصحابه سنن البيع والشراء، والحرث والتعلم والزواج والإجارة. . .

٣ ـ أنه مفهوم يغطّي كل جوانب الحياة، فهو يشمل الفرد والأسرة والمجتمع، وفي كل الأحوال والظروف، وليس لجانب دون آخر، ولا لظرف دون ظرف، وهو بهذا مفهوم مؤثر بصورة حقيقية وبصورة دائمة، وليس في أحوال خاصة فحسب.

٤ ـ أنه برنامج قائم دائم لا يفتقر إلى شروط، فهو يعمل في حال الضعف والقوة، والكثرة والقلة، والصحة والمرض، ووجود الدولة وعدمها، ووجود المؤسسة وعدمها، بل هو يسعى لاستثمار الموجود، وتوظيفه توظيفًا حسنًا، واستكمال الناقص، وإيجاد ما تدعو الحاجة إلى إيجاده، فهو مطلب الشريعة من المكلف بقدر وسعه وطاقته، وقدرته التي هي شرط الوجوب، وهو أعلم بتقدير ذلك.

٥ ـ أنه مضمون العاقبة مأمونها، فثمرته خير محض، وهو عمل صالح، لا مخاطرة فيه ولا إشكال ولا إضرار، ولا سوء تقدير، إنه مغنم ظاهر، وغنيمة باردة.

٦ ـ أن الأمة تعاني تاريخيًّا حاجة ماسة إلى تجييش الكم الغفير من العاملين المخلصين في ميادين الحياة والتنمية والمعرفة والعمل، وكلما تقدمَ الزمن اتسعت دائرة الحاجة، وقلّ القائمون بها، وشغرت فروض الكفايات التي يتأثم الناس بالإخلال بها،

= عن النبي ﷺ: «لأنْ يأخذ أحدُكم حَبْله، فيأتي بحُزمة الحطب على ظهره، فيبيعها؛ فيَكُفَّ اللهُ بها وجهه، خيرٌ له من أن يسأل الناسَ، أعطوه أو منعوه».

سواء كانت في مجال الدعوة والبلاغ وإيصال الرسالة، أو في ميادين الحياة العلمية والصناعية والاقتصادية والإدارية وغيرها، وهذا خلل ظاهر لا مخرج منه إلا تحفيز طاقات الناس إلى الانخراط في ميادين العمل والإنتاج والإنجاز.

٧ ـ أن الجهاد بمفهومه القتالي الخاص يفتقر إلى هذا المفهوم الشامل لتحقيق أهدافه، وكم من قتال بذل فيه المسلمون الغالي والنفيس، واسترخصوا الأرواح والمهج في سبيله، وطاروا إليه سراعًا، وصبروا وصابروا، ورابطوا، وانتظروا العاقبة، فلم يحظوا بطائل يذكر.

نعم ربما أحدثوا النكاية في عدوهم، لكن حدث فيهم من الإثخان والقتل والفزع القدر الكبير، وإن كانوا يحتسبونه، لكنه مكروه، وانتهى الأمر إلى غير نتيجة ملموسة في الحياة والمجتمع، أو إلى أثر سلبي وأحدوثة مخزية محزنة لدى الغريب والبعيد، بسبب غياب الوعي الرشيد، والفهم الشامل للحياة والشريعة، وما أدَّى إليه التعصب والهوى والأنانية من الاختلاف والتطاحن والتنازع الذي هو آية الفشل، وذهاب الريح: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وكان من الخطب في ذلك غياب الكفاءات الميدانية القادرة على بناء الحياة، وقد ينجح قوم في معركة حربية، ثم يخفقون في بناء مدرسة، أو تشييد صرح، أو رصف شارع، أو تعبيد طريق، أو صناعة... إلخ، أو توفير لحظة أمن أو لقمة عيش أو خرقة كساء، فضلًا عن صناعة الحياة بمجالاتها الخصبة ببناء العقول والنفوس والأرواح.

ولذا فالأمر مفتقر غاية الافتقار إلى استنارة عاملة بصيرة تعرف معنى الحياة، وتتحمل تكاليفها، وتفقه معنى الشريعة، وتلم بمقاصدها؛ لئلا تكون أعمالنا حرثًا في بحر، أو خطًا في رمل متحرك!



القتال وميدانه

كتابة هذه الكلمات بصيغتها الأولية تمت على أرض (البوسنة والهرسك)، وفي الوقت الذي يستعيد فيه المسلمون في ذاكرتهم مجزرة (سربرنيتا) التي استشهد فيها أكثر من سبعة آلاف دُفنوا في مقابر جماعية، ولم تغنهم حماية الأمم المتحدة شيئًا، وهي التي كانت تحرمهم من السلاح الذي يدافعون به عن أنفسهم.

وتعترف الدول متأخرًا بالإهمال والتجاهل لها، والتسبب في حدوثها بعدم التدخل، وعدم رفع حظر الأسلحة عن المسلمين.

وقد كتب الراحل علي عزت رَحِمَهُ اللَّهُ في سيرته الذاتية طرفًا من المعاناة الصعبة للشعب البوسني المسلم في محاولته تكوين الدولة، والآلام التي تعرض لها، والدماء التي نزفها وسط تجاهل دولي، وعجز إسلامي، وتواطؤ إقليمي.

وكان أفضل ما يقدّم لهم المجتمع الدولي اتفاقية دايتون التي أنهت وضع الحرب، ولكنها لم تنصف المسلمين.

وليس مطلوبًا أن نضع من آلامنا (هولوكستًا) كالمحرقة النازية، ولا أن نبتز الناس بها، أو نحاكم مَن ينكرها، بل

المطلوب أن نصنع لتلك الأحداث وعيًا إنسانيًّا، كي تتحول إلى قوانين ذات فاعلية، تمنع تكرار تلك المجازر.

إن الهدوء الذي يعيشه البلد بإثنياته وأعراقه يؤكد أهمية السلام للبناء والدعوة، والحرب التي خاضها تؤكد ضرورة الحرب أحيانًا، وكان د. علي عزت ﷺ يقول: «تعلمت أن صياغة السلام تحتاج إلى الشجاعة أكثر مما تحتاج إليها الحرب»!

قال أحمد شوقي:

والشر إن تلقه بالخير ضقت به ذرعًا وإن تلقه بالشر ينحسم

وقال آخر:

والناس إن تركوا البرهان واعتسفوا فالحرب أجدى على الدنيا من السلم

«الحرب» جزء من شريعة الإسلام، والغريب أن الاستعمال القرآني قلما يستخدم كلمة «حرب» التي تدل على الفعل، وإنما يستخدم لفظ «القتال» الذي يدل على التفاعل بين طرفين، وكأن ذلك إشارة إلى أن الصراع العسكري هو نتيجة عدوان من طرف على آخر، أو نتيجة عدم الاتفاق على السلام.

وقد ذكر لفظ «القتال» في القرآن الكريم ثماني مرات، والقتال غير القتل، فهو بمعنى الصراع أو التدافع، وهو بشروطه الشرعية أحد معاني الجهاد، وقد يُستخرج من هذا أن الإسلام يتحدث عن الصراع باعتباره حقيقة واقعة، أكثر مما يتحدث عنه باعتباره مطلبًا يتوجب على المسلم التحضير له واستعجاله.

وحين قال النبيُّ ﷺ: «**رأسُ الأمر: الإسلامُ، وعمودُه: الصلاةُ، وذِروةُ سَنامه: الجهادُ في سبيل الله**»[1]. فإن الأمر يحتمل معنى الجهاد العام! ويحتمل معنى القتال، على ما ذكره أهل الفقه.

والإسلام لا يتنكَّر للواقع، ولا يتجاهل الدوافع العدوانية لدى المجموعات المختلفة، وهو في الوقت الذي يحجز المسلمين عن العدوان، فإنه يمنحهم الحق في مقاومة ذلك العدوان.

وثمة حديث في القرآن مرتبط بمرحلة تاريخية، وبوضع محدَّد، كما في «سورة التوبة»: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [١٣].

إن الحرب جزء لا يتجزأ من تاريخ البشرية، ولكل الشعوب، ولا تزال الشعوب المستضعفة والعاجزة عن الدفاع عن نفسها في العالم الإسلامي وفي غيره تعاني ويلات الحروب المفروضة عليها من قوى الطغيان والاستكبار العالمية.

والإسلام يعترف بسنة المدافعة في الحياة: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، ولكنه لا يدعو إلى استخدام العنف في التغيير والإصلاح، إلا عند تعذر الوسائل السلمية، ورجحان مصلحة القتال، كما قال

---

(١) أخرجه الطيالسي (٥٦١)، وأحمد (٢٢٠١٦)، والترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وابن حبان (٢١٤) من حديث معاذ رضي الله عنه، وينظر: «إرواء الغليل» (٤١٣)، و«السلسلة الصحيحة» (١١٢٢).

سبحانه في شأن الاختلاف بين المسلمين: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩].

وحتى مع الكفار، فالكفر ليس سببًا للقتل أو القتال، ولا موجبًا له عند الفقهاء، وفي محكم التنزيل: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾. فأمرنا بجوار المشرك ودعوته، ثم إيصاله إلى المكان الذي يأمن فيه، وعلَّل بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦]، فالمهمة الربانية إذًا هي التعليم لمَن لا يعلمون، والدعوة لهم لعلهم يهتدون، والوصف هنا بأنهم ﴿لَّا يَعْلَمُونَ﴾ عائد إلى المشركين، وقد علَّل الأمر بإجارتهم وإبلاغهم مكان أمانهم بأنهم ﴿لَّا يَعْلَمُونَ﴾، وأمر برفع الجهل عنهم بقوله: ﴿يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، فاستبقاء غير المسلم له مصالح ومقاصد، منها دعوته وهدايته، والله بعث رسله هداةً، ولم يبعثهم قساة ولا جباة.

والكافر قد يكون ذميًا أو معاهَدًا أو مستأمنًا أو غير ذلك، وهو محل للدعوة والمجادلة بالحسنى، وقد يكون جاهلًا يحتاج إلى تعليم، أو ملهوفًا يحتاج إلى غوث، و«**في كلِّ كبد رَطْبة أجرٌ**»[1]. فمسوغ القتال ليس هو الكفر، ولكنه العدوان، فإذا صدر العدوان والبغي من طائفة مؤمنة قوتلت، كما في «سورة الحجرات»، وإذا صدر العدوان من كافر قوتل، كما في آية البقرة السابقة: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

(١) كما في «صحيح البخاري» (٢٣٦٣)، و«صحيح مسلم» (٢٢٤٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

إن الإسلام ليس دينًا روحانيًا فحسب، بل هو دين جاء بالوحي وبالقوة، وقد جمع بينهما سبحانه فقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد: ٢٥]. وهذه هي الحجج والمعارف والعلوم والدعوة والمجادلة بالحسنى ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وهذا هو العدل الرباني مع البر والفاجر والمؤمن والكافر والعدو والصديق ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]. وهذه هي القوة في ردع المعتدين وحماية جناب الدين.

وما يزعمه بعض المستشرقين من أن الإسلام انتشر بالسيف، فهو ادعاء موهوم، لا تسنده حقائق التاريخ، وها هو الحكم الإسلامي قد انحسر، وظلت البلاد التي دانت له وفيةً قائمةً بدينها، على الرغم من حملات الإبادة والمسخ والتنصير، كما تشهد بذلك شبه جزيرة البلقان، وألبانيا، وجمهوريات آسيا الوسطى، وأفريقيا، وسواها.

وما يظنه بعض المسلمين من ذلك فهو خطأ، يضاهئون فيه قول المستشرقين، كما قال أحدهم:

دعا المصطفى دهرًا بمكة لم يُجَب   وقد لان منه جانبٌ وخطابُ
فلما دعا والسيفُ صَلْتٌ بكفِّه   له أسلموا واستسلموا وأنابوا

وهذا خطأ، فأصل الاستجابة كانت بمكة، والسابقون الأولون كانوا هناك، وهم أعمدة النصرة وقوام الملة ﷺ وأرضاهم.

والذين يريدون إلغاء مبدأ القتال والمقاومة في الإسلام يريدون أن تكون الأمة بلا أسوار ولا حصون ولا حماية، وهيهات ذلك.

لقد ضعف المسلمون سياسيًّا واقتصاديًّا وعسكريًّا، ولكن روح التضحية والاستشهاد ظلت حيَّة فاعلة في مواجهة كيد المعتدين من الغزاة والمحتلين والطامعين، وما عصور الاستعمار وحروب التحرير عنا ببعيدة.



مقصد الجهاد

كلنا ذلك الرجل الذي يتقطع قلبه وتنزف مشاعره أسى على إخوانه في كل مكان به جرح يدمي، أو امرأة تستنجد، أو طفل يبكي.

لكن من العدل أن يفقه الواحد منا العمل المنوط به، وماذا يجب عليه أن يفعل، وألا يترك نفسه لطوفان الحزن يغرقه، أو نار الهموم تأكله، وأن يتحول هذا الهم والحزن إلى خطوات عملية جادة لنفسك ولمن حولك.

إن مقصد الجهاد حماية المشروع الإسلامي من العدوان، وليس بالضرورة أن نعبّر بلفظ الهجوم أو الدفاع، كما اعتاده الباحثون.

إن الجهاد هو قتال مَن يقاتلون المسلمين، كما في نص قول الله ﷻ: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وختم الآية بقوله: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾. دليل على أن حكمها لا يمكن أن يُنسخ؛ لأن الله سبحانه سمى ما خالف مفهومها عدوانًا، وبيَّن أنه لا يحب مَن

فَعَلَه، فدل على أن هذا لا يمكن أن يصبح يومًا من الأيام شرعا؛ لأنه عدوان لا يحبه الله.

والعدوان لا يتحول إلى مباح، فضلًا عن أن يكون مشروعًا أو واجبًا، إلا على سبيل المقابلة، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

فقيَّده هنا بأنه موجه ضد الذين اعتدوا علينا، وسمَّاه اعتداءً من باب المقابلة.

لكن مقاتلة الأعداء لنا تكون بأحد أمرين:

١ ـ **المقاتلة الفعلية والشروع فيها**، وهذا ظاهر بأن نكون في حرب فعلية قائمة مع هذا الطرف، أو ذاك.

٢ ـ **المقاتلة بالإمكانية**: بمعنى أن يكون هؤلاء القوم محل مقاتلة، وليس بينهم وبين المسلمين أي عقد أو اتفاق أو هدنة أو تفاهم؛ يفضي إلى الاطمئنان، والمسلمون منهم على تخوّف، ولذا قال سبحانه: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

وهنا يكون المسلمون في حِلٍّ من مقاتلة هؤلاء الذين يتربصون بهم ويعدّون لهم العدة، ويجمعون على حربهم، مع الإيضاح والمعالنة والنبذ على سواء.

ثم هناك القدرة، وهي شرط مُجمع عليه في جهاد الدفع والطلب.

ولكن هل معنى القدرة: أن نكون بحجم قدرة العدو؟

هذا غير وارد إلا على سبيل القسمة النظرية، وإلا فإنه لم

يحصل على مر التاريخ الإسلامي، ولا في عهد النبوة ولا الخلفاء، ولا من بعدهم.

وهل هي الربع، أو النصف، أو أكثر، أو أقل، والله تعالى ذكر في القرآن: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوٓا أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۞ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٥ ـ ٦٦].

فالآية دلت على مقاتلة ومصابرة من يكون عشرة أضعاف عدد الجيش، ثم خفَّف الله الأمر إلى النصف، فيصبر المسلمون لمَن هم ضعف عددهم.

والراجح ـ فيما فهمته من تأمل النصوص والحوادث الجارية والماضية ـ أن القدرة يقصد بها: ما يرى أهل الشأن أنهم يستطيعون أن يحقِّقوا بهذه القوة هدفًا معينًا مؤثرًا، كطرد المحتل أو إلحاق الأذى به بصورة تعجل برحيله، أو تكفّه عن التمادي، فهذا جانب مهم ينبغي فقهه ورعايته.

وأهل الشأن فيهم أهل الخبرة العسكرية الذين يقدرون الأمور حق قدرها، ويضعون الاحتمالات الصحيحة العادلة من دون إفراط ولا تفريط.

وفيهم أهل السياسة والمعرفة والنظرة الشمولية الذين يمكنهم تحديد ما يكون نكاية بالعدو، وضررًا قويًا يحمله على تغيير خطته، أو الانسحاب من الدار، وما ليس كذلك.

وقد يوجد مَن لديه حماسة مفرطة واستماتة، فلا يبالي ولا

ينظر إلى الأمور برويّة، بل هو مندفع لا يبالي بشيء.

كما يوجد مَن هو جبان كثير التردد، موسوس لا يطمئن إلى قرار، وليس لديه أدنى قدر من تفهم المخاطرة وتقبلها.

وهؤلاء كذاك لا يصلح الاعتداد بهم، بل يعتد بالفاقهين الذين لديهم الخبرة والمعرفة والإحاطة، مع الاعتدال في مزاجهم، فلا يذهبون إلى إقدام أعمى، ولا إحجام جبان.

والذين يقدّرون هذه المسائل - أعني: مسائل الاستطاعة - هم رجال البلد الذي يتعرض للعدوان بالمقام الأول، ويمكنهم أن ينتفعوا من غيرهم بالمشورة والمباحثة.

ولا يعني هذا الحجر على أحد أن يتكلم باجتهاده في هذه المسائل، إذا كان من أهل الفقه والبصيرة والاستنباط؛ فإن هذا لا يكفي فيه مجرد العلم، بل لا بد من فقه النفس، وسعة الإدراك، وقوة الاستنباط؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

فقال: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي: من أولي الأمر، فدل على أنه ليس كل العلماء والساسة يدركون الأمر، ويعرفون أبعاده.



جهاد الطلب، وجهاد الدفاع

تزخر الدوائر العلمية بالأسئلة التي تفترض في ذهن المتلقِّي طريقين لا ثالث لهما: إما اليمين أو اليسار، أحد الاحتمالين صواب لا شكّ فيه، والآخر خطأ لا شكَّ فيه.

ولأن كثرة من الناس يميلون إلى السهولة والتبسيط؛ فإنهم يستروحون إلى هذه الافتراضات، ويتجادلون حولها، فيتم فرزهم إلى فريقين، أحدهما مع، والآخر ضدّ.

وتضيع في لُجّة هذه الخصومات معاني التمحيص والتفصيل الذي يمكن أن يرفض السؤال من أساسه، أو يقبل السؤال ويضيف إليه، أو يقبله ويفصّل في الإجابة.

منذ البدايات الأولى لطلب العلم والبحث يتلقى الدارسون سؤالًا: **هل الإنسان مُسيَّر أو مخيَّر؟**

وكأن الإجابة تنحصر في هذا أو ذاك، أما أن يكون السؤال غير علمي فهذا ما يغفل عنه كثيرون.

وأما أن يكون الجواب مفصَّلًا، بحيث يكون المرء مسيَّرًا ومخيَّرًا في الوقت ذاته، فهذا يعزب عن أذهان المجيبين أحيانًا.

ونظير هذا السؤال التقليدي عن تقديم العقل أو النقل والجدل التاريخي حوله ما بين مُقدِّم للعقل أو النقل.

في حين يمكن رفض السؤال من أساسه؛ لأن العقل والنقل ليسا نظيرين بحيث يمكن المقارنة بينهما، فالعقل آلة ووعاء، بينما النقل نص مقول.

وللعقل مداره، وللنقل مداره، ويمكن أن يكون النص إطارًا يحكم حركة العقل في الغيبيات التي لا يملك آلية الوصول إليها.

في حين لا يتصور النص والنقل إلا بوساطة العقل الذي يستقبل ويفهم ويحلّل ويقارن ويربط.

والموضوع الذي معنا يندرج تحت الإشكالية السابقة ذاتها، التي عادة ما تصاغ بسؤال: هل الجهاد هجوم أو دفاع؟ وهذا كثيرًا ما حيّر الباحثين...

والحياة ملأى بمثل هذه المغالطات الثنائية التي يقع بسببها اللبس والإيهام لدى كثيرين من العامة الذين يميلون إلى التعميم، ويكرهون التفصيل، وكذلك بعض الخاصة.

وهي تمهد لدخول غير المتخصصين في المسائل الدقيقة، وخوضهم فيها من دون إدراك لأبعادها، ومواضع الاتفاق والخلاف منها.

وربما كانت المعارك العلمية أو الإعلامية التي تستنزف جهودًا كبيرةً في التاريخ، أو الواقع نتاجًا عاديًا لمثل هذا التسطيح للقضايا الذي يفضي إلى التصنيف، واستقطاب الناس، وتحويلهم إلى فريقين متخالفين.

وقد أشار ابن تيمية إلى أن أكثر اختلاف الناس هو من هذا الباب.

وأزعم أن العراك الميداني يجني كثيرًا على المسائل الشرعية والعلمية فلا يتناولها الناس بهدوء العقل والنظر، بل يأخذونها بحرارة التعاطف والميل، أو ما يُعرف بـ(الهوى)، قال الله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣].

وأن الخلفيات المسبقة التي يحملها الناس تؤثر كثيرًا في حكمهم ونظرتهم، وتحول بينهم وبين الصدق التام والنزاهة والأمانة، من حيث يشعرون أو لا يشعرون.

ولعل من الكتّاب مَن (يتعمّد) الخلط والتلبيس؛ لأنه يدري أن في القُرّاء من لا يملك آلية الفرز والتصحيح والتدقيق، وقد يغتر بزخرف القول، وينساق وراءه من دون بصيرة، وهذا ظاهر فيمن ينطلق من أدلجة خاصة.

هذه سُنَّة الله في العباد، ولعلها لا تزداد مع الزمن إلا شيوعًا واتساعًا، خاصة وهذا الوقت فُتِح على الناس فيه باب الإعلام الذي يقحمهم في مسائل متنوعة يصعب عليهم إدراك تفصيلاتها ومعاقدها، وأصولها وفروعها، فصار من الطبيعي أن يتعاطى المجتمعون القول في قضايا سياسية، أو اجتماعية، أو اقتصادية، أو شرعية، ويعزّ على كل موجود بينهم أن يلوذ بالصمت، فليكن له موقف مع هذا القول أو ذاك، بينما محكم القرآن يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]. ويقول: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

والمقصود هو التعليق على سؤال: هل الجهاد دفع أم طلب؟ فأنا اعتبره سؤالًا مفخّخًا، لا يجب افتراضه، ولم يرد بهذه الصيغة في كتاب ولا سنة، وهو يفترض أمام المجيب طريقين لا ثالث لهما.

ونحن نجد من السابقين مَن قال: إن الجهاد هو لمدافعة العدو، أو رأى الطلب مستحبًّا، لا واجبًا، كما هو رأي سفيان الثوري، وفي «سير الشيباني»، وغيره إشارة لهذا، والمصرِّحون به قلة قليلة، منهم: عطاء، وعمرو بن دينار، وابن شُبرمة، وعبد الله بن الحسن، وسُحنون، وابن عبد البر[1].

والمدافعة محل اتفاق، فالفقهاء جميعًا، بل وغير الفقهاء، والمسلمون وغير المسلمين، وشرائع السماء ودساتير الأرض تمنح الإنسان الحق في مدافعة الباغي والمحتل، ولولا ذلك لفسدت الأرض.

ومقصد القتال في الإسلام هو حماية المشروع الإسلامي، حماية الأرض والملة والإنسان، وهذا يتضمن المدافعة قطعًا، وربما كان من المدافعة المبادأة والطلب أحيانًا.

الأمة المعتدية البادئة بالحرب تستحق الرد والمدافعة والمقاومة لئلا تلج في عدوانها. والأمة التي تتهيأ للحرب والعدوان والقتال، ولا تربطها بالمسلمين عهود أو عقود أو مواثيق أو اتفاقيات، لا ثنائية ولا دولية فليس مطلوبًا أن يترك

---

(١) ينظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٤/ ٣١١)، و«البداية» لابن رشد (١/٣٠٥)، و«القوانين الفقهية» لابن جزي (١٦٣)، و«حاشية الدسوقي» (٢/ ١٧٣).

الإسلام زمام المبادرة والمبادأة بيدها أبدًا، بل قد تفرض ضرورة الحماية مهاجمتها ابتداءً باعتبار هذا من ضرورات الدفاع.

وبهذا يتبين أن ما قاله سفيان أو غيره ليس هو من باب دفع الصائل المحض، فإنه باب آخر غير باب القتال.

وحين شرع الله القتال بيَّن أسبابه، فقال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]. فجاء الإذن هنا تعقيبًا على كونهم قوتلوا وظلموا وآن الأوان لأن ينتصفوا، وينتصروا ممن ظلمهم وقاتلهم.

ثم قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا﴾ [الحج: ٤٠]. إمعانًا في تفصيل العدوان عليهم وعلى أرضهم وديارهم وحقهم في العبادة والإيمان.

وهذا ليس استثناءً ولا حالة تاريخية بل هو شأن يتكرر، ولذا عقب تعالى بقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

وانظر كيف ذكر هنا «الصَّوامع»، وهي للنصارى، و«البِيَع»، وهي لليهود، و«الصلوات والمساجد» التي يُذكر فيها اسم الله كثيرًا.

وفي سياق آيات القتال نجد قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وهذا لا يتنافى مع مبدأ أن المقصد هو حماية الإسلام، بل

هو يعزه، فليس المقصود إكراه أحد على الإسلام ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ولكن المقصود مقاتلة الذين يقاتلوننا لدفع فتنتهم وضررهم على مجتمعات المسلمين.

إن حماية المشروع الإسلامي تعطي مساحة جيدة وواضحة لاحترام العهود والمواثيق والعقود التي أمر الله برعايتها، كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، وقال ﷻ: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١].

وتسمح بالانخراط في سِلْم عادل يحفظ للمسلمين استقلالهم وحصانتهم، وليس في خنوع واستسلام ذليل لا تقبله الفطرة، فضلًا عن الشريعة.



الفتوحات الإسلامية

مصطلح «الفتح الإسلامي» أصبح متصلًا بمبدأ القتال والتوسع في الهيمنة المادية.

بيد أننا لو رجعنا إلى اللفظ القرآني لوجدنا الفتح يعني نشر الدعوة والخير، والرسل كانوا يدعون ربهم ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

فالفتح فتح القلوب للهداية، وفتح العقول للمعرفة، وفتح المجتمعات للوعي والحوار والتغيير الإيجابي الرشيد، وهذا يمكن أن يتحقَّق بطرائق كثيرة، فالإعلام فتح، والتعليم فتح، وزوال المؤثرات السلبية فتح، والدعوة الصادقة فتح، ولكن هذا المصطلح ظل يتقلص، حتى تم قصره على بعض أفراده، وصار رديفًا للانتصار في المعركة العسكرية، واعتراه ما اعترى مفهوم الجهاد من التضييق ومفهوم الفقه ومفهوم العبادة.

وحين وعد الله رسوله أن يأتي بالفتح، أو أمر من عنده، كان الفتح مفهومًا واسعًا لانطلاقة الدعوة، وزوال معوقاتها، وحين أخبر الله تعالى بأنه جاء نصر الله والفتح كان الفتح غير

النصر، وكان من علاماته دخول الناس في دين الله أفواجًا، كما في آخر سور القرآن نزولًا.

إن غزوات الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين كانت تحت مظلة شرعية واضحة، وهنا أذكر حديث بُريدة بن الحُصيب ﷺ قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا أَمَّرَ أميرًا على جيش، أو سريَّة، أوْصاه في خاصته بتقوى الله، ومَن معه من المسلمين خيرًا... وقال في آخر الحديث: «**إذا حاصرتَ أهلَ حِصْن، فأرادوكَ أن تجعلَ لهم ذِمَّةَ الله وذِمَّةَ نبيه، فلا تجعلْ لهم ذِمَّةَ الله ولا ذِمَّةَ نبيه، ولكن اجعلْ لهم ذِمَّتَكَ وذِمَّةَ أصحابك؛ فإنكم أن تُخفِروا ذِممكم وذِمم أصحابكم أهونُ من أن تُخْفِروا ذِمَّةَ الله وذِمَّةَ رسوله، وإذا حاصرتَ أهلَ حِصْن، فأرادوكَ أن تُنْزِلَهم على حُكم الله، فلا تُنْزِلْهم على حكم الله، ولكن أَنْزِلهم على حُكمكَ؛ فإنك لا تدري أتُصيبُ حُكمَ الله فيهم أم لا**»[1].

وفي قصة خالد بن الوليد ﷺ لما تأوَّل وقتل بعض الأسرى، رفع النبيُّ ﷺ يديه إلى السماء، وقال: «**اللهمَّ إني أَبْرَأُ إليك ممَّا صنعَ خالدٌ**». مرتين[2].

فهنا لم يأخذ النبي ﷺ بيد قائد الجيش ليهمس في أذنه همسًا أن ما عملته خطأ، كلا، بل أعلنها على الملأ، وتناقلها الرواة.

لقد قاتل المسلمون قتالًا شرعيًّا أممًا وقبائل ودولًا ليس

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٣٩) من حديث ابن عمر ﷺ.

بينهم وبينها عقد ولا ميثاق، وكانت تتهيأ لقتالهم وإبادتهم، وكانوا مثالًا في الرحمة والصبر، وحقن الدماء، حتى كان عدد الذين قُتِلوا في حياة النبي ﷺ من الكفار لا يتجاوز بضع مئات، وقد قُتِل من المسلمين أكثر منهم، ولم يقتل النبي بيده أحدًا، وترك غَوْرث بن الحارث الذي اخترط سيفه وهمَّ بقتله، وترك ثُمامة بن أثال وأطلقه، وهو في حال حرب، وعفا عن أهل مكة وأطلقهم، وفك بني المصطلق[1]، وكان مثالًا عمليًا للرحمة والوفاء، وحفظ العهود.

أما الغزوات التي وقعت بعد ذلك في عهد الدولة الأموية، ثم العباسية، والمماليك والعثمانيين فلا شك أنه جاء من ورائها خير كثير في دخول كثير من الأمم والأجناس والشعوب والأعراق في الإسلام، وانتشار الحضارة الإسلامية والعدل والرحمة والحرية، ولا يمنع هذا أن يكون قد تخللها أخطاء وتجاوزات، وقد كتب الشيخ محمد رشيد رضا كلامًا علَّق فيه على هذا الموضوع، وغلَّب في هذا جانب التوسع الإمبراطوري في آخر الدولة الإسلامية على الفتح الإسلامي، ولذلك فأعمال المسلمين في التاريخ قابلة للنقد والمراجعة والرد.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ في «تفسير المنار»: «كان المشركون يبدؤون المسلمين بالقتال لأجل إرجاعهم عن دينهم، ولو لم يبدؤوا في كل واقعة لكان اعتداؤهم بإخراج الرسول من بلده وفتنة المؤمنين وإيذاؤهم ومنع الدعوة ـ كل ذلك كافيًا في اعتبارهم معتدين، فقتال النبي ﷺ كله كان مدافعة عن الحق وأهله، وحماية لدعوة

(١) تقدم تخريج هذه الأحاديث.

الحق؛ ولذلك كان تقديم الدعوة شرطًا لجواز القتال؛ وإنما تكون الدعوة بالحجة والبرهان، لا بالسيف والسنان، فإذا منعنا من الدعوة بالقوة بأن هدد الداعي أو قتل فعلينا أن نقاتل لحماية الدعاة ونشر الدعوة لا للإكراه على الدين؛ فالله تعالى يقول: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ويقول: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] وإذا لم يوجد من يمنع الدعوة، ويؤذي الدعاة أو يقتلهم، أو يهدد الأمن، ويعتدي على المؤمنين، فالله تعالى لا يفرض علينا القتال؛ لأجل سفك الدماء وإزهاق الأرواح، ولا لأجل الطمع في الكسب.

ولقد كانت حروب الصحابة في الصدر الأول لأجل حماية الدعوة، ومنع المسلمين من تغلب الظالمين لا لأجل العدوان، فالروم كانوا يعتدون على حدود البلاد العربية التي دخلت حوزة الإسلام ويؤذونهم، وأولياؤهم من العرب المتنصرة يؤذون من يظن به من المسلمين.

وكان الفرس أشد إيذاء للمؤمنين، فقد مزقوا كتاب النبي ﷺ، ورفضوا دعوته، وهددوا رسوله؛ وكذلك كانوا يفعلون، وما كان بعد ذلك من الفتوحات الإسلامية اقتضته طبيعة الملك ولم يكن كله موافقًا لأحكام الدين، فإن من طبيعة الكون أن يبسط القوي يده على جاره الضعيف، ولم تعرف أمة قوية أرحم في فتوحاتها بالضعفاء من الأمة العربية، شهد لها علماء الإفرنج بذلك.

وجملة القول في القتال أنه شرع للدفاع عن الحق وأهله، وحماية الدعوة ونشرها، فعلى من يدعي من الملوك والأمراء أنه

يحارب للدين أن يحيي الدعوة الإسلامية، ويعد لها عدتها من العلم والحجة بحسب حال العصر وعلومه، ويقرن ذلك بالاستعداد التام لحمايتها من العدوان، ومن عرف حال الدعاة إلى الدين عند الأمم الحية، وطرق الاستعداد لحمايتهم يعرف ما يجب في ذلك، وما ينبغي له في هذا العصر»[1].



(١) ينظر: «تفسير المنار» (٢/ ١٧٣ ـ ١٧٤).



العلاقة مع غير المسلمين.. سِلْم أم حرب؟

يتحدَّث بعض الناس عن العلاقة بين المسلمين وغيرهم، فيلخصونها في ثلاث أحوال:

إما دخولهم في الإسلام، وإما قبولهم لدفع الجزية، أو القتال.

وهذا من الأخطاء العلمية التي يجب تصحيحها، فهذه الخيارات هي في علاقة الجيش الإسلامي المقاتل بجيش العدو، فهي إذًا علاقة جيش بجيش في ساحة القتال، بمعنى أن من شدة الاحتياط أن الإسلام لا يأذن بالقتال حتى في حال الحرب إلا بعد الدعوة إلى الإسلام، فإذا رفضوا الدعوة عرضت عليهم الجزية مقابل حمايتهم، فإذا رفضوا قاتلناهم.

لكن علاقة المسلمين بالأمم الأخرى أوسع من هذا، فثمة علاقة دعوة، وعلاقة صلح متفق عليه عند الفقهاء، وعلاقة مهادنة، وعلاقة سكوت ومتاركة.

ولو نظرنا إلى رقعة الحياة البشرية ـ من لدن عهد النبي ﷺ إلى يومنا هذا ـ لوجدنا فيها رقعة كبيرة جدًّا هي دول وأمم مسكوت عنها، وليست داخلة في دائرة من الدوائر، ولا ثبت لها حكم من الأحكام لعدم احتكاك المسلمين بها أصلًا.

إذًا قضية التخيير بين الإسلام أو الجزية أو القتال تمثِّل علاقة الجيش بالجيش، أما علاقة الفرد بالفرد والدولة بالدولة والأمة بالأمة، فهي أوسع من ذلك، وقد تكون علاقة مصالح مشتركة، والله ﷻ يقول: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِىٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ * فِى بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [الروم: ٢ ـ ٤]. وقد فرح المسلمون بانتصار الروم على الفرس؛ لأن الروم أهل كتاب، والفرس وثنيون، وأولئك أقرب إلى المسلمين، وقصة أبي بكر مع زعماء قريش في هذا معروفة(١).

وهنا سؤال كثيرًا ما يُطرح: هل الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم القتال أم السلم؟

---

(١) كما أخرج أحمد (٢٤٩٥، ٢٧٦٩)، والبخاري في «خلق أفعال العباد» (ص٤٥)، والترمذي (٣١٩٣)، والنسائي في «الكبرى» (١١٣٢٥)، والحاكم (٢/٤١٠)، والضياء (١٠/١٤٤ ـ ١٤٦) (١٤٤، ١٤٥) من حديث ابن عباس ﵄، في قوله: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم: ١ ـ ٢]. قال: غُلِبتْ وغَلَبتْ. قال: كان المشركونَ يحبون أن تظهر فارسُ على الروم؛ لأنهم أهلُ أوثان، وكان المسلمونَ يحبون أن تظهر الرومُ على فارس؛ لأنهم أهلُ كتاب، فذكروه لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ، فقال رسولُ الله ﷺ: «أما إنهم سيَغْلبون». قال: فذكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلًا، فإن ظهرنا، كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم، كان لكم كذا وكذا. فجعل أجلًا خمس سنين، فلم يظهروا، فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ، فقال: «ألَا جعلتها إلى دون». قال: أراه قال: «العشر؟».

قال سعيدُ بن جبيرٍ: البضع: ما دون العشر ـ ثم ظهرت الروم بعد. قال: فذلك قوله: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ...﴾ إلى قوله: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ قال: يفرحون ﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ١ ـ ٥].

وله شواهد عند الترمذي (٣١٩٤)، وغيره، وينظر: «علل الدارقطني» (١/٢١٤)، و«صحيح السيرة النبوية» للألباني (ص٢٣٢ ـ ٢٣٣)، و«السلسلة الضعيفة» (٣٣٥٤).

وهذا السؤال هو الآخر ليس له أصل، ولم يرد في قرآن ولا سنة، ولا يُعرف فيه بيان لعلماء السلف.

ولا يلزم أن نضع تأصيلًا هنا، إلا أن نقول: إن الأصل في علاقة المسلم بغيره هي علاقة الدعوة التي بُعث بها الرسل والأنبياء، وأمر بها أتباعهم: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، ومن مقتضاها: البيان والبلاغ والتذكير: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۞ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١ ـ ٢٢]، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

وهي علاقة المعروف والمعرفة والتعارف: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحجرات: ١٣]، ومن التعارف التعامل بالمعاني الأخلاقية الفطرية التي جُبل عليها الناس، وهذا يفعله المسلم لذاته، ولا يمنع أن يكون سببًا وتمهيدًا لنشر الهداية والدعوة. ولذلك حتى في حال القتال هناك الدعوة قبل القتال، والقتال هو ذراع للدعوة فحسب، فلو نظرنا إلى مدينة رسول الله ﷺ، لوجدنا أنها أصبحت عاصمة الإسلام بالدعوة والإقناع لا بالقتال، إنما احتيج إلى القتال لحمايتها، بعدما أصبح أكثر أهلها مسلمين، وهنا يتعرضون لتآمر أقلية كافرة مع جهات خارجية للأذى، فيكون القتال لحمايتها وتأمينها.

إن النبي ﷺ دعا في مكة بغير قتال، ودخل المدينة بغير قتال، وفتح مكة في نهاية المرحلة النبوية بغير قتال، وسمى الله صلح الحديبية فتحًا مبينًا، مع أنه لم يكن فيه قتال، وهذا يؤكِّد أهمية الدعوة، وأن المسلمين جميعًا بحاجة إلى الدعوة.

وكثيرًا ما يطرح بعض الإخوة هذا السؤال: هل الجهاد فرض عين أم فرض كفاية؟

فكنتُ أقول لهم: دعونا الآن مؤقتًا ننظر إلى قضية الدعوة إلى الله: هل هي فرض عين أم فرض كفاية؟ من عهد النبوة، إلى عهد بني أمية، إلى عهد بني العباس، إلى اليوم، هل يقول قائل: إن كل الناس بلغتهم دعوة الله؟ هل يقول قائل: إن كل المسلمين عرفوا دينهم؟ كلا، ففي كل بلد إسلامي يوجد مناطق شاسعة تعيش ألوانًا من الجهالات، فضلًا عمن يعرفون ويخطئون.

وهل قامت الحجة على البشر جميعًا بإيصال الرسالة إليهم، أم ما زال معظم سكان الأرض يجهلون الإسلام ولم يسمعوا به، أو يعرفونه من خلال ما يقوله عنه أعداؤه وخصومه؟

إذًا الدعوة فرض عين على المسلمين؛ بسبب عدم وجود مَن يقوم بكل الدعوة.

فإذا افترضنا أن الدعوة فرض عين، والجهاد فرض عين، والطب فرض عين، والاقتصاد فرض عين.. وهكذا، فهذا يعني ازدحام فروض الأعيان على كل فرد، فلا يمكن أن يقوم بها، ولذلك يرجع الأمر إلى نوع من التخصص والانضباط.

إن الإفراط في اعتبار العلاقة مع غير المسلم علاقة حرب، يصنع توترًا في النفوس ونفرة شديدة، وانفصالًا وقطيعة لا محل معها لحديث، ولا حوار، ولا شراكة، ولا مصالح متبادلة، ولا تزاوج، ولا جوار، ولا مجادلة بحسنى، ولا بغير حسنى، حتى

أصبح البعض يوصّل لتحريم النظر إلى وجه الكافر، وكيف كان الرسل إذًا يخاطبون أقوامهم؟ ومن أين جاءت هذه الإغلاقات إلا من الجهل، وضيق النفس، وسوء فهم الشريعة.

وحتى يقوم المسلم بالدعوة، وهو يحس بأن الدعوة ليست سوى مقدمة، وأن المقصد النهائي هو المناجزة والقتل والقتال، فهو هنا لن يقوم بالدعوة والحوار حق القيام، وإنما هو الإعذار فحسب.

إن المسلم التقي يستشعر الخطر العظيم من تقحم حرمات الله بقتل من ليس أهلًا للقتل، ومن هدم بناءٍ بناه الرب بقدرته وحكمته، وكان هذا العدوان هو أول جريمة وقعت بين ابني آدم: ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ [المائدة: ٢٧]، وهي التي تخوفها الملائكة حين أخبرهم الله بخلق الإنسان: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠]. وإنما مقتضى الإيمان أن يسل السيف بأمر الشريعة، ويغمده بأمر الشريعة أيضًا، والصبر الحق هو الإقدام في موضع الإقدام، والإحجام في موضع الإحجام، كما أرشد إليه الأئمة الأعلام.

وفي حالات كثيرة يكون القتل جائزًا، ويتعمَّد النبي ﷺ الإعراض عنه، ويؤثر الصفح والعفو والتجاوز، ولم يبتزهم باشتراط أو طلب، ومن هذا قصة غَوْرث بن الحارث، وقد همَّ بقتل النبي ﷺ، وشهر السيف عليه، فحماه الله منه، وحين عرض النبيُّ ﷺ عليه الإسلام أبَى، وقال: «أعاهدك على أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك». فتركه النبي ﷺ[1].

---

(١) تقدم تخريجه.

إن قتل مثل هذا الرجل سائغ قطعًا بجميع قوانين العدل، ولكن لما تحقق المقصود الأصلي، وهو السلامة من عدوانه وقتاله للمسلمين أخلى النبي ﷺ سبيله وتركه، وهكذا من ثبت عليهم التآمر من المنافقين كعبد الله بن أبيّ، فإن النبي ﷺ لم ينف استحقاقهم للقتل من حيث الأصل، ولكنه صرفه عنهم لعارض من تحقيق مصلحة التآلف بين المسلمين وأفراد المجتمع المدني، أو دفع مفسدة الحملات الإعلامية المضادة.

إن الإسلام يكرم الحياة الإنسانية ويحترمها، حتى جاء في القرآن وصف الشهداء بقوله: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

إن الشهادة في سبيل الله وسيلة وليست غاية، أي ليست مقصودة لذاتها، وإلَّا فإن الله ﷻ يكره موت المؤمن، كما في الحديث: «**يكرهُ الموتَ، وأنا أكرهُ مَساءَتَه**»[1].

ويحب الله تعالى بقاء المؤمنين على ظهر الأرض وحياتهم وطول أعمارهم، وأن يستمتع بهم أهلوهم، وينتفعوا بهم، وأن يعبدوه سبحانه، ولا يشركوا به شيئًا، وأن يدعوا إليه على بصيرة، ولكن الشهادة ضرورة، وقد علم الله أن الحرب جزء من الحياة لا بد منه، كما ذكر الله سبحانه القصاص وهو قتل، وسماه: حياة: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

والعرب في الجاهلية كانوا يقولون: «القتل أنفى للقتل».

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

فبدأ المثل الجاهلي بقتل، وانتهى بقتل، ولكن في القرآن الكريم، ذكر الله ﷻ القصاص، وسماه: حياة، فالإسلام دين يتشوَّف إلى المحافظة على حياة الناس وتحسينها، ولهذا كانت الدعوة حياة: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

إن الظرف الزمني قد يوجد شيئًا من التوتر في نفوس الناس، فالمشكلات التي تقع في العالم الإسلامي، والعدوان الذي يجتاحه، ووسائل الإعلام والفضائيات التي تصور هذه الجرائم، والعجز الإسلامي السياسي والشعبي، وضعف الانضباط والتنظيم، وضعف التواصل والنصرة، كل ذلك أوجد مزاجًا متكدرًا حزينًا متوتِّرًا عند بعض شباب المسلمين دفعهم إلى اختيار المواجهة والعنف.

إن الإسلام ينحاز إلى الحياة، والموت في سبيل الله مطلب له ظرفه ومكانه، والحياة في سبيل الله مطلب أعظم، ومن لم يتقن فن الحياة في سبيل الله فلن يتقن فن الموت في سبيل الله.

إذًا الإسلام دين الحياة بكل ما تحمله من هنات، وبكل ما تزدان به من هبات.

يبقى أن القتال قد يُصبح فرض كفاية، وهو الأصل، وقد يُصبح فرض عين على القادرين، في حالات ذكرها الفقهاء، هي:

١ ـ إذا استنفره الإمام.

٢ ـ إذا التقى الصفان.

٣ ـ إذا دخل العدو أرض الإسلام واستباحها.

٤ ـ إذا تعيَّن في حق شخص أو جماعة،كمَن تكون وظيفتهم المقاتلة، كرجال الجيش ونحوهم.

ينبغي أن يُعلم أن تنزيل هذه الحالات على الواقع، ليس شأنًا آليًا سهلًا، بل هو أمر لا يدركه إلا الفقيه، العاقل، اللبيب، الفطن، العارف بالأحوال والمجريات العالمية والمحلية وموازين القوى، المطَّلع على المصالح والمفاسد، مع الاعتدال وسلامة الرؤية.



أسير الحرب

الأَسْر ظاهرة مرتبطة بالحياة البشرية، وبالحرب على وجه الخصوص، والأسير أخيذ الحرب، وقد تطلق على مَن يؤخذ سِلْمًا، أو مَن يُسجن أو يُؤسر.

وكان الأسير في الأمم المتوحشة مهدر الحقوق، من حقهم أن يصلبوه أو يُحرقوه أو يقتلوه أو يعذبوه بما شاؤوا دون مساءلة بل يوجد عند بعض الأمم والشعوب القديمة كالشعب الأوقيانوسي عادة أكل لحم الأسير.

ولأن الأسر جزء من الحياة البشرية كما هو الشأن في الحرب ذاتها، فإن الإسلام قد نظم شأن الأسير، وكيفية التعامل معه وفق المنهج الرباني القائم على العدل والإحسان، ومن خلال عرض سريع نتبين طريقة الإسلام في التعامل مع الأسير، وطريقة القانون الوضعي الذي جاء بعد الحرب العالمية الثانية، وبعد المشاكل الطويلة العريضة والقتلى والأسرى بمئات الآلاف، في حين النظام الإسلامي جاء ابتداءً من دون معاناة، ولا اعتبارات وقتية، ولا ضغوط خاصة.

نظام الأسرى في الإسلام:

شرع الله سبحانه الأسر كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ [محمد: ٤].

والحرب الشرعية العادلة لا بد منها لمقاومة المعتدين والظالمين، ودفع العدوان، وإزالة العقبات التي تحول بين الناس، وبين معرفة الحق واتباعه، فإن الأسر جزء من مقتضيات الحرب، ولهذا قال سبحانه: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤]، وهذا طبيعي، فلا يتوقع أحد أن يقال: إذا لقيتم الذين كفروا فانثروا الورود والرياحين في وجوههم؛ لأن المقام مقام حسم ومصارمة، يقول المتنبي

ووضعُ النَّدَى في موضع السيف بالعُلا   مُضِرٌّ كوضع السيف في موضع النَّدَى

فالحرب جزء من الحياة متى كانت حربًا عادلة لا يُقصد بها مجرد التوسع الإمبراطوري الظالم، ولا العدوان والبغي بغير حق، وكم لهذه الحروب من أثر في بناء الحضارة، وتجديد نسيجها، واستئصال آفاتها.

وفي كتاب الله تعالى آيتان عن الأسرى:

الأولى: قول الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الأنفال: ٦٧].

وهذه الآية نزلت بعد معركة بدر لما أسر المسلمون من أسروا من المشركين.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾ [محمد: ٤].

وفي كلام أهل العلم اختلاف، لكن الراجح أنه ليس بين الآيتين تعارض ولا نسخ؛ فإن المعنى واحد، فالله تعالى يقول في الآية الأولى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، فإذا أثخنوا في قتل أعدائهم حتى يكون عندهم خوف ورعب، فبعد ذلك يأتي النص الآخر الذي يأذن بالأسر بعد الإثخان: ﴿إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾، فالأسر يكون بعد الإثخان، وليس معه أو قبله، فليس ثمة نهي عن الأسر، وإنما أمر أن يكون الإثخان هو الأول، وبعده يأتي الأسر.

فالإثخان لتحطيم قوة العدو، وكسر شوكته، ثم يكون الأسر، والحكمة فيه ظاهرة؛ لأن إزالة القوة المعتدية المعادية هو الهدف الأول من القتال، ولهذا يقول الشيخ رشيد رضا في «تفسير المنار»: «جملة القول في تفسير الآيات أنه ليس من سنة الأنبياء، ولا مما ينبغي لأحد منهم أن يكون له أسرى يفاديهم، أو يَمُنَّ عليهم إلا بعد أن يكون له الغلبُ والسلطان على أعدائه وأعداء الله الكافرين»[1].

- حقوق الأسير:

١ - من حق الأسير عدم إكراهه على ترك دينه، فلا يُكره على الدخول في الإسلام، وإنما يُدعى إلى الإسلام بالتي هي أحسن.

وفي العصر الحاضر يعرف هذا بالحرية الدينية، يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى

---

(١) ينظر: «تفسير المنار» (١٠/ ٨١).

قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠]. ففيها استمالة لهؤلاء الأسرى، وتجديد الدعوة لهم، وفتح باب التوبة أمامهم، وترغيبهم بما يعوضهم عما دفعوا من الفداء، ويعدهم إن هم دخلوا في الإسلام طائعين مختارين بالرزق الوفير في الدنيا والآخرة والمغفرة لما سلف من ذنوبهم قبل الإيمان.

وفي هذا دليل واضح على أنهم لا يُكْرَهون على الدخول في الإسلام، ولم يقع قط أن أكره أسير على أن يدخل في الإسلام.

ومن الأدلة على ذلك قصة ثُمامة بن أُثال الحنفي ﷺ، وكان مشركًا، أسره جيش المسلمين، ورُبط في المسجد، فأتاه الرسول ﷺ وقال له: «**ما عندك يا ثُمامةُ**». فقال: عندي خيرٌ يا محمد، إن تقتلْ تقتلْ ذا دم، وإن تُنْعمْ تُنْعمْ على شاكر، وإن كنتَ تُريدُ المالَ، فسَلْ منه ما شئتَ. فتركه رسولُ الله ﷺ، فلمّا كان من الغد قال له مثل ذلك، وفي اليوم الثالث قال النبيُّ ﷺ: «**أطلقوا ثُمامةَ**». فأطلقوه، فإذا به يذهب ويغتسل ويعود، فيقول: أشهدُ أن لا إله إلا الله وأشهدُ أنك رسول الله، والله يا محمدُ، ما كان على ظهر الأرض وجهٌ أبغضَ إليَّ من وجهك، فقد أصبحَ وجهُك أحبَّ الوجوه كلها إليَّ، والله ما كان على ظهر الأرض دينٌ أبغضَ إليَّ من دينك، فأصبح دينُك أحبَّ الدين كله إليَّ، والله ما كان على وجه الأرض بلدٌ أبغضَ إليَّ من بلدك، فأصبح بلدُك أحبَّ البلاد كلها إليَّ[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٧٢)، ومسلم (١٧٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وهكذا أثَّرت هذه المعاملة الحسنة والخلق الكريم، في استمالة قلب رجل غير عادي، إنه ليس من عامة الناس أو سذجهم، بل هو سيد قومه، ولم يكن إسلامه إسلام تقية أو خوفًا على نفسه وحياته.

٢ ـ ومن حقوقه: إطعامه ما يكفيه من الطعام والشراب، ولهذا يقول الله ﷻ: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٨ ـ ٩].

ففي هاتين الآيتين دليل على أن إطعام الأسير قربة يتقرب بها المؤمن إلى ربه ﷻ، ولهذا قال: ﴿نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾.

وفيها أن المؤمن يؤثر الأسير حتى على نفسه: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾.

ومعنى هذا أنه لم يطعمه مما فضل من قوته، وإنما يطعمه من طيب طعامه مع حاجته إليه ومحبته له، ولذلك كان منع الطعام عن الأسير من الكبائر، كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسولَ الله ﷺ قال: «**عُذِّبت امرأةٌ في هِرَّة، سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النارَ، لا هي أطعمتها، ولا سقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض**»[1].

فلما كان الحبسُ مانعًا للمحبوس من التصرف في أمر معاشه وكسبه وجب على حابسه أن يقوم بحقه، ولو كان ذلك في حق الحيوان، فما بالك بالإنسان الذي كرمه الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٨٢)، ومسلم (٢٢٤٢).

ويكفي أن الله سبحانه قرن حق الأسير بالمسكين واليتيم: ﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾، حثًّا على القيام على إطعامه والإحسان إليه، وقد يكون هذا الإحسان سببًا في هدايته، كما كان الأمر في شأن ثُمامة ﷺ.

٣ ـ حقه في الكسوة والثياب المناسبة التي تليق به وتجدر بمثله، وفي حديث جابر ﷺ قال: «لما كان يوم بدر أُتي بأسارى وأُتي بالعباس، ولم يكن عليه ثوب، فنظر النبيُّ ﷺ له قميصًا، فوجدوا قميص عبد الله بن أُبيٍّ يقدر عليه، فكساه النبي ﷺ إياه..»[1]. فالإسلام يضمن للأسير حق الكسوة والثياب المناسبة.

٤ ـ المأوى والسكن المناسب أيًا كان، فقد يُسكن في المسجد، أو يُسكن في سجن خاص، ويكون ملائمًا، أو حتى في بيوت بعض المؤمنين، وفي عهد النبي ﷺ لم يكن للأسرى ولا للسجن دار خاصة، ولهذا ربما سُجن الأسير في المسجد، وربما قُسم الأسرى على المسلمين في بيوتهم إلى أن يُنظر في شأنهم، وقد روى أحمد، وغيره عن عائشة ﷺ، أن النبيَّ ﷺ دخل عليها بأسير وعندها نسوةٌ، فلهينها عنه، فذهب الأسيرُ، فجاء النبيُّ ﷺ فقال: **«يا عائشةُ، أين الأسيرُ؟»**. قالت: نسوةٌ كُنَّ عندي فلهينني عنه، فذهب. فقال: رسولُ الله ﷺ: **«قطعَ الله يدك»**. وخرج، فأرسل في أثره، فجيء به، فدخل النبيُّ ﷺ، وإذا عائشةُ ﷺ قد أخرجت يديها، فقال: **«ما لك؟»**. قالت: يا رسولَ الله، إنك دعوتَ عليَّ بقطع يدي، وإني معلِّقة يدي أنتظرُ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٨).

مَن يقطعها، قال رسولُ الله ﷺ: **«أجُننت؟»**. ثم رفع يديه وقال: **«اللهمَّ مَن كنتُ دعوتُ عليه، فاجعله له كفارةً وطَهورًا»**[1].

وقد ذكر ابن كثير في «البداية والنهاية» أن الرسول ﷺ فرَّق أسرى بدر على أصحابه[2].

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبيَّ ﷺ جعل ناسًا من الأسرى الذين كانوا يتقنون القراءة والكتابة يُعلمون أولاد الأنصار القراءة والكتابة، وجعل ذلك فداءهم وفكاكهم[3].

ومن المعلوم أن الأسير كي يُعلِّم ويكتب لا بد من أن يكون طليقًا غير مقيد ولا مربوط، وقادرًا على الذهاب والإياب، والوثاق إنما جُعل لمنعه من الهرب، فإذا أمكن منعه بلا وثاق فلا حاجة إليه.

٥ ـ لا يفرق في الأسرى بين الوالدة وولدها أو بين الولد ووالده وبين الأخ وأخيه، وهذا ورد في حكم السبي، والسبي نوع من الأسر، وإن كان يطلق في الغالب على النساء والذرية، والتفريق بينهم وبين الأسرى إنما هو أمر اصطلاحي، وإلا فالكل

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٢٥٩)، والبيهقي (٩/ ١٥٢).

وأخرجه أحمد (١٢٤٣١)، والضياء (٥/ ١٩ ـ ٢٠) (١٦٢٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

وآخره في «صحيح البخاري» (٦٣٦١)، و«صحيح مسلم» (٢٦٠٠ ـ ٢٦٠٣) من حديث أبي هريرة وجابر وعائشة وأنس رضي الله عنهم.

(٢) ينظر: «البداية والنهاية» (٥/ ١٩١).

(٣) ينظر: «مسند أحمد» (٢٢١٦).

أسرى، وقد جاء في حديث أبي أيوب وأبي موسى وعلي وأبي الدرداء ﷺ، أن النبيَّ ﷺ قال: «**مَن فرَّق بين والدة وولدها - يعني من السبي - فرَّق الله بينه وبين أحبته يومَ القيامة**»[1].

وأعجب من ذلك أن الدارمي روى هذا الحديث، وذكر في أوله أن أبا أيوب ﷺ كان في جيش ففرَّق بين الصبيان وبين أمهاتهم من الأسرى، فرآهم يبكون، فجعل يرد الصبي إلى أمه، ويقول: إن رسول ﷺ قال: «**مَن فرَّق بين والدة وولدها فرَّق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة**»[2].

فانظر كيف بلغ الرفق والرحمة والشفقة والعدل بالمسلمين في الجمع بين الإخوة وبين الآباء والأمهات والأولاد من الأسرى.

٦ - عدم تعريضهم للتعذيب بغير حق، فلا يمكن أن نعذِّبهم مثلًا لأنهم قاتلونا، ولم ينقل في الشرع أنه أُمر بتعذيبهم، ولا أنه حصل لهم تعذيب خلال عصور العزة الإسلامية.

وذلك لأنه إذا كان المسلم مأمورًا بإكرامهم وإطعامهم وسقيهم والجمع بينهم، فإن تعذيبهم يتنافى مع هذا الأمر، اللهم إلا أن يكون ثمة حالات خاصة يتطلب الأمر فيها أن يُمس بشيء من العذاب؛ من أجل كشف أمور يُعلم أنها موجودة

---

(١) ينظر: «مسند أحمد» (٢٣٤٩٩)، و«سنن أبي داود» (٢٦٩٦)، و«جامع الترمذي» (١٢٨٣، ١٢٨٤، ١٥٦٦)، و«سنن ابن ماجه» (٢٢٤٨ - ٢٢٥٠)، و«المستدرك» (٢/ ٥٥)، و«سنن البيهقي» (٩/ ٢١٢)، و«البدر المنير» (٦/ ٥١٩ - ٥٢٠)، و«التلخيص الحبير» (٣/ ٣٦ - ٣٨).

(٢) أخرجه الدارمي (٢٤٧٩).

عنده، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسولَ الله ﷺ قاتلَ أهلَ خيبرَ، حتى ألجأهم إلى قصرهم، فغلب على الأرض والزرع والنخل، فصالحوه على أن يُجْلَوْا منها، ولهم ما حملت ركابهم، ولرسول الله ﷺ الصفراءُ والبيضاءُ والحَلْقَة، ويخرجون منها، واشترط عليهم أن لا يكتموا ولا يغيِّبوا شيئًا، فإن فعلوا، فلا ذمة لهم ولا عهد، فغيَّبوا مَسْكًا[1] فيه مال وحُليٌّ لحُيَيِّ ابن أَخْطب، وقد كان قُتل قبل خيبرَ، كان احتمله معه إلى خيبر حين أُجليت النَّضِير، فقال رسولُ الله ﷺ لعم حُيَيِّ: **«ما فعل مَسْكُ حُيَيٍّ الذي جاء به من النُّضير؟»**. فقال: أذهبته النفقات والحروب. فقال: **«العهدُ قريبٌ، والمالُ أكثرُ من ذلك»**. فدفعه رسولُ الله ﷺ إلى الزبير، فمسَّه بعذاب، وقد كان حُيَيٌّ قبل ذلك دخل خَرِبة، فقال: **«قد رأيتُ حُيَيًّ يطوفُ في خَرِبة ههنا»**. فذهبوا وطافوا فوجدوا المَسْك في الخربة[2].

وأما قتل النبي ﷺ بعض الأسرى، فذلك لأن لهم سوابق وجرائم في حق المسلمين استوجبت قتلهم، ولهذا جاء في «التاج والإكليل» أنه قيل لمالك: «أيعذب الأسير إن رُجي أن يدل على عورة العدو؟! فقال: ما سمعت بذلك».

وكان جماعة من السلف يكرهون قتل الأسرى، والنبي ﷺ لم يقتل من الأسرى خلال حروبه الطويلة إلا عددًا قليلًا كانوا

---

(١) المسك، هو: الجلد.

(٢) أخرجه البخاري معلقًا (٣/ ١٩٢) عقب (٢٧٣٠)، وأبو داود (٣٠٠٦)، وابن حبان (٥١٩٩)، البيهقي (٩/ ٢٣١)، وفي «دلائل النبوة» (٤/ ٢٣٠)، وأصله في «صحيح البخاري» (٢٢٨٥، ٢٣٢٨، ٢٤٩٩، ٢٧٢٠، ٤٢٤٨)، و«صحيح مسلم» (١٥٥١).

من أكابر عتاة المشركين وقادة الحرب الضروس الفاجرة ضد الإسلام وأهله، ويمكن أن نطلق عليهم بحسب التعبير المعروف اليوم «مجرمي حرب».

وقد روى مسلم أن رسولَ الله ﷺ حين بلغه مقدم أبي سفيان ومَن معه، شاور أصحابه فيما يصنع، وفي القصة أنهم ظفروا بغلام، فأخذوه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن أبي سفيان وأصحابه، فيقول: ما لي علمٌ بأبي سفيان، ولكن هذا أبو جهل وعُتبة وشيبة وأُمية بن خلف. فإذا قال ذلك ضربوه، فقال: نعم، أنا أخبركم هذا أبو سفيان. فإذا تركوه فسألوه فقال: ما لي بأبي سفيان علم، ولكن هذا أبو جهل وعُتبة وشيبة وأُمية بن خلف في الناس. فإذا قال هذا أيضًا ضربوه، ورسولُ الله ﷺ قائمٌ يصلي، فلمَّا رأى ذلك انصرف، قال: **«والذي نفسي بيده، لتضربوه إذا صَدَقَكم، وتتركوه إذا كَذَبَكم»**[1].

فهذا دليل على أنه ينبغي ألَّا يكون على الأسرى عدوان، ولا تعذيب لهم بغير حق، وإذا كانت هذه الأشياء كلها مطلوبة فالإسلام يوجب أن يكون لهم العلاج المناسب والمعاملة الحسنة، وأن لا يُظلم أحد منهم في نفس أو أهل أو مال.

من أحكام الأسر في الإسلام

١ - يجوز للمسلم إذا لم يقدر على المدافعة في حرب من الحروب أن يستأسر للعدو، وقد ذكر البخاري قصة خُبيب

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٧٩) من حديث أنس رضي الله عنه.

ابن عدي ومَن معه، وكيف أنهم استأسروا للكفار ثم جاؤوا بهم وباعوهم في مكة، وصلبوهم، وقال خُبيب ﷺ قصيدته المشهورة:

فلست أبالي حين أُقتل مسلمًا على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يباركْ على أوصال شِلْوٍ ممزَّعِ[1]

٢ ـ فكاك الأسير المسلم من القربات والطاعات وفضائل الأعمال، ففي حديث أبي موسى ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «**فكُّوا العاني ـ يعني: الأسير ـ وأطعموا الجائعَ، وعودوا المريضَ**»[2]. وعن أبي جُحيفة ﷺ، لما سأل عليًّا ﷺ: هل عندكم شيءٌ من الوحي، إلا ما في كتاب الله؟ قال: «لا، والذي فلق الحبةَ وبَرَأ النَّسَمة، ما أعلمه إلا فهمًا يعطيه اللهُ رجلًا في القرآن، وما في هذه الصحيفة». قلتُ: وما في الصحيفة؟ قال: «**العَقْلُ، وفِكاكُ الأسير، وأن لا يُقتل مسلمٌ بكافر**»[3].

ففكاك الأسير من الطاعات والقربات التي ينبغي أن يسعى المسلمون إليها ما استطاعوا، ومهما بذلوا في سبيل ذلك من الجاه والقوة والمال والجهد والمخاطرة، خاصة مع تطور وسائل الاتصال والتأثير والضغط، وإمكانية العمل المثمر لفك الأسرى، وتحسين ظروفهم.

٣ ـ عن الزُّهري قال: «الأسير إذا عُلم مكانه، فإنه لا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٨٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٢) أخرجه البخاري (٣٠٤٦).
(٣) أخرجه البخاري (١١١، ٣٠٤٧).

تتزوج امرأته، ولا يقسم ماله، فإذا انقطع خبره، فسنته سنة المفقود»[(١)]. على الخلاف المعروف بين الفقهاء.

٤ ـ بوَّب البخاري: «كتاب الفرائض، باب ميراث الأسير»، ثم قال: «وكان شُريح يُوَرِّثُ الأسير في أيدي العدو، ويقول: هو أحوج إليه». وقال عمر بن عبد العزيز: «أجز وصية الأسير، وعتاقه، وما صنع في ماله، ما لم يتغير عن دينه، فإنما هو ماله يصنع فيه ما يشاء»[(٢)].

٥ ـ إذا أُسِر أسير كافر ثم قال: إني مسلم، فما الحكم؟

روى مسلم عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: كانت ثَقيفُ حلفاءَ لبني عُقيل، فأسرت ثَقيفُ رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ، وأسر أصحابُ رسول الله ﷺ رجلًا من بني عُقيل، وأصابوا معه العضباء، فأتى عليه رسولُ الله ﷺ وهو في الوَثاق، قال: يا محمد. فأتاه فقال: «**ما شأنك؟**». فقال: بم أخذتني؟ وبم أخذت سابقة الحاج؟ فقال: «**إعظامًا لذلك، أخذتُك بجَريرة حلفائك ثَقيف**». ثم انصرف عنه، فناداه فقال: يا محمد يا محمد! وكان رسولُ الله ﷺ رحيمًا رقيقًا، فرجع إليه فقال: «**ما شأنك؟**». قال: إني مسلم. قال: «**لو قلتها وأنت تملك أمرك، أفلحت كلَّ الفلاح**». ثم انصرف... فَغُدي بالرجلين[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (٧/ ٥٠) معلقًا في «كتاب الطلاق»، باب حُكم المفقود في أهله وماله.

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٨/ ١٥٥).

(٣) أخرجه مسلم (١٦٤١).

وقد جاء ما يدل على قبول إسلام الأسير، ومن ذلك قصة أسامة بن زيد رضي الله عنهما، حينما قتل رجلًا مقاتلًا بعدما قال: «لا إله إلا الله». فقال له النبيُّ ﷺ: **«أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله؟ فكيف تصنعُ بـ: «لا إله إلا الله» إذا جاءت يومَ القيامة؟»**[1].

فإذا أسلم الأسير فقد عصم دمه لحديث: **«أُمرتُ أن أقاتلَ الناسَ حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوا: لا إله إلا الله، عَصَموا مني دماءهم وأموالهم...»**[2].

٦ ـ أسير الحرب يُعتبر أسير الدولة المسلمة، وليس أسيرًا للشخص الذي أسره، ولذلك فالرأي فيه للإمام، وعلى الإمام أن ينظر ما فيه مصلحة المسلمين، فله أن يمنّ على الأسرى بدون مقابل، كما أطلق الرسول ﷺ ثُمامة بن أُثال رضي الله عنه[3]، وكما أطلق النبي ﷺ ثمانين رجلًا في غزوة الحديبية، وكانوا نزلوا لقتال النبي ﷺ فعفا عنهم[4].

وله أخذ الفدية، كما فعل النبي ﷺ مع أسرى بدر وغيرهم[5].

وله مبادلتهم بأسرى مسلمين عند الكفار، كما في حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما الذي تقدم، وكما في حديث سلمة ابن الأكوع رضي الله عنه، أن الرسول ﷺ بعث بامرأة من المشركين

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢١).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) كما في «صحيح مسلم» (١٨٠٧) من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه.

(٥) أخرجه مسلم (١٧٦٤).

وقعت في الأسر إلى مكة، وفي أيديهم أسارى من المسلمين، ففداهم الرسول بتلك المرأة[1].

٧ ـ هل للمسلمين أن يقتلوا الأسير إذا رأوا المصلحة في ذلك، كما قتل النبي ﷺ بعض الأسرى ممن كان بقاؤه خطرًا على المسلمين مثل عبد الله بن خَطَل ففي «الصحيحين»، عن أنس بن مالك ﷺ، أن النبيَّ ﷺ دخل مكة عام الفتح وعلى رأسه المغفر، فلما نزعه جاء رجل فقال: إن ابن خَطَل متعلِّق بأستار الكعبة. فقال: «**اقتلوه**»[2].

وكذلك أبو ليلى الشاعر الذي قال: يا محمد، مَن للصبية؟ فقال: «**النار**». وقتله؛ لأنه غدر مرة بعد أخرى[3]. إلى غير ذلك من الأحداث، فهل للإمام أن يقتل الأسير بعد أسره، أو ليس له ذلك؟

في المسألة خلاف فقهي، والراجح فيها والله أعلم أنه لا يقتله لمجرد التشهي، لكن يمكن أن يقتل المسلمون من ثبتت عليه جرائم وأعمال ومخالفات يستحق عليها العقوبة، كما حصل في القصص التي نقلت عن الرسول ﷺ، ولهذا كره الحسن وعطاء، وهما من فقهاء السلف قتل الأسير.

وجاء الحجَّاج بأسير مكبَّل إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فقال له: قم يا عبد الله بن عمر فاقتله. فقال ابن عمر: «ما بهذا أمرنا، فإن الله يقول: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤]. أي

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٨٤٦)، ومسلم (١٣٥٧).

(٣) أخرجه الحاكم (٢٦١٨)، والبيهقي (٦/ ٣٢٣).

بعد الأسر، فلم يذكر القتل، وإنما ذكر المنَّ أو الفداء».

وفيه قصة أخرى لابن عمر ﷺ لما أمره أمير بقتل أسير، فقال: «أما وهو مصرور فلا».

والصَّرُّ هو التقييد والتكبيل، فكأن ابن عمر ﷺ يقول: أما وقد أسرته ووثقته فأصبح أسيرًا فلا، يعني لو قتلته في ميدان المعركة فهذا باب آخر.

ولهذا قال ابن مفلح من فقهاء الحنابلة: «ومَن أسر أسيرًا حَرُمَ على الأصح قتله»[1]. وهذا هو المذهب، وحكى الحسن ابن محمد التميمي أن هذا كان إجماع الصحابة ﷺ أنهم لا يقتلون الأسير.

هذا جانب من عظمة الإسلام ومن نظام الإسلام في التعامل مع الأسرى الذين هم كفار أولًا، وأعداء ثانيًا، ومحاربون مقاتلون تم أسرهم في ميدان المعركة ثالثًا.



(١) ينظر: «الفروع» (١٠/٢٥٦).



المبحث الثاني

في فقه تنزيل الشريعة

أولًا:
في فقه الموازنات

فقه الموازنات: هو العلم الذي يتمكَّن به المكلَّف من اختيار الواجب، أو الأولى.

ونقرأ في هذا التعريف أمورًا

١ ـ فالإشارة إلى الاختيار، لأنه لا يمكن تصور الموازنة إلا بين أمرين فما زاد، وإلا فالمرء حين يكون أمام طريق واحد لا سبيل له إلى غيره، فإنه لا يحتاج إلى إعمال ذهن وروية، ولا إلى مشورة، ولا يقع له تردد، لكن قد يقع له التردد حينئذٍ بين سلوك هذا الطريق، وبين التوقف عنه؛ لعدم الجزم، وهذان في الحقيقة طريقان:

الأول: العزيمة والمضي فيما فيه خير له.

الثاني: التوقف والتروي.

ومثال هذا أن يتردد الفقيه أو العالم في القول في مسألة ما، هل يفتي فيها، أو يسكت؟

فهذان طريقان يحتاج فيهما إلى الموازنة.

٢ ـ والإشارة إلى «اختيار الواجب»، لأن البحث قد ينتهي إلى القول بوجوب سلوك هذا الطريق، ولذا يقول الأصوليون إنه لا يكاد يوجد في الدنيا خير محض ولا شر محض، ولكن ما غلب خيره فهو مطلوب، وما غلب شره فهو مدفوع.

وعلى هذا فالواجب قد يتضمن مفسدة، ولكنها مغمورة في مصلحة أعظم منها، بمعنى أن اختيار الوجوب هو موازنة بين مصالح ومفاسد تمخضت عن ترجيح جانب على آخر.

وهذا قد يتحقق في مسائل شرعية مثل الجهاد المشروع، ففيه ذهاب للأنفس، ويُتْمٌ للأطفال، وترميل للنساء، ولكن مصلحته أعظم في حماية الأمة، ورد المعتدين.

وقد يتحقق في مسائل مصلحية لا نص فيها، مثل أن يعتقد المكلف أن شيئًا ما هو واجب عيني عليه؛ لأنه لا يقوم به أحد غيره، وهو يقدر منه على شيء لا يقدر عليه سواه، وهذا يكثر في أبواب العلم والدعوة والإصلاح ونحوها.

٣ ـ والإشارة إلى اختيار الأولى، حيث لا يكون في المسألة وجوب أو تحريم، لعدم ظهور الحكم، أو للتنازع فيه، فيرجح المرء وجهًا أو سبيلًا على جهة الميل، لا على جهة القطع واليقين، وقد صنَّف ابن رجب رسالة سماها: «اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى».

ومن ذلك الاختيار بين ألوان من الخير، كلها مطلوب؛ لكن يقع التردد في أيها أفضل عند الله وأنفع لعباده، كالعلوم النافعة سواءً كانت علومًا دينية، أو علومًا دنيوية، مما يحتاجه

الناس في حياتهم وعلاقاتهم وصحتهم وتنقلهم ورفاهيتهم ونحو ذلك.

وفقه الموازنات يتصل بعدد من العلوم، وقلَّ من ألَّف فيه تأليفًا مستقلًا، ولكنه يقتبس من أبحاث أصولية مثل:

١ - بحث المصالح والمفاسد، كما قرره الشاطبي والغزالي وابن تيمية وابن عبد السلام ومَن بعدهم[(١)]، وهو أهم متعلقات فقه الموازنات.

٢ - بحث القياس، فإن القياس نوع من الوزن والموازنة، كما ذكر الأصوليون في تعريفه: أنه إلحاق فرع بأصل في حكم لعلة جامعة بينهما.

فالقياس هو أحد أنواع الموازنة، وقد يكون الفرع المنظور إليه مترددًا بين المسكوت عنه وإلحاقه بأصول منصوص عليها، فهذه موازنة، وصوابها يعتمد على صدق المقايسة واعتدالها.

٣ - بحث المقاصد الشرعية، من حيث إن فهم المقاصد واستيعابها يعين على اختيار الأسدّ والأنفع في موارد النزاع، ومواضع الإشكال، ومواطن الغموض، والاختلاف بين الناس.

وبحث المقاصد، وإن كان سبق إلى درسه الإمام الشاطبي، وتوارد عليه من بعده الباحثون، وكان من أكثر البحوث المتأخرة فيه تجويدًا كتاب الإمام الطاهر بن عاشور في مقاصد الشريعة،

---

(١) وينظر ما كتبه العلامة أحمد الريسوني في «مقاصد المقاصد»، و«نظرية المقاصد».

وتوسع في استنباط المقاصد وتطبيقها سماحة الشيخ عبد الله ابن بيَّه حفظه الله تعالى في كتابه «علاقة مقاصد الشريعة بأصول الفقه»، إلا أن هذا العلم لا يزال بحاجة إلى مزيد من التقعيد والضبط والنشر المتوازن.

٤ ـ ويتطرق إليه أهل العلم في مصنفاتهم التي تحتاج إلى نظر متوازن بين مصالح ومفاسد، مثل أبواب السياسات الشرعية، كما في كتاب الماوردي وأبي يعلى وابن القيم وغيرهم، أو في أبواب خاصة من سياسة الفرد والمجتمع، كما في بحث العزلة والخلطة الذي كتب فيه الخطابي وابن رجب وسواهم؛ حيث لا تخلو هذه الأبحاث وتلك من مقايسة بين المصالح المترتبة على عمل ما وبين المفاسد، مع بناء الحكم أو الاجتهاد الذي يصل إليه المصنف على هذه المقايسة.

ومن أبرز من اعتمد هذا المعنى في تفصيل المسائل الحادثة الإمام الجويني في «غياث الأمم في التياث الظلم»، حيث وازن بين خروج الإمام للحج الفريضة ـ مثلًا ـ وبين بقائه لحراسة البيضة، وحماية الأمة، وتدبير شأن الرعية.. وهلم جرا..



ضروب الموازنات

لفقه «الموازنة» أنواع متعدِّدة، وضروب مختلفة، وقد تعاقب العلماء على ذكرها إجمالًا وتفصيلًا:

١ ـ الموازنة بين المصالح عند تعارضها، وعدم إمكان تحصيلها معًا، فيختار الفرد أو المجتمع أرجحها وأفضلها، وقد حكى ابن تيمية الإجماع على أن الشريعة جاءت لتحصيل المصالح وتكميلها، وتقليل المفاسد وتعطيلها، فيختار أحسن الحسنتين.

وقد رُوي عن عمرو بن العاص ﷺ أنه قال: «ليس الفقيه مَن يعرف الخير من الشر، لكن الفقيه مَن يعرف خيرَ الخيرين وشرَّ الشرَّين».

إن من الموازنة بين المصالح الاشتغال بالقضايا الكبار التي عليها مدار صلاح الأمة في دينها ودنياها، والاقتصاد في المسائل الفرعية والجزئية والتفصيلية من دون إيغال فيها أو إلحاح عليها، فكم سببت من فرقة، وأزالت من وحدة، وصنعت من تحزّب، وأهدرت من أوقات، وعوّقت عما هو أهم منها وألزم.

وقد تجد المفتي بها يقول: لا مانع، نهتم بهذا وبهذا، وكأنه نسي تعذّر الجمع بين المصالح كلها، وأن الوقت والقوة

العقلية والنفسية والبدنية لا تسعف بمثل هذا، تقبل أنه يوجد في قرن ما حول مسائل فرعية ما يستوعب المسألة ويستقصيها، ولتكن مثلًا الصلاة في النعل، لكن أن يكون هذا البحث ذاته يُعاد إنتاجه وطرْقه وتحريره وعرضه، والجدل حوله والخلاف، ويكون مثارًا للفرقة والتصنيف، ومعيارًا للاتّباع، ويطغى حتى على روح الصلاة ولبّها وهو الخشوع، فتتحوّل العبادة إلى أداة للمنافرة والتغاير والاقتتال والشحن، فهذا يعود على الأصل المقصود بالإضعاف، والله المستعان.

٢ ـ الموازنة بين المفاسد إذا لم يمكن دفعها جميعًا، فيُدفع أعلاها بارتكاب أخفها، وارتكاب أخفّ الضّررين حينئذٍ لا يكون منهيًّا عنه، بل مباحًا أو واجبًا، وقد علم الله أن الفساد يقع في أحوال الناس كثيرًا، حتى في العصور الفاضلة، وأوقات الرسالة، وأن المرء قد يكون أمام خيارات كلها سيئة في موقف ما، فالرشد حينئذٍ أن يختار أخفّها دفعًا لأعلاها وهذه أدنى المفسدتين أو أقل الشرَّين.

ويقع هذا في أمور العبادات والطهارات، والمعاملات، والعلاقات مع الصديق ومع العدو، فإن الحياة الإنسانية تتفاوت في القوة والضعف، والصحة والمرض، والغنى والفقر، والجوع والشَّبع، وقد يصل المرء فردًا أو يصل المجتمع إلى حالٍ من الضرورة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فمَن لم يوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية، والمفسدة الشرعية؛ فقد يدع واجبات، ويفعل محرّمات، ويرى ذلك من الورع، كمن يدع الجمعة والجماعات خلف الأئمة الذين فيهم بدعة، أو فجور،

ويرى ذلك من الورع، ويمتنع من قبول شهادة الصّادق، وأخذ علم العالم لما في صاحبه من بدعة خفيفة، ويرى ترك قبول سماع هذا الحقّ الذي يجب سماعه من الورع».

وإذا كانت الضرورة الحسية ظاهرة، كأكل لحم الميتة، وهو خير من الموت جوعًا، فإن ثمة ضرورات معنوية ينبغي مراعاتها وبحثها لترشيد المسيرة الإسلامية.

وقد ذكر ابن القيم مثالًا لذلك[1]، وهو التقليد وأخذ قول الفقيه أو العالم من دون حجة، واعتبره جائزًا عند الضرورة، كأكل لحم الميتة.

وربما غلب هذا الأمر الطارئ حتى صار شيئًا مستقرًا عند عامة الناس لا يقدرون على غيره، ولا يطيقون سواه.

وكم من المسائل التي أصبحت في حكم الضرورة في حياة الناس اليوم بسبب متغيرات العصر، فنحتاج إلى أن يتفطن لها الفقهاء ويولوها حقها من البحث، ولعل من ذلك وسائل الإعلام المختلفة المقروءة أو المسموعة أو المرئية، وكيفية التعاطي معها، وإنزال الأحكام عليها. وكأن هذه القاعدة تتحدث عما يسميه المحللون: أقل الخسائر!

٣ ـ الموازنة بين المصالح والمفاسد، بمعنى ألَّا يمكن تحصيل مصلحة بمفسدة تقارنها، أو لا يمكن دفع مفسدة إلّا بمصلحة تفوت بدفعها، وحينئذٍ يظن البعض أن دفع المفاسد مقدم على جلب المصالح، وهذا ليس بسديد، وإنما القاعدة هي

---

(١) ينظر: «ضوابط الدراسات الفقهية» للمؤلف.

رعاية الأعظم منهما، فإذا كانت المصلحة أعظم وجب تحصيلها، ولو بمفسدة أخف، وإذا كانت المفسدة أعظم وجب دفعها، ولو بفوات مصلحة أقل.

وإنما يكون دفع المفسدة مقدّمًا على جلب المصلحة إذا كانتا متساويتين في نظر الفقيه أو المكلف، وإلّا فإن من المعلوم أن المصالح لا تخلو من مفاسد مغمورة غالبًا، ولكن لا يُلتفت إليها؛ لأن الميزان يقتضي رجحان المصلحة.

وفي هذه القاعدة تحويل الأزمات إلى فرص، بالسعي الجاد لتعظيم المصالح وحسن استثمارها، وعزل المفاسد ومحاصرتها، ومن ذلك استحقاقات العولمة في جوانبها الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية، فإن الجهد البشري الصادق قادر - بإذن الله وعونه - على تعظيم المصالح ورعايتها ودعمها، والاجتماع عليها، وحصار المفاسد وملاحقتها، خاصة إذا استطاع القادرون وأصحاب النفوذ وقادة الفكر والرأي توحيد مواقفهم، وتنسيق جهودهم، وتفعيل التعاون بينهم في المجالات المختلفة.

ومثل ذلك الحروب والمشكلات والأزمات، كما وقع في حربَي الخليج الأولى والثانية، وكما يتخوّف الناس من حرب ثالثة تلقي بالمنطقة في أتون صراع عنيف لا يستثني شيئًا، فإن رعاية الموازنة بين المصلحة والمفسدة تبدو شيئًا ضروريًا.

ولا شيء يعدل السلامة من الحرب؛ فالعقلاء يثمنون فترة السلام، وما تثمره من استقرار للنفوس، ونماء للاقتصاد، واستعداد للنهوض، وتطوير للأداء، وتوجّه نحو خطط البناء والتنمية في المجتمعات، ولذا فالواجب عليهم أن يتحالفوا ضد

الحرب، وأن يوصلوا صوتهم إلى القوى المؤثرة في الفرق المتصارعة، ويحاولوا ألّا يستفرد أهل الحماسة الرعناء بالقرار الذي سيصل أثره إلى الجميع.

وإذا غلبوا ووقعت الواقعة جاء دور رعاية الموازنة في التكيّف والتعامل مع الحدث الطارئ، وفق قواعد المصلحة والمفسدة.

ومن الموازنة بين المصالح والمفاسد توسّط النظر، وتعميق الإيجابية بدلًا من الاعتياد على النظرة السلبية للأشياء والأحداث والمتغيرات.

وكأن بعض الخلق اعتادوا على ما هو واقع، وصار عندهم بمثابة الأصل المُسَلّم به، وصار كل طارئ عليه مذمومًا، واعتاد الناس إذا قارنوا الأمس باليوم أن يمتدحوا الأمس، ويذموا اليوم، ويتخوّفوا من الغد!

إن القراءة السليمة للأحداث والواقع تخفف من احتدام الضغط النفسي عند الإنسان، وتبعد عنه الروح الغضبية، وتجعله أكثر قدرة على استيعاب الواقع وفهمه، والتعامل الصادق معه.

ثمة أشياء يمكن أن تنظر إليها بتشاؤم، وكأنها نهاية التاريخ، وتكتفي بالحوقلة والاسترجاع، ولو أننا سمحنا للأمل والاعتدال والتفاؤل أن يهب على صدورنا، وأن يتخلل عقولنا لوجدنا فيها جوانب عديدة من الخير.

حتى المصائب التي لا يد للمرء في دفعها يمكن أن يُنظر إليها بنظرة التفاؤل ويُستحضر حديث المصطفى ﷺ: «**عجبًا لأمرِ**

المؤمنِ! إن أمرَه كلَّه له خيرٌ، وليس ذاك لأحدٍ إلا للمؤمنِ، إن أصابته سراءُ شكرَ فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراءُ صبرَ فكان خيرًا له»[1].

حين تنظر إلى امتزاج المسلمين بغيرهم تجد أثرًا سلبيًّا - ولا بد - مما أخذوه عنهم من انحراف في السلوك أو الخلق، أو ما شابه، ولكن يجب ألّا تتوقف النظرة عند هذا الحد، فانظر إلى ما أفاده المسلمون للآخرين من إيمان أو دعوة أو تأثير أو تشكيك في بعض مسلّماتهم، أو ما استفادوه من علم وضبط وإتقان وتجويد مما هو من مصالح الحياة الدنيا.

وحين تنظر إلى أزمة أو كارثة أو حرب، وتكتفي بأثرها السلبي تكون قرأت وجهًا واحدًا، هو - فعلًا - مؤذٍ ومرٌّ ومثيرٌ للأحزان.

فلِمَ لا تداوي هذا الحزن بجرعة من التفاؤل تستطلع بعض إيجابيات الأزمة وآثارها البعيدة، والتي هي جزء من مفهوم الحكمة الإلهية؟!

فليكن إيمانك بحكمة الله وعدله ورحمته أعظم من إيمانك بنظرتك وتحليلك وموقفك، فتبارك الله الخالق الحكيم الرحيم.

٤ - الواجب الأصلي والواجب الظرفي، وهذا يخضع للموازنة، فثمة واجبات شرعية يحول دونها ما هو أوجب منها، أو يحول دونها مفسدة أعظم منها، فتصبح بهذا غير واجبة.

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صُهيب ﷺ.

ومن ذلك ترك النبي ﷺ بناء الكعبة على قواعد إبراهيم خشية أن تنكره قلوب قريش آنذاك[1]، ولا يزال الأمر إلى اليوم على ما هو عليه، مما يدل على أن بعض الواجبات قد لا يتحقق أبدًا.

وكذا ترك قتل عبد الله بن أُبيّ بن سَلُولَ وبعض المنافقين، خاصةً الذين ظهر نفاقهم، وثبتت إدانتهم، واعتذر النبي ﷺ عن قتلهم؛ خشيةَ أن يتحدَّث الناسُ أن محمدًا يقتل أصحابه[2].

وهذا معناه التيقُّظ للحملات الإعلامية، وأنه ليس من الضعف أو الهزيمة تجنّب ما يكون ذريعةً لحملات تطال الإسلام وأهله أو بعضهم، بل هذا عين الحكمة والصواب.

٥ ـ فقه الاستطاعة، وهو جزء من الموازنة، فإن الاستطاعة قد تكون بمعنى الضرورة البدنية، وهذا ظاهر: «**صلِّ قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب**»[3].

ولكن استطاعة المجتمعات أبعد من ذلك، فهي لا تُقاس بالمعنى المادي، بل أثرها المعنوي أعظم.

وقد يستطيع فرد أن يعمل شيئًا ولكن يترتب عليه ضرر أعظم، فهو هنا ليس بمستطيع بالمفهوم الشرعي، كما في قوله ﷺ: «**مَن رأى منكم منكرًا فليغيِّره بيده، فإن لم يستطعْ**

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (١٢٦، ١٥٨٦)، و«صحيح مسلم» (١٣٣٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) كما في حديث جابر رضي الله عنه. أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤).

(٣) أخرجه البخاري (١١١٧) من حديث عمران رضي الله عنه.

فبلسانه، فإن لم يستطعْ فبقلبه، وذلك أضعفُ الإيمان»[1].

والتغيير جملة يحتاج إلى حكمة وروية، ومعرفة بالسنن، وإذا حُمِل الناس على ما يشقّ عليهم أو يعنتهم، أو ما لا يقتنعون فيه أفضى ذلك إلى الفساد العريض، وهذا ما اعتذر به عمر بن عبد العزيز حين طالبه أحد بنيه بالإسراع في الإصلاح في حركته السياسية، وبناء على هذين الأمرين فإن الحديث عن شعار «الإسلام هو الحل» يحتاج إلى تفصيل.

فهي حقيقة لا شك فيها، لكن يعلم أن تطبيق تفصيلات الشريعة لا يكون إلّا بتأهّل الناس لذلك، وتربيتهم عليه، واستعدادهم النفسي والاجتماعي والاقتصادي لتبعاته.

ويجب مراعاة أن الناس على أصل الإسلام، ومن الإسلام خير كثير موجود وقائم بينهم، فلا يُفهم من هذا الشعار أن الإسلام مغيَّب عن واقع الحياة.

وقد يُفضي تكرار اللفظ إلى الشعور بأننا نملك وصفة جاهزة لإصلاح كل الأشياء، في حين أن منهج الإسلام ذاته هو إصلاح متوازن متدرّج، يُفضي بعضه إلى بعض، ولا ينفصل عن استحقاقات الواقع، كما في قوله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: **«إنك تَقْدَمُ على قوم أهل كتاب، فليكنْ أولَ ما تدعوهم إليه: عبادةُ الله عز وجل، فإذا عرفوا اللهَ، فأخبرهم أن اللهَ فرضَ عليهم خمسَ صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا، فأخبرهم أن اللهَ قد فرضَ عليهم زكاةً، تُؤخذُ من أغنيائهم، فتُرَدُّ على فقرائهم، فإذا**

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

أطاعوا بها، فخذْ منهم، وتَوَقَّ كرائمَ أموالهم»[1].

مع أهمية إدراك ألّا يُفضي هذا الاستخدام إلى الشعور باحتكار أو خصخصة لمفهوم التدين؛ فالإسلام حق مشترك لكل منتحليه، وإن كان الله تعالى فضَّل بعضهم على بعض.

مع التفريق بين ما هو شريعة محضة لا خلاف عليها، ولا يسع أحدًا من المسلمين التشكيك فيها، وبين ما هو محل اجتهاد وخلاف بين العلماء، ومع التفريق بين الواجب الظرفي والواجب الأصلي، كما بيّنا.

ومع التفريق بين المطلب الإيماني، وبين الواقع البشري، فإن الناس جُبِلوا على الخطأ، وفي التطبيق النبوي ثم الراشدي حصل لبعض الناس نوع تقصير أو معصية أو اختلاف أو تردّد، مما يوجب النظرة الواقعية المتأنّية التي تصنع القناعة لدى المصلحين أن المجتمعات لا يمكن عسفها على ما يُعتقد أنه الأفضل، وإنما الإصلاح الحق هو معرفة حال المجتمع أولًا، ومعرفة ما يمكن أن يتقبله من الإصلاح ثانيًا، ووضع خطة الإصلاح على هذا الأساس.

مع رعاية اختلاف المصلحين أنفسهم في مناهجهم وطرائقهم ومداركهم.

ومن الموازنة الاقتصاد في الجدل بينهم، فلا تُلغى تحت ذريعة إظهار الوحدة المنهجية، ولا يُطوّر ليتحول إلى تراشق واتهام وتعويق لمسيرة العمل الجادّ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٥٨، ٧٣٧٢)، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

إن باب معرفة الأصلح والأرجح والأفضل من حيث الوجوه جميعها أو أكثرها مما تختلف فيه الأنظار، بحسب اعتبارات عديدة:

أ ـ منها علم الشريعة؛ فإن علم الكتاب والسنة بصيرة ونور، يهتدي بها الفقيه في ظلمات النوازل والمشكلات والملتبسات.

ب ـ معرفة الواقع؛ فإن الحكم على الشيء فرعٌ عن تصوره، وإدراك تداخل المسائل وترابطها ومآلاتها ونتائجها مما يحتاج إليه المجتهد أو الفقيه.

ج ـ التجربة والخبرة؛ فإن العلوم على الورق شيء، وفي محك الحياة العملية شيء آخر.

د ـ سعة الإدراك والتفكير؛ فإن الناس متفاوتون في عقولهم الفطرية الغريزية، ومتفاوتون في طريقة البحث والتفكير والنظر، ومتفاوتون في حجم العلوم والمعارف المتوفرة لديهم.

هـ ـ كمال التجرّد أو الوقوع تحت ضغط أو تأثير خاص أو عام.

قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

٦ ـ باب الذرائع والموازنة بين إغلاق الذريعة تجنّبًا للمفسدة، وبين فتحها تحصيلًا للمصلحة، وبعض الغيورين يتقنون

سدّ الذريعة أكثر مما يتقنون فتحها، أي إنهم يعملون مبدأ الخوف أكثر مما يعملون مبدأ الثقة، وهذا دليل ضعف، فإن الخوف علامة ضعف إذا غلب، وتجاوز حدّه.

ولا يصلح أن يقع الفقيه أسيرًا للمجتمع، فهو يتردّد أو يحجم حتى يرى الناس قد أقدموا، فإذا رأى الأمر استقر، وتعارف عليه الناس تقبله، وسكت عنه.

إن الفقيه يجب أن يكون في الصفوف الأولى فهمًا وإدراكًا وشجاعة، مع رعاية جانب ما يحتمله الناس ولا يحتملونه، كما قال علي ﷺ: «حدِّثوا الناسَ بما يعرفونَ»[1].

إن من الموازنات المهمة الاعتدال في النظر بين مهادنة ما هو واقع من الأخطاء العقدية أو السلوكية أو انحرافات الفكر والنظر، تلك الانحرافات والأخطاء التي أفرزت حالة التخلف، أو أفرزتها حالة التخلف الإسلامي، ولا سبيل للنهوض إلّا بدحضها وإبعادها، وتحرير الشخصية الإسلامية والعقل المسلم منها، وبين ضرورة الحفاظ على قدر من السكينة عند الناس وطول النفس؛ لئلا يغرد المصلحُ أو الداعيةُ في السِّرب وحدَه، ويبتعد عن الناس، الذين هم محل التأثير.

وهذا فقه دقيقٌ يحتاج إلى شمولية النظرة؛ فليس المقصود بالناس هم خصوص الفئة المحيطة بك، ولكن عموم المستهدفين بالإصلاح.

والحراك العملي يمنح الداعية خبرةً أفضل في كيفية التعاطي

(١) أخرجه البخاري (١٢٧).

الرشيد مع هذه المسألة؛ لئلا يقع في مقابل هذا في فخ الأسر للجماهير، ويصدق عليه المثل: أنا قائدكم فدلّوني على الطريق!

٧ ـ فقه المقادير، وهو من أعظم صور الموازنة، وهو يكون فيما وردت فيه نصوصٌ شرعية بالأمر به، أو النهي عنه، أو فيما تقتضي المصلحة فعله أو تركه، ولكن ضمن هذا التشريع أو المصلحة درجات؛ فهناك الركن والواجب والشرط والمستحبّ، وهناك ما يخص الفرد وما يخص الجماعة، وفي المنهيات هناك الشِّرك، ودونه الكبائر والموبقات، ودونها الذنوب، ودون ذلك الصغائر، ثم اللّمم، ثم المكروهات.

وفي التنزيل قال جل وعلا: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]، وكثير من المتعبدين والصالحين يميلون مع شيء تهواه نفوسهم، وهذا بحد ذاته لا تثريب فيه، ولكن التثريب أن يتحوّل هذا الميل إلى نوع من التشريع والمطالبة للناس بمثل هذا، وتغليب بعض الفروع أو المطالب المتأخرة في رتبتها عما هو أمثل وأفضل منها، ومن التربية وضع الأشياء وفق مقاديرها، ولعل ربط المتعلمين بالقرآن الكريم وفهمه وتدبره مما يضبط لديهم المعيار، فيعظّمون ما عظّم الله، ويعتنون بما تكرر وروده في التنزيل، ويضعون الأشياء التي تجري جرْي اهتمام الناس بها لسبب غير موضوعي في موضعها؛ فلا يقع الإهمال ولا الطغيان، ولعل هذا جزء من مفهوم قول الله ﷻ: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِى ٱلْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٨ ـ ٩].



ثانيًا:
في فقه العواقب

الإحاطة بفقه العواقب أو ما يسميه الأصوليون: (اعتبار المآلات)، فقه جليل يحتاج إليه القاضي في أقضيته، والحاكم والمسؤول في قراراته، والمفتي في فتاواه، والداعية في برامجه ونشاطاته، والمعلم في دروسه، والأب في رعاية أسرته، ويحتاج إليه عموم المكلفين في سائر ما يعرض لهم.

وتحتاج إليه الجماعات والمؤسسات والدول التي تريد أن ترسم طريقها للمستقبل، وأن تكون الشريعة هادية ومرشدة لمسيرتها.

يحتاج إليه للتمييز بين المصلحة والمفسدة، وما يقع على نظام العدل أو الظلم.

وفقه هذه القاعدة يفصل ما بين التنبؤ الفاسد المبني على الكهانة والتنجيم والعرافة، أو الظن المضطرب غير المتوازن، وما بين الفراسة والتوسّم والظن الغالب والتوقع السليم، وفق معلومات ومعطيات وحقائق وتجارب.

وحقيقتها الدعوة إلى الاعتدال ما بين رؤية الماضي والحاضر والمستقبل، فإن الإفراط في استحضار الماضي والانغماس في الحاضر يعوق كثيرًا رؤية المستقبل.

والفقه الحق متصل بالواقع؛ يفهمه ويبني عليه، ويحسن التوقُّع لمآلاته، ولا يغرق في التنظير المبني على:

- المزاج الشخصي.

- أو التجربة المحدودة.

- أو الخبرة السابقة من دون مراعاة لتحوّل الظروف.

ولكنه يصل ما بين القانون الثابت المطلق (الشريعة) وبين وقائع الحياة المتغيرة، فالمجتمعات مكونة من أسر وأفراد، والأفراد متفاوتون عقلًا وجسدًا ونفسًا، والفرد ذاته مزيج من المادة والعاطفة والعقل والروح، وتفاعل الفرد مع الزمان والمكان والحدث أمر مستمر متجدد، فإمضاء الأحكام عليهم ليس عملًا آليًا، ولا تطبيقًا حرفيًا، بل هو العدل الذي يضع الأشياء مواضعها.

واعتبار المآل معناه: اجتهاد الفقيه أو المجتهد في توقّع ما تؤول إليه الأفعال والأحكام والفتاوى والمقالات والمواقف.

فهو نوع من دراسة المستقبل والموازنة بين ظاهر الحال والنص، وبين النتائج المترتِّبة على الفعل أو الترك، وهو مبني على أكثر من نظر:

الأول: معرفة الوضع القائم، وأبعاده، وأسبابه، ومحاولة توصيفه، وتكييفه.

الثاني: معرفة الحكم الأصلي الملائم بميزان الشريعة، وهو فرع عن الاطلاع على أدلة الشريعة ونصوصها؛ من قرآن، وسنَّة، وإجماع، وعمل الخلفاء والصحابة، ومن قواعد استدلال الأئمة.

الثالث: النظر الطارئ في مدى مناسبة حكم أو حكم آخر غيره؛ لتطبيقه على الواقعة، كما يقول الشاطبي: «إن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلَّفين بالإقدام أو الإحجام، إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل»[1].

ويتوهَّم كثيرون أن المآلات تنفع في سد الذرائع أو إيقاف العمل بحكم ما.. والواقع أن المآلات تنفع في هذا وفي جانب آخر أهم، وهو الحفز على أعمال أو بدائل أو برامج من شأنها إغناء الفرد والمجتمع وإثراؤه ماديًّا ومعنويًّا، وتصريف طاقات الناس وهممهم إلى الجانب الإيجابي الفاعل، بدلًا من الوقوف الطويل أمام الأبواب المغلقة أو المشكلات أو الفرص المؤجلة التي لم يحن أوانها بعد، وهي موضوعة على قائمة الانتظار.

وهذا يعرض في المسائل الفردية والخاصة ويكون الاجتهاد فيه للناظر في المسألة وأحيانًا للمكلف ذاته.

ويعرض بصورة أوسع وأعظم في المسائل العامة؛ كقضايا الجهاد، والاحتساب، والدعوة، والسياسة الشرعية.

فالناظر في واقعة ما لا يكتفي بملاحظة تطوراتها السابقة، بل عليه أن يتأمّل في سيرورتها وصيرورتها وما تؤول إليه من

---

(١) ينظر: «الموافقات» (٥/ ١٧٧).

جهة، بمعنى توقع ما سيحدث لها من احتمالات مستقبلية.

وأن يتأمل في تأثير إمضاء حكم ما عليها من جهة أخرى، وهل سيعالج المشكلة أم يبقيها أم يرسخها ويزيدها؟ وهل ثمَّ حكم آخر يحقق العدل والمصلحة بصورة أفضل؟

وحين نقول «إمضاء حكم شرعي» نعني من حيث الأصل، وإلا فالشرع خير كله، وهذا ما لا ينازع فيه أحد، غير أن معرفة ما هو الحكم الشرعي بخصوص هذه المسألة مما يختلف فيه، وقد يرى المجتهد الانتقال من حكم إلى حكم آخر، أو إمضاء حكم ما بشروطه.

وهذه النظرات مبناها على الاجتهاد، واجتهاد الفرد فيها مظنة التأثر بظروفه الشخصية وثقافته الخاصة، وزاوية النظر التي يطل منها على المسألة، ومدى اتساع خبرته وتجربته، ومطالعته للمتغيرات أو انعزاله عن ذلك.

ولذا يكثر الخلاف بين الفقهاء والمتفقهين وتتسع الشُّقة، ويلجأ كثيرون إلى اتهام المخالف إما بالغفلة والتقصير عن فهم الحال، أو بالتساهل والتفريط في الحكم..

والنظر الجماعي أبعد عن الزلل، وأقرب للرشد، وأسلم من تدخل المزاج الفردي، أو الاتجاه الخاص، أو تأثير المدرسة والتيار على الباحث، ولذا يحسن أن تكون المسائل العامة محل نظر المجامع الفقهية والمجالس العلمية المتخصصة والسالمة من الضغوط، سواء كانت ضغوط حاكم جائر، أو ضغوط شباب ثائر، والله أعلم.

أدلة المآلات

سألني مرة أحد الإخوة عن الأدلة الشرعية التي توجب على المكلَّف مراعاة العواقب، سواء كان فقيهًا أو حاكمًا أو أبًا أو أمير جماعة أو قائد فريق..؟

فجمعت ما ظهر لي من أدلة الكتاب والسنة والقواعد الشرعية العامة، وهذه أهمها:

١ ـ قصة يوسف عليه السلام وما فيها من الرؤيا التي تعززت بتعبير النبي يوسف عليه السلام لها، وما اقتضاه ذلك من الإجراء التقشفي الاقتصادي، والاستعداد لما يمكن أن يحدث من الجفاف والجدب.

وهو أمر جاءت الشريعة الخاتمة برعايته واعتباره، وليس هذا من الغيب المطلق، بل هو غيب نسبيّ يعلمه بعض خلق الله بسبب ما، والممنوع ادّعاء علم الغيب، أما توقعه فهو جارٍ من الأنبياء وغيرهم.

٢ ـ في نصوص الكتاب الحكيم الإرشاد إلى السنن الربانية التي يمكن استنباطها والعمل وفقها كما في قوله: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٧]،

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٦٢]، كما فيه الإرشاد إلى الاعتبار من قصص السابقين وتجاربهم: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢].

والتوقُّع يبنى على قراءة السنن والنواميس وفقهها، وقراءة الواقع وأبعاده وتشابكاته.

والنصوص ترشد إلى وجود سنن وقوانين إلهية تحكم الحراك البشري الاجتماعي مثلها مثل القوانين التي تحكم المادة، وإن كانت أقل ظهورًا منها، وأصعب رصدًا.

وما نهوض الحضارات وانهيارها، وقيام الدول وسقوطها إلا وفق نواميس محكمة يمكن رصدها ويمكن بمراعاتها تطويل أعمار الدول وبإهمالها سرعة زوالها وانهيارها، كما أشار إلى طرف من ذلك الإمام ابن خلدون في «مقدمته».

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ...﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وذلك أن المشركين قالوا للرسول ﷺ إذا لم تكفَّ عن سب آلهتنا فسوف نسب إلهك، فنزلت هذه الآية.

وسبُّ الأوثان ليس في أصل التوحيد والرسالة، وإنما الذي في صلبها إبطال عبادتها، ونفي نفعها أو ضرها، ووجوب إفراد الله بالعبادة، ولكن ربما كان في سبِّها تخذيل وتوهين للشرك، وإذلال لأهله، ووُجد ما يدعو إلى ترك ذلك، لئلا يؤول إلى مفسدة أعظم من تلك المصلحة.

ويشبه هذا الاستدلال في منزعه الحديث الصحيح: «من

الكبائر شتمُ الرجل والدَيه». قالوا: يا رسولَ الله، هل يشتمُ الرجلُ والديه؟ قال: «نعم، يَسُبُّ أبا الرجل، فيَسُبُّ أباه، ويَسُبُّ أمَّه، فيَسُبُّ أمَّه»[1]. ففسَّر ذلك بأن يسبَّ أبا رجل آخر فيقتص منه بسبِّ أبيه..

٤ ـ ومن السنَّة قصة ترك الكعبة على ما هي عليه، وعدم إعادة بنائها على قواعد إبراهيم؛ خشية أن تنكر قلوب قوم حديثي عهد بجاهلية وشرك[2].

وقد بوَّب البخاري على الحديث في «كتاب العلم»: «باب مَن تركَ بعضَ الاختيار مخافةَ أن يَقْصُرَ فهمُ بعض الناس عنه، فيقعوا في أشدَّ منه».

والتعبير بـ: «الاختيار» يوحي بأن البخاري يستدل من الحديث على ترك بعض المسائل التي فيها خيار ومندوحة، وكأن القاعدة تعمل في حال دون حال.

٥ ـ ومنها ترك النبي ﷺ قتل المنافقين لئلا يتحدَّثُ الناسُ أن محمدًا يقتلُ أصحابهُ[3]، وفي ذلك مراعاة السياسية الشرعية في قطع دابر قالة السوء عن التطبيق الشرعي؛ علمًا أن النبيَّ ﷺ أقام الحدود على بعض أصحابه، وقد يُخشى أن يقول فيها الناس ما يُخشى أن يقولوه في شأن قتل المنافقين، فيحتاج إلى تأمّل الفرق بين هذا وهذا.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٧٣)، ومسلم (٩٠) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) كما في «صحيح البخاري» (١٢٦، ١٥٨٦)، و«صحيح مسلم» (١٣٣٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) كما في حديث جابر رضي الله عنه. أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤).

٦ ـ قصة بول الأعرابي في المسجد، وفيها نهى النبي ﷺ أصحابه عن زجره ومنعه؛ مراعاة للعواقب على الفاعل، وعلى المكان.. ثم علَّمه النبيُّ ﷺ بعدُ ما يتوجَّب عليه مراعاته بلطف[١].

وفي هذا درس للدعاة والمربِّين والغيورين ألَّا يحملهم الأمر على تجاوز الحد أو تعنيف المخطئ، أو الانفعال الذي يفضي إلى التنفير، وانصراف القلوب!

ومنها أدلة سد الذرائع التي يسوقها الأصوليون وهي كثيرة ومعروفة.

ومنها أدلة رفع الحرج والتوسعة في الشريعة وهي كذلك.

وعليها عمل الأئمة والمجتهدين، كما يشير الشاطبي بقوله: «الأدلة الشرعية والاستقراء التام أن المآلات معتبرة في أصل المشروعية»[٢].

واجتهادات الخلفاء والأئمة المدونة في التراث الفقهي والأصولي هي سند قوي لهذه القاعدة؛ كما في تقرير أصول المصالح المرسلة، والاستحسان، والعرف، وعمل أهل المدينة، ومراعاة المقاصد، وهذا أحد أسباب اختلاف الأئمة في مسائل منصوصة وتعبديّة فضلًا عن غيرها.

كما هو أحد أسباب تفاوت الاجتهاد عند الإمام الواحد؛

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (٦٠٢٥)، و«صحيح مسلم» (٢٨٤، ٢٨٥)، من حديث أنس ﷺ.

(٢) ينظر: «الموافقات» (١٧٩/٥).

كما لدى الشافعي، أو في المذهب الواحد؛ كما لدى الحنفيَّة.

ومما يُعزِّز أهمية هذا النظر في الشريعة: أن الأحكام جاءت متدرِّجة ولم تنزل جملة واحدة؛ كما في مسألة تحريم الخمر، ومسألة كفّ اليد، ثم الإذن بالدفاع، ثم الأمر بالجهاد، ومسائل معاملة المخالفين عامة، كأهل الكتاب، والمشركين، والمنافقين، والأحوال التي مرت بها في التطبيق النبوي، حيث لم تكن على صفة واحدة، بل تفاوتت ما بين مكة والمدينة، وفي المدينة ما بين أول العهد وآخره، مما لا يعد نسخًا للحكم، ولكنه تنويع بحسب المتغيرات، ومستجدات الأحوال.. حسب تفصيله، ومسألة التدرُّج في دعوة المستجدين؛ كما في قصة معاذ ابن جبل رضي الله عنه في «الصحيحين»: **«إنك تَقْدَمُ على قوم أهل كتاب، فليكنْ أولَ ما تدعوهم إليه: عبادةُ الله عز وجل، فإذا عرفوا اللهَ، فأخبرهم أن اللهَ فرضَ عليهم خمسَ صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا، فأخبرهم أن اللهَ قد فرضَ عليهم زكاةً، تُؤخذُ من أغنيائهم، فتُرَدُّ على فقرائهم، فإذا أطاعوا بها، فخذْ منهم، وتَوَقَّ كرائمَ أموالهم»**[١].

فإن الظروف الذي مرت بها الفترة النبوية عبر (٢٣ سنة) هي أمر يتكرر في المعهود البشري، والتدرُّج مؤذن بأن على الفقيه أو الداعية أن يراعي الاعتبار الذي أراده رب العالمين من تنزيل القرآن منجّمًا، كما قال سبحانه: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٥٨، ٧٣٧٢)، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]، فالمكث لا يعني مجرد منح الفرصة للحفظ والاستظهار، بل يعني نزوله منجَّمًا بحسب الوقائع والأحوال والمتغيرات، ما بين القوة والضعف، والكثرة والقلة، والغنى والفقر، والاجتماع والتفرُّق، والأمن والخوف..

ومما يُعزِّز ذلك أن أكثر الأحكام المقصودة هي أحكام كليَّة عامة تتسع لعددٍ من النماذج والتطبيقات؛ لأن الأمر فيها غير محدَّد، ولا هو تعبدي محض، بل هو متروك للخبرة والمحاولة، كمسألة الشورى وطريقة إمضائها وإنفاذها ومدى الاستفادة من التجارب الإنسانية، ومن التطور الإداري في إعمالها.

عدد من هذه الأحكام ـ وهي غالبًا في مجال الحياة الإنسانية، والعادات والمصالح العامة ـ قد يجرى على أكثر من وجه؛ فيكون واجبًا تارة، ومستحبًا أخرى، ومكروهًا أو محرَّمًا في حالات؛ وهو ما يقول الفقهاء إنه تجري فيه الأحكام الخمسة أو بعضها، وفي هذا يقول الشاطبي: «إنا وجدنا الشارع قاصدًا لمصالح العباد، والأحكام العادية تدور معه حيثما دار، فنرى الشيء الواحد يُمنع في حال لا تكون فيه مصلحة، فإذا كان فيه مصلحة جاز»(١).

وذلك بحسب طروء العوارض والملابسات الظرفية، ولا بأس من اعتبار الخلاف الفقهي في المسالة نوعًا من التخيير، فكلها اجتهادات تنبثق من الشريعة، ومرجعها الكتاب والسنة،

---

(١) ينظر: «الموافقات» (٢/ ٥٢٠).

وقد يترجَّح في عصر وظرف ما لم يكن راجحًا في غيره؛ إما لتطور المعرفة الإنسانية وكثرة الفتوح، أو لعموم البلوى بأوضاع لا مخلص منها، أو لظهور المصلحة ورجحانها أو بغير ذلك من العوامل المؤثرة، وأمثلة ذلك كثيرة.



ثالثًا:
في فقه التغيير

ثمة متوالية حسابية ساذجة يردِّدها كثيرون، حثًّا لغيرهم على الدعوة والإصلاح، وتثمينًا للجهد والعمل الفردي الذي يقوم به الداعية والمربِّي.

تقول: أنت تدعو شخصًا واحدًا، والواحد يصبح اثنين، ثم أربعة..

وهكذا حتى تشمل الدعوة كل أفراد المجتمع.

إن فكرة إقناع الآخرين بتقديم ما لديهم، ولو كان يسيرًا محدودًا، هي بالتأكيد فكرة صحيحة، منسجمة مع العدل الشرعي الذي يطالب الإنسان بقدر ما لديه.

وفي الإرشاد النبوي قال: «**بلغوا عني ولو آية**»[1].

والظاهر أن المقصود آية من القرآن ولو قصرت، وفهم ابن حبان منها معنى الحكم أو الحجة، فجعلها شاملة لتبليغ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦١) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

القرآن والسنة[1]، وهو فهم جيد فلم يجعل النبي ﷺ مهمة البلاغ محصورة في العلماء المتمكنين، ولا في الحفظة المكثرين.

وفيما يتعلق بالحديث النبوي الشريف تخصيصًا، فقد دعا النبي ﷺ لمَن سمع مقالته ووعاها، وبلَّغها لمَن لم يسمعها، فقال في الحديث الذي رواه جماعة من الصحابة ﷺ: **«نضَّر الله أمرأً سمعَ مقالتي فوعاها، فبلَّغها كما سمعها، فرُبَّ مبلَّغ أوعَى من سامع»**[2].

إذًا نحن متفقون على الدعوة إلى الإيجابية والمشاركة والعطاء، ولو بالقليل، فإن السيل من نقط.

وها هنا معادلة صعبة يلجأ إليها الذين يتهربون من أداء واجباتهم، ويحتجون بأن العمل اليسير الذي يستطيعونه غير ذي جدوى، وأن الموقف يتطلب عملًا إيجابيًّا ضخمًا يغير موازين القوى، وهذا ما ليس بمقدورهم.

وهكذا نضيع بين مجهود ممكن، ولكنه - في نظرهم - غير مؤثِّر، وبين عمل مؤثِّر، ولكنه غير ممكن، ونستطيع هنا أن نقبض على (مهرب نفسي) أو لون من الخداع الذي نحرر به أنفسنا من التبعة، لنقع في قبضة الأوهام والحيل النفسية.

إن تصور مجهودك المتواضع، وهو يضاف إلى مجهودات الملايين المتواضعة أيضًا يمكن أن يعدل الميزان.

---

(١) ينظر: «صحيح ابن حبان» (١٤/١٤٩).

(٢) أخرجه أحمد (١٣٣٥٠، ١٦٧٣٨، ١٦٧٥٤)، وأبو داود (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٨)، وابن ماجه (٢٣٠، ٢٣١)، والحاكم (١/٨٦ ـ ٨٨) عن جماعة من الصحابة ﷺ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٤٠٤).

وإن تحريك الفاعلية والإنتاجية في شخصية الإنسان المسلم حجر الزاوية في عملية التغيير المنشود، وهي مما يؤرق بال الغيورين، ويدعوهم إلى التفكير الجاد في البحث عن وسائل شحذ العزائم، وتحريك الهمم، وإيجاد الآليات التي تُعطى للفرد ـ أيًا كان مستواه ـ ودوره المنشود.

وللإخوة الذين يحلمون بالتغيير، من دون أن يمتلكوا التصور السليم عن كيفية حدوثه، أن يتأملوا كيف يعجز الواحد منا عن تغيير طبع سيئ فيه، أو عادة غير حميدة مع أهله، أو مع أصدقائه أو مع نفسه.

فكيف يطمح إلى التغيير العالمي من يعجز عن هز طاولة صغيرة أمامه؟

والأمور تُقاس بأشباهها..

﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾: هذا جزء من آية كريمة وردت بالنص ذاته في موضعين:

الأول: في «سورة الأنفال»، وهي في مساق التغيير من الجيد إلى الرديء: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [٥٣].

والثاني: في «سورة الرعد»، حيث ذكر المعقِّبات قبل هذه الآية، وذكر بعدها قوله: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [١١].

قال المفسرون: إن الله لا يسلب قومًا نعمه حتى يغيروا ما بأنفسهم، فيعملوا بمعصيته[١].

---

(١) ينظر تفسير الآية في «تفسير الطبري»، و«الدر المنثور».

ومن دون شك فإنه إذا كان التحول السلبي يتم وفق قاعدة تغيير ما بالنفوس فإن التغيير الإيجابي يكون كذلك من باب أولى.

ولعل في توافق الآيتين على ذكر التغيير نحو النقص إشارة إلى أنه أسهل وأكثر حدوثًا في تاريخ البشر.

ومن هنا أطلق المفكِّر الجزائري الشهير: (مالك بن نبي) مقولته: أن التاريخ يخضع لقانون النفوس.

إن كثيرًا من المسلمين، بل من خاصتهم، يرددون هذه الآية الكريمة تبركًا بكلام الله تعالى، وأنسًا به، لكنهم يعطلون المفعول الاجتماعي والسنني لها.

ولقد شهد تاريخ المسلمين حركات تصحيحية كثيرةً، وطرحت مشاريع للتغيير والنهضة منذ المئة الثانية، وإلى اليوم، بعضها يعتمد الإصلاح السياسي، وبعضها يعتمد الإصلاح العلمي، وبعضها يعتمد الإصلاح التربوي والاجتماعي، وكل ذلك داخل الإطار المرجعي الإسلامي.

كما شهدت مجتمعات المسلمين في العصور المتأخرة أنماطًا من المشاريع التغييرية الطارئة عليها البعيدة عن تاريخها، كالمشروع الاشتراكي، والمشروع العلماني، والمشروع القومي.

وهذه الحركات التصحيحية، وتلك المشاريع التغييرية قد تكون أحدثت أثرًا ما، بل لا بد من أنها أحدثت أثرًا ما.. لكن تظل دائمًا دون مستوى طموحاتها وتطلعاتها.

فهل المسألة تعود إلى خلل في أطروحاتها العلمية والعملية؟

هذا ممكن بالنسبة إلى المشاريع الغريبة عن دين الأمة

وتاريخها وثقافتها؛ لأنها تحاول استنبات البذور في تربة مختلفة، ومناخ متغير.

وهو ممكن أيضًا بالنسبة إلى الحركات الإصلاحية التي اعتمدت منهجًا جزئيًا، ناقصًا، فأفلحت في إصلاح جانبي كانت ترمي إليه، ولكنها لم تفلح في تغيير واقع الأمة كلها.

وفي نظري أن هذا يمثل في جانبه الآخر نجاحًا، أعني أن وجود أهداف واضحة محدَّدة قريبة، وفي حدود الممكن، ولو على المدى الطويل، ولو في جانب معين من جوانب الحياة، أو في رقعة معينة من الأرض، أو شريحة خاصة من الأمة.. ثم تحقيق هذه الأهداف.. هو نجاح ظاهر؛ لأن مرحلية التاريخ لا تطاوع طموحات الناس وتطلعاتهم، ولأن المؤثرات متناقضة وفعالة في الوقت نفسه، فأنت تبني وغيرك يهدم... وهنا نسأل: متى يبلغ البنيان يومًا تمامه..؟

لكن دعونا نتأمل المشاريع الشمولية الصادقة علميًّا، والمبرمجة عمليًّا...

لنرى أنها وقفت دون أهدافها، واكتفت باستبطان هذه الأهداف وجدانيًّا، أو تحريك المشاعر بصوغ العبارات الجميلة، وإزجاء الوعود العذبة.

هذا لا ينفي أبدًا أنها حققت أهدافًا أخرى جانبية، تعليمية، أو إنسانية، أو اجتماعية.

أظن أن المشكلة هنا ليست في الأطروحة التغييرية، بقدر ما تكمن في عدم قابلية الأمة لمضمونها، وفاقد الشيء لا يعطيه.

الذين يطرحون مشروع الوحدة سيجدون أن الأمة منذ قرون متطاولة منقسمة على نفسها انقسامًا يصعب ردمه، وهي تختلف بشدة حول مشروع الوحدة!

والذين يطرحون مشروع التغيير الجهادي يجدون أنفسهم أحيانًا في مواجهة الأمة، وأن سهامهم قد صوبت إلى نحورها.

وهكذا..

فكي يحقق العلاج أثره لا بد من أن يكون الجسم متقبلًا والمزاج صالحًا، وإلا فيكون الأثر بحسب ذلك.

وبحسب ذلك يمكن أن تكون المشاريع الشمولية تطلعًا مثاليًا لا يلامس الواقع، لأن الجسم الذي تتكيء عليه في تحقيقها واهن رخو..

ولذلك صح عن النبي ﷺ أن رحى الإسلام تدور لخمس وثلاثين سنة(١)..

وصح عنه أن الخلافة بعده ثلاثون سنة(٢)..

وصح عنه أنه لا يزال دينهم عزيزًا إلى اثني عشر خليفة(٣)..

---

(١) ينظر: «مسند الطيالسي» (٣٨٣)، و«مسند أحمد» (٣٧٠٧)، و«سنن أبي داود» (٤٢٥٤)، و«صحيح ابن حبان» (٦٦٦٤)، و«المستدرك» (٣/ ١٠١).

(٢) ينظر: «مسند الطيالسي» (١٢٠٣)، و«مسند أحمد» (٢١٩١٩)، و«جامع الترمذي» (٢٢٢٦)، و«صحيح ابن حبان» (٦٦٥٧)، و«المنتخب من علل الخلال» (١٢٩)، و«السلسلة الصحيحة» (٤٥٩).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٧٢٢٢)، و«صحيح مسلم» (١٨٢٢).

وصح عنه أن الباب يُكسر، فلا يغلق أبدًا[1].. في طائفة ضخمة من النبوءات الصادقة التي من شأنها أن تشكِّل عزاء.. أي عزاء[2].

ولذا فإن إفراط المركزية حول التغيير السياسي الشامل ربما أضعف من فاعلية الخطاب الإسلامي من جوانبه الأخرى، الدعوية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية، وشكل وطأة يصعب تحقيقها، ويصعب الخلاص منها.

وإن يكن هذا الإفراط في المركزية ـ ربما ـ وجهًا آخر للانعزالية الصوفية التي تنأى بالناس عن واقعهم ومجريات حياتهم، وتأخذهم في المثل بعيدًا بعيدًا.

في حين أنك تجد في شأن الدعوة والإصلاح، ومقاومة عوامل التيه والانحلال في الأمة نصوصًا أخرى تؤكِّد بقاء ذلك وديمومته، كما في روايات الطائفة المنصورة المتواترة.

وهذا المعلم المهم في السنة النبوية يلهم المتأمل نظرة عملية واقعية لا تحلّق في الخيال العصي على التحقيق، ولا تركن إلى الدَّعَة واليأس والإحباط، بل هي بين ذلك قوامًا.

وثمة برامج كثيرة تنتهي من حيث بدأت، وهي ترفع شعار إعادة اللحمة الإسلامية، والحياة الإسلامية إلى الأمة كلها، وربما تنظر من خلال شمولية الغاية إلى المشاريع الجزئية نظرة دونية.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٥٢٥، ١٤٣٥، ١٨٩٥، ٣٥٨٦، ٧٠٩٦)، و«صحيح مسلم» (١٤٤).

(٢) ينظر: «الغرباء» للمؤلف.

وهنا تصدق المقولة التي مفادها أن أصحاب المشاريع التغييرية قد لا يصنعون شيئًا، في حين أن مَن لا يحملون أي مشروع هم مَن يحدثون التغيير الحقيقي في المجتمع، ولو كان بطيئًا.

والشيء الغريب أنه على الرغم من الطُّموح إلى التغيير الشمولي إلا أنه يبدأ عادة من خارج النفس في أغلبية المشاريع الإصلاحية، حيث اعتاد الناس على تسليط الأضواء على ما حولهم.

في حين أن النص القرآني المحكم يرشد إلى أن البداية الصادقة الجادة يجب أن تكون من داخل النفس والمفترض أن يسعى المرء في صلاح نفسه أولًا، ثم يسعى في صلاح نفوس الآخرين ثانيًا، ليكون ذلك سبيلًا إلى تغيير ما بنا، كما نصت الآية.

فالإصلاح يبدأ من داخل النفس، ليمتد إلى المحيط حولها، أما عند كثير من الناس، فالإصلاح يستهدف المحيط دون أن يلامس النفس.

ولا يزال الشعور بالعزة التاريخية والمجد الأثيل يحول دون فهم الأولويات، وترتيبها، وضبطها.

قضية التغيير قضية شائكة، وعويصة، ولكن هذا لا يعني عدم طرقها أو الخوض فيها.

والمشكلة التي تتكرر تاريخيًا أن بعض الغيورين والصالحين قد يغلبهم ما يجدون من الحماسة لدينهم والغيرة على دعوتهم والرغبة في الإصلاح، فيندفعون مع الإخلال بشروط التمكين،

فيهلكون ويُهلكون، وقد أشار إلى هذه الفكرة ابن خلدون في «مقدمته»، إشارة الخبير العارف بأحوال الأمم، وسنن التغيير حيث يقول: «ومن هذا الباب أحوال الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء، فإن كثيرًا من المنتحلين للعبادة وسلوك طرق الدين يذهبون إلى القيام على أهل الجور من الأمراء داعين إلى تغيير المنكر والنهي عنه، والأمر بالمعروف رجاء في الثواب عليه من الله؛ فيكثر أتباعهم والمتشبثون بهم من الغوغاء والدهماء، ويعرضون أنفسهم في ذلك للمهالك، وأكثرهم يهلكون في تلك السبيل مأزورين غير مأجورين، لأن الله سبحانه لم يكتب ذلك عليهم، وإنما أمر به حيث تكون القدرة عليه؛ قال ﷺ: **«مَن رأى منكم منكرًا فليغيِّره بيده، فإن لم يستطعْ فبلسانه فإن لم يستطعْ فبقلبه»**[1].

وأحوال الملوك والدول راسخة قوية لا يزحزحها ويهدم بناءها إلا المطالبة القوية التي من ورائها عصبية القبائل والعشائر كما قدمناه.

وهكذا كان حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم إلى الله بالعشائر والعصائب، وهم المؤيدون من الله بالكون كله لو شاء؛ لكنه إنما أجرى الأمور على مستقر العادة والله حكيم عليم.

فإذا ذهب أحد من الناس هذا المذهب وكان فيه محقًّا قصَّر به الانفراد عن العصبية، فطاح في هوة الهلاك، وأمَّا إن كان من الملبسين بذلك في طلب الرئاسة، فأجدر أن تعوقه العوائق،

(١) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد ﷺ.

وتنقطع به المهالك؛ لأنه أمر الله لا يتم إلا برضاه وإعانته، والإخلاص له، والنصيحة للمسلمين؛ ولا يشك في ذلك مسلم، ولا يرتاب فيه ذو بصيرة»[1].

وهذا ما جرى فعلًا في عدد من التجارب الإسلامية المعاصرة، التي نظرت إلى ما معها من الحق، وما لديها من القوة، ولكنها لم تنظر إلى ما يواجهها وينتظرها، وما مع الآخرين وما لديهم، فاصطدمت بصخرة الواقع الثقيل الذي يصعب تغييره على غير المتمرسين الصبورين.

هذا فضلًا عن أن سنة التغيير نفسها تحتاج إلى سبر ومعرفة من خلال نصوص القرآن الكريم، والسنة النبوية، وعبر التاريخ وتجاربه وأحداثه.

إن العناية بجانب واحد فحسب، واعتبار أن تغييره هو الحل، كتغيير الحاكم مثلًا، هو تقصير في النظر واختزال للمسألة، وإلغاء للمجتمع بأبعاده المختلفة، فالإصلاح يتطلب تصورًا شموليًّا يستهدف تربية الأمة بكل جوانبها على الإسلام وقيمه وأحكامه، وإعداد الكوادر العلمية المتنوعة في ميادين الحياة كلها، وممارسة التجارب العملية التي هي محك لكثير من الأفكار النظرية المجردة.

نعم، مسؤولية الحاكم خاصة وثقيلة، وليست تقارن بمسؤولية وتبعة آحاد الناس، لكن ثمة قوى ووسائل وتشابكات يراعيها كل أحد حتى الحاكم نفسه، لا بد من أن يضعها في اعتباره؛ ليحسن التعامل معها.

---

(١) ينظر: «تاريخ ابن خلدون» (١/ ٢٨٠ ـ ٢٨١).

والشرع وإن جاء بأصول وأحكام محدَّدة واضحة، إلا أنه راعى في تحويلها إلى صورتها العملية اعتبارات الواقع وظروفه وإمكانياته، ومن ذلك أن جميع الأحكام الشرعية مرهونة بالاستطاعة، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

وكما في السنة «.. **فمَن لم يستطع..**»[1]. و«**صلِّ قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا**»[2].

والاستطاعة تكون للفرد وللجماعة، وتحديد مدى وجودها من عدمه يخضع لاعتبارات كثيرة، ويعتمد على الرؤية الشاملة، والفهم الثاقب، وإدراك متطلبات الموقف، والفعل والفعل المضاد.

وبالعجز تسقط جميع الواجبات، كما هو مقرر في موضعه من كلام العلماء.

لكن يبقى وجوب السعي لتدارك هذا العجز، وعدم الركون إليه، وفرضٌ على الأمة أن تسعى في رفع كفاءتها وقدرتها العلمية والعملية، والمستحيل لا وجود له إلا في عقول العاجزين، كما يقول بعض الحكماء.

فليس المقصود بالعجز هنا فلسفة تبرير الضعف والقعود والإخلاد، لكن المقصود عدم الاستطاعة الذي ينتقل به المرء أو

(١) كما في حديث أبي سعيد ﷺ المتقدم.

(٢) كما في حديث عمران بن حُصين ﷺ، أخرجه البخاري (١١١٧).

الجماعة أو الأمة من واجب إلى واجب آخر، وليس إلى القعود والاستسلام لليأس.

وهناك قاعدة المصلحة والمفسدة الشرعية، وفروع هذه القاعدة كثيرة، وهي من القواعد المهمة في حياة المسلمين العملية، ويقع الخلط واللبس فيها كثيرًا، بسبب سوء فهم القاعدة أو سوء فهم الواقع.

والشرع جاء بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإذا تعارضت مصلحتان اختير أعلاهما، وإذا تعارضت مفسدتان دفع أعلاهما، وإذا تعارض تحصيل مصلحة أو دفع مفسدة قدم دفع المفسدة عند التساوي، وعند رجحان الدفع، وإلا رجح جلب المصلحة... وهكذا.

وبناءً على هذه القواعد السابقة وغيرها، جعل الشرع للأحكام العامة مراحل متعددة، كالجهاد مثلًا، تارة يكون فرض عين، وتارة يكون فرض كفاية، وتارة يكون مأذونًا، ويكون ممنوعًا محرمًا تارة أخرى، إذا أفضى إلى مفسدة أعظم، ويكون باليد، ويكون باللسان، ويكون بالقلب، بحسب المقدرة العامة والخاصة.

هكذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يكون باليد، ويكون باللسان ويكون بالقلب، وهذا مرهون بالاستطاعة، كما في حديث أبي سعيد، وهو في صحيح مسلم، ومرهون بتحقيق المصلحة، فلو كان مستطيعًا، ولكنه علم وقرر أن في فعله مفسدة أعظم كان حرامًا، ولهذا قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى: ٩].

وهذه المسائل وتطبيقاتها الواقعية تحتاج إلى علم بالشرع ومعرفة بالواقع، كما ذكره ابن تيمية في فتواه عن المسألة التترية وتحتاج إلى كمال إخلاص، وتجرد من الهوى، وحظوظ النفس، ومن التقليد للنفس أو للغير، ولا يحسن أن يتحول الحوار حولها إلى نوع من التنابز بالألقاب، والتراشق بالتهم، فهذا يتهم هذا بالتهور الأرعن، أو بطلب الدنيا، وهذا يتهم هذا بالتخاذل أو بالجبن أو بالخور، أو بطلب الدنيا أيضًا!

بل ينبغي إيثار حسن الظن بالآخرين في نياتهم واجتهاداتهم، وحملها على أحسن المحامل، وهذا لا يلزم منه تصويبهم فيما يرى أنهم أخطؤوا فيه، فالحق فوق الجميع، وقد قال بعض الأئمة: فلان عزيز، والحق أعز منه.

ويجب دراسة هذه التجارب وغيرها من تجارب الدعوة المعاصرة، وغير المعاصرة بموضوعية وإنصاف، وتجرد تام لا يحمل فيه الشنآن على الظلم والحيف: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، وقبلها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨]. فتتحوَّل المحاسن إلى عيوب.

إذا محاسنيَ اللائي أُدِلُّ بها   كانت ذنوبي فقُل لي: كيف أعتذرُ؟[1]

ولا تغدو الدعوة إلى التوحيد في نظر المخاصم فتنة وكفرًا

---

(١) ينظر: «المصون في الأدب» لأبي أحمد العسكري (ص٧٥)، و«الموازنة بين أبي تمام والبحتري» (٢/ ٢٥٩)، و«محاضرات الأدباء» (١/ ٢٩٦).

بالأولياء، وجحودًا للفضل، ولا تغدو دعوة الآخرين إلى المراجعة والتصحيح نوعًا من التشفي والانتقام.

وهكذا لا يحمل الحب والولاء على العمى عن رؤيته الأخطاء والعيوب، وقد يتحدث المحب المشغوف عن النقد الذاتي والمراجعة والتصحيح، ولكن لا يسمح له تعاقده الولائي الراسخ بأن يتجاوز الخطوط الحمراء، وهذا من البدهيات الواضحة التي يدركها العقلاء.

ويبدو ـ والله أعلم ـ أن الإنصاف والتجرد في مثل هذه المواقف يكاد أن يكون مستحيلًا، لولا أننا قررنا قبل قليل أن المستحيل لا وجود له إلا في أذهان العاجزين، ولقد وصف الله الإنسان بأنه كان ظلومًا جهولًا.

نسأل الله أن يعين المسلمين على أنفسهم، ويبصرهم بمواطن ضعفهم، ويوفقهم لاستدراكها قبل فوات الأوان، والله أعلم.



ملحق

مراسلات خاصة



راغب في الخروج للجهاد

السؤال:

فضيلة الشيخ: أنا أريد الذهاب إلى الجهاد، ولكن لا أعرِف كيف أقنِع والديَّ، وأجعلهما يوافقان، علمًا أنني أبلغ من العمر خمسة عشر عامًا، فما الوسائل التي تجعل والديَّ يوافقان على ذهابي إلى الجهاد في سبيل الله؟

الجواب:

أرى أن عليك الانتظار وعدم العجلة، فإلى أين يذهب شابٌّ في الخامسة عشرة من عمره؟!

مِن حقِّ والديك عليك أن تبقى عندهم؛ فأنت قرَّة عيونهم وفلذة كبدهم، ولا طعم لحياتهم بدونك، قال ﷺ: **«ففيهما فجاهد»**[1].

وقال لآخر: **«ارجع فأضحكهما كما أبكيتهما»**[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٤)، ومسلم (٢٥٤٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد (٦٤٩٠)، وأبو داود (٢٥٢٨)، والنسائي (٤١٦٣)، وابن ماجه (٢٧٨٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

وقد ورد في أهل الأعراف أنهم قوم جاهدوا في سبيل الله بغير إذن آبائهم[1]؛ فواصِل دراستك، واجتهد في طلب العلم، وبرَّ والديك، وأحسن إليهما، وأمامك مشوار طويل. كان الله معك.



(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٢/ ١٦٢)، و«تفسير ابن كثير» (٢/ ٢١٧)، و«الدر المنثور» (٣/ ٤٦٥).

درجة حديث: «إذا رأيتم الرايات السُّود...»

السؤال:

حديث: **«إذا أقبلت الرايات السُّود من قبل المشرق»**؛ هل هو صحيح؛ فإن بعض الشباب اليوم يردِّدونه لغرض أو لآخر؟

الجواب:

الحديث رواه أحمد قال: حدَّثنا وكيع، عن شَرِيك، عن علي بن زيد، عن أبي قِلابة، عن ثَوْبان ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«إذا رأيتم الراياتِ السُّودَ قد جاءت من خُراسان فأتوها، فإن فيها خليفةَ اللهِ المهديَ»**[1].

والحديث إسناده ضعيف، فيه شَريك بن عبد الله القاضي، سيئ الحفظ، وفيه علي بن زيد بن جُدْعان، وهو ضعيف، وأبو قِلابة لم يسمع من ثَوْبان ﷺ.

وأخرجه ابن ماجه، والحاكم من طريق خالد الحذَّاء، عن أبي قِلابة، عن أبي أسماء، عن ثَوْبان ﷺ[2]، فزاد

(١) ينظر: «مسند أحمد» (٢٢٤٤١).

(٢) ينظر: «سنن ابن ماجه» (٤٠٨٤)، و«المستدرك» (٤/٥٤٧).

خالد: «أبا أسماء» في إسناده، فصار ظاهره الاتصال.

والحديث رجاله ثقات، إلا أن له علةً، ولذلك ضعَّفه إسماعيل بن إبراهيم ابن عُلية من طريق خالد الحذَّاء، وأقرَّه الإمام أحمد، كما في «المنتخب من العلل» للخلال، و«العلل» لعبد الله بن أحمد، قال عبد الله: «حدَّثني أبي قال: قيل لإسماعيل ابن عُلية في هذا الحديث، فقال: كان خالد يرويه، فلم يلتفت إليه، ضعَّف إسماعيل أمره. يعني: حديث خالد، عن أبي قلابة، عن أبي أسماء، عن ثوبان ﷺ عن النبي ﷺ في الرايات»[1].

وعلته عند الألباني: عنعنة أبي قِلابة؛ فإنه مدلِّس.

هذا فيما يتعلق برواية ثوبان ﷺ.

وله شاهد من حديث ابن مسعود ﷺ: أخرجه ابن أبي شيبة، وابن ماجه، وابن عدي في «الكامل» من طريق يزيد بن أبي زياد، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله ﷺ قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ أقبل فتية من بني هاشم، فلما رآهم النبي ﷺ اغرورقت عيناه وتغيَّر لونه، قال: فقلتُ: ما نزال نرى في وجهك شيئًا نكرهه؟ فقال: **«إنَّا أهلَ بيتٍ اختار اللهُ لنا الآخرةَ على الدنيا، وإنَّ أهلَ بيتي سيلقون بعدِي بلاءً وتشريدًا وتطريدًا، حتى يأتيَ قومٌ من قِبَلَ المشرِقِ، معهم راياتٌ سودٌ، فيسألون الخيرَ فلا يعطونَه، فيقاتلون فيُنْصَرون، فيُعْطَون ما سألوا، فلا**

(١) ينظر: «العلل» لعبد الله بن أحمد (٢٤٤٣)، و«المنتخب من العلل للخلال» (١٧٠).

يقبلونه حتى يدفعوها إلى رجل من أهل بيتي، فيملؤها قسطًا كما ملؤوها جورًا، فمَن أدرك ذلك منكم فليأتهم، ولو حبوًا على الثلج»[1].

قال ابن عدي: «لا أعلم يرويه بهذا الإسناد عن إبراهيم غير يزيد بن أبي زياد».

وهذا إسناد ضعيف جدًّا؛ في إسناده: يزيد بن أبي زياد، قال فيه أبو زرعة: «ليِّن يُكتَب حديثه، ولا يُحتَج به». وقال أبو حاتم الرازي: «ليس بالقوي». وقال ابن عدي: «يُكتَب حديثه مع ضعفه».

وقد ضعَّفه الإمام أحمد، فقال في «العلل» رواية ابنه عبد الله: «حديث إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله ليس بشيء. يعني: حديث يزيد بن أبي زياد»[2].

وقال وكيع: «يزيد بن أبي زياد، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله رضي الله عنه: حديث «الرايات» ليس بشيء»[3].

وروى هذا العقيلي في «الضعفاء» عن عبد الله بن أحمد، وقال: «قلتُ لعبد الله: الرايات السود؟ قال: «نعم». ثم روى بإسناده إلى أبي أسامة أنه قال: «لو حلف ـ يعني: يزيد ابن أبي زياد ـ عندي خمسين يمينًا قَسَامة ما صَدَّقته، أهذا مذهب إبراهيم؟ أهذا مذهب علقمة؟ أهذا مذهب عبد الله؟»[4].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٧٧٢٧)، وابن ماجه (٤٠٨٢)، وابن عدي (٧/ ٢٧٥).

(٢) ينظر: «العلل» لعبد الله بن أحمد (٥٩٨٥).

(٣) ينظر: «تهذيب التهذيب» (١١/ ٢٨٨).

(٤) ينظر: «الضعفاء» للعقيلي (٤/ ٣٨٠).

وقال البوصيري: «لم ينفرد به يزيد بن أبي زياد، فقد رواه الحاكم في «المستدرك» من طريق عمرو بن قيس، عن الحكم، عن إبراهيم»[١].

قلت: هذا الطريق أشد ضعفًا من سابقه، والحقُّ أن الحاكم لم يخرجه من هذا الطريق، وإنما أخرجه من طريق حنان ابن سدير، عن عمرو بن قيس الملائي، عن علقمة بن قيس وعَبِيدة السَّلْماني، عن عبد الله بن مسعود ﷺ، قال: أتينا رسول الله ﷺ، فخرج إلينا مستبشرًا يُعْرَف السرور في وجهه، فما سألناه عن شيء إلا أخبرنا به، ولا سكتنا إلا ابتدأنا، حتى مرَّت فتية من بني هاشم فيهم الحسن والحسين، فلما رآهم التزمهم وانهملت عيناه، فقلنا: يا رسولَ الله، ما نزال نرى في وجهك شيئًا نكرهه؟ فقال: **«إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا، وإنه سيلقى أهلُ بيتي من بعدي تطريدًا وتشريدًا في البلاد حتى ترتفع راياتٌ سودٌ من المشرق، فيسألون الحق فلا يعطونه، ثم يسألونه فلا يعطونه، ثم يسألونه فلا يعطونه، فيقاتلون، فيُنْصَرون، فمَن أدركه منكم أو مِن أعقابكم فليأتِ إمام أهل بيتي، ولو حبوًا على الثلج؛ فإنها راياتُ هُدى يدفعونه إلى رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي، فيملك الأرض فيملأها قسطًا وعدلًا كما مُلِئت جورًا وظلمًا»**[٢].

وفي إسناده: حنان بن سَدير، قال الدارقطني في «المؤتلف والمختلف»: «من شيوخ الشيعة». وقال الذهبي: «موضوع».

---

(١) ينظر: «مصباح الزجاجة» (٤/ ٢٠٣).

(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ٥١١).

فلعل الذهبي رأى أن هذا الشيعي سرقه من حديث يزيد ابن أبي زياد.

ورواه ابن الجوزي في «الموضوعات» من طريق حنان ابن سَدير، عن عمرو بن قيس، عن الحسن، عن عَبِيدة، عن عبد الله بن مسعود ﷺ، ثم قال: «هذا حديث لا أصل له، ولا نعلم أن الحسن سمع من عبيدة، ولا أن عمْرًا سمع من الحسن. قال يحيى: عمرو لا شيء»[1].

فجعل حنان شيخه هنا الحسن، بدلًا من علقمة وعَبِيدة السَّلْماني، كما في إسناد الحاكم، وهذا من تخليطه، والله أعلم.

فالحديث لا يثبت لا من طريق ثوبان، ولا من طريق ابن مسعود ﷺ، والله أعلم.

وبهذا يُعلم أن التعلق بمثل هذا من التعلق بالأباطيل، ولا ينبغي لمن يحرص على دينه وذمته أن يندفع بغير بصيرة، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.



(١) ينظر: «الموضوعات» (١/ ٣٤٦).

هل الجهاد الآن فرض عين؟

السؤال:

اسمح لي يا شيخ على جرأتي قليلًا، ولكن إلى متى ونحن نسكت على هذا الضيم الذي نحن فيه.. إلى متى؟

تقول: الداء يا شيخ والمسلمون يقتلون على مرأى من الأُمَّة، ونحن لا نحرِّك ساكنًا، قُتِل محمد الدرة ـ رحمة الله عليه ـ ونحن ساكتون، ويقولون: تبرَّعوا، أي تبرُّع هذا؟! لا نريد أن نتبرَّع بالمال، ولكن نريد أن نتبرَّع بالدم.. نريد أن نتبرَّع بالروح.. آه ثم آه:

دماءُ المسلمين بكلِّ أرضٍ تُرَاقُ رخيصةً وتضيعُ غَدْرا
وليس لهم نصيرٌ أو مُعِينٌ كأنَّ الناسَ كلَّ الناسِ سَكْرى

إي والله، فالمسلمون في إندونيسيا، وفي جزر الملوك الله أعلم بحالهم.

لقد رأيت بعيني الكفار مِن النصارى يقتحمون الأبواب على المصلِّين في المساجد، ويحرقون المسجد، ثم يُخْرِجون جثث المسلمين متفحِّمة، ورأيت أيضًا التمثيل بالمسلمين، لدرجة أنهم يقطعون رأس الرجل المسلم ويلعبون به، وأفظع مِن ذلك رأيتهم

- وربي ما أقول إلا صدقًا - رأيتهم يبقرون بطون المسلمين، ويُخْرِجون أمعاءهم، ويأكلونها، - أي والله - ونحن غافلون، ونحن - لا أقول: - غافلون، ولكن أقول: متغافلون.. فإلى الله المشتكى.

يا شيخ! أسألك هل الجهاد واجب الآن؟ وإذا لم يكن واجبًا، فهل عليَّ نصر إخواني بالنفس؟ فيعلم الله أن قلبي يحترق وأنا أكتب إليك يا شيخ، فيا أبا معاذ، أسألك بربِّ الأرض والسماوات، هل الجهاد واجب؟

وأخيرًا: أنا أريد الذهاب إلى الجهاد رضي مَن رضي، وأبى مَن أبى، ولكنني أسألك يا شيخ سأذهب من دون إذن والديَّ فهل هذا يجوز؟ وإن لم يكن جائزًا فما السبب؟

الجواب:

أشكر لك كثيرًا عاطفتك الصادقة تجاه إخوانك المسلمين، ولا خير فينا إن لم ندعَمْهم في مثل هذه المواقف الحرجة.

أخي! لماذا تهوِّن مِن شأن التبرُّع بالمال، والله تعالى قدَّمه حتى على الجهاد بالنفس في غير موضع؟

إنه مهمٌّ. نعم الجهاد بالنفس عظيم، لكن الجهاد بالمال عظيم أيضًا، خصوصًا إذا لم يضلَّ طريقه.

أخي! أمَا وقد سألتني بالله، فإنني أقول: واجب على كلِّ قادر نصرة إخوانه المسلمين في كلِّ مكان، لكن لا يتعيَّن على كلِّ فرد أن يذهب بنفسه إلى الجهاد والقتال، فهناك أبواب عظيمة من الجهاد، وهي شبه مُعَطَّلة، فلماذا لا نسارع إليها؟!

هل ننتظر حتى تتحوَّل المجتمعات الإسلاميَّة إلى شيشان أو أفغانستان أو فلسطين حتى نتحرَّك للقتال في جوٍّ لا يسمح بذلك، وفي صعوبات لا يمكن مدافعتها.

لقد فكَّرت أن أكتب مئة وسيلة للدفاع عن المسلمين المضطهدين، وأشجِّع إخواني على إضافة وسائل جديدة؛ حتى لا نَدَع عذرًا لمعتذِر.

لماذا لا نُعمِل عقولَنا، ونفجِّر طاقاتنا، وننفُض الغبار عن أفكارنا، ونحطِّم أوهامنا، ونقتل التردُّد في نفوسنا؟

مرة أخرى شكرًا على رسالتك وحرارة غيرتك، وكثَّر الله في المسلمين مِن أمثالك، ونفع بك، ولا حرمنا الله من هذا الشعور المتوقِّد.



اليأس لا يصنع شيئًا

السؤال:

محطّم أكاد أصيح.. إخواني، أنقذونا من استباحة دماء المسلمين في كل مكان، هل أصبحنا كالنعام، أم ماذا؟

أصبحنا مهزومين؛ لأن المبادئ التي نحملها لا نستطيع الدفاع عنها، فلِمَ الحياة إذن؟! ماذا ننتظر.. إن الدور القادم علينا، فما عذرنا أمام الله في خذلان إخواننا المسلمين وعدم نصرتهم؟

الجواب:

نعم.. يعيش المسلمون في ذُلٍّ وضعف وهوان ربما لم يسبق له مثيل، ليس ذلك من جهة كيد عدوهم فحسب، بل من جهة شتاتهم وتناحرهم وضياعهم، وعدم قدرتهم على أداء الدور المنوط بهم أفرادًا وجماعات وشعوبًا ودولًا، والإنسان لم يختر الحياة بنفسه، فالله هو الذي اختار له ذلك: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨] لكن علينا أن نحيا في سبيل الله، ولنجرِّب على الأقل صياغة أنفسنا صياغة شرعية، وجَعْل هوانا تَبَعًا لما جاء به النبي ﷺ، ومحاولة القيام بدور ما، ليس

بالضرورة أنه سيُصلِح حال الأمة، لكن على الأقل يقنعنا بأننا نعمل شيئًا صحيحًا ومفيدًا، لكن أن يكون رجال الأمة وشبابها مجرد أناس محبطين ويائسين وقانطين، فهذا يضيف مشكلات جديدة إلى المشكلات القائمة، فهلمَّ نعمل بقَدْر وسعنا، فإن الله لا يكلِّف نفسًا إلا وسعها، وفَّقك الله.



طلب الشهادة في سبيل الله

السؤال:

لا أستطيع النوم وحال المسلمين كما ترى وتسمع، ما أدري ما أقول ولا كيف أعبِّر، أنا ـ ولله الحمد ـ في نعمة عظيمة، عندي كل شيء منزل، وأسرة صالحة ـ إن شاء الله ـ أتعهَّد أولادي بكل ما يجب عليَّ من رعاية وتربية على طاعة الله مع التقصير، ولكني ـ شيخي الفاضل ـ أتمنى لقاء الله شهيدًا، وأولادي ما زالوا صغارًا، ولا أستطيع أن أتحمَّل هذا الواقع المرير.. شجوني وهمومي تكاد تقتلني، فأرجو مِن الله أن يرحمني ويرحم أمة الإسلام، وأن يقيِّض لنا مَن يأخذ بأيدينا إلى التمكين والعزة.

الجواب:

هذه المشاعر الصادقة ـ بإذن الله ـ دليل إيمان وتوفيق من الله لك، وأسأل الله لنا جميعًا أن يرزقنا الصدق معه، ولا شكَّ أخي الكريم أن أُمَّة الإسلام فيها بلاء كثير، وهذا مصداق قوله ﷺ في حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه: «**وسيصيب آخرها ـ يعني الأمة ـ بلاءٌ وأمورٌ تُنْكِرونها...**»[1].

(١) أخرجه مسلم (١٨٤٤).

لكن مع هذا فإن حسْن الفأل خير، وحسْن الظن بالله من الإيمان؛ فلا ينبغي أن نيأس، ولا بدَّ من أن ننظر إلى جوانب خيرية في الأمة، لا تزال قائمة اليوم، والعاقبة للمؤمنين، فالاعتدال أيها الأخ لازم لكل مسلم، وقد قال الله لرسوله ﷺ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧، النمل: ٧٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إنما نُهي حتى لا يقعد به العجز والحزن واليأس عن عمل الخير». ومِن مداخل الشيطان أن يحزن الذين آمنوا فيُقْعِدهم عن العمل.

وأما الشهادة فهذه درجة إيمانية، لكن أبشِّرك بما ثبَت في الصحيح: «**مَن سألَ اللهَ الشهادةَ بصدْقٍ بلَّغه اللهُ منازلَ الشهداءِ، وإنْ ماتَ على فراشِه**»(١).

ولستُ أرى أن تذهب إلى أفغانستان أو تحاول هذا؛ لعدم ظهور المصلحة في ذهابك، وبقاؤك ولو في تربية أسرتك لعله خير، ولا تستعجِل أمر الله.



(١) أخرجه مسلم (١٩٠٩) من حديث سهل بن حُنَيف ﷺ.

هل نذهب إلى العراق؟

السؤال:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته! أنا أب لأربعة أولاد، وأريد أن أذهب إلى العراق مجاهدًا؛ لأدافع عن إخوتي المسلمين.

وسؤالي: إذا ذهبت إلى هناك بنية نَيْل رضوان الله، ثم تم قتلي، فهل أكون شهيدًا؟

عندي حياة واحدة فقط، ولا أريد أن أضيعها، فأريد الجواب مُؤيَّدًا من الكتاب والسنة، وأقوال السلف الصالح، والسلام.

الجواب:

أولًا: إذا لم نتصارح ونتعامل بالصدق التام فيما بيننا في مثل هذه الظروف الحرجة البالغة الخطورة فلا خير فينا!

ولا أزعم - أيها الأخ الحبيب - أن ما أقول لك هو بالضرورة صواب، ولكنني أؤكِّد لك أن الحامل عليه هو ما يعلمه الله في قلوبنا من الشُّحِّ بدماء المسلمين وأرواحهم، والْحَدَب عليهم، وتَلَمُّس مصلحتهم العاجلة والآجلة.

ولا أحد من المسلمين إلا وفي قلبه من الْحَنَق والغيظ على هذا العدوان الفاجر ما يكاد أن يودي بسكينته وعافيته، وكفى بالقهر داءً.

ولكننا لا نريد أن نزيد في المحنة بزهوق أرواح خُلَّص أتقياء صلحاء ذوي نيات طيبة، من دون أن يكون في ذلك نكاية بالعدو.

إن الله تعالى يحب حياة المؤمنين وبقاءهم وعبادتهم وصلاتهم، ولذلك خلقهم، ولا يزيد المؤمنَ عمرُه إلا خيرًا، ولما سُئل ﷺ عن خير الناس قال: «**مَن طالَ عمرُه وحسُنَ عملُه**»[1].

فرحيل المؤمن عن هذه الدار ليس مطلوبًا بذاته، ولكن يُشرَع حين تترتَّب عليه مصلحة أعظم من مصلحة بقائه، فإذا عُدِمَت هذه المصلحة أو ضعُفت وجب تقديم اعتبار الحياة والبقاء.

وقبل أن أستطرد أنقل لك هذين النصَّين من كلام الإمام الفقيه العزِّ بن عبد السلام في كتابه: «قواعد الأحكام في مصالح الأنام»:

قال رحمه الله: «انهزام المسلمين من الكافرين مفسدة، لكنه جائز إذا زاد الكافرون على ضعف المسلمين، مع التقارب في

---

(١) أخرجه الطيالسي (٩٠٥)، وأحمد (١٧٦٨٠، ٢٠٤١٥)، والترمذي (٢٣٢٩، ٢٣٣٠)، والحاكم (١/ ٣٣٩)، والضياء (٩/ ٤٣) (٢٠) من حديث أبي بَكْرة وعبد الله ابن بُسر رضي الله عنهما.

الصفات؛ تخفيفًا عنهم؛ لما في ذلك من المشقَّة، ودفْعًا لمفسدة غلبة الكافرين؛ لفرط كثرتهم على المسلمين.

وكذلك التحرُّف للقتال، والتحيُّز إلى فئة مقاتلة بنية أن يقاتِل المتحيِّزُ معهم؛ لأنهما وإن كانا إدبارًا، إلا أنهما نوع من الإقبال على القتال».

وقال: «التولِّي يوم الزحف مَفْسدة كبيرة، لكنه واجب إذا عُلِم أنه يُقتَل مِن غير نكاية في الكفار؛ لأن التغرير بالنفوس إنما جاز؛ لما فيه من مصلحة إعزاز الدين بالنكاية في المشركين، فإذا لم تحصل النكاية وجَب الانهزام؛ لما في الثبوت مِن فوات النفوس، مع شفاء صدور الكفار، وإرغام أهل الإسلام، وقد صار الثبوت ههنا مَفْسدة مَحْضَة ليس في طيِّها مصلحة»[1].

إن من الحقِّ والعدل أن يدافع الشعب العراقيُّ قَدْرَ مُستطاعه عن دينه وأرضه وعِرضه وخيراته، ونحن على ثقة أن دخول الإدارة الأمريكية في هذا المستنقع خطأ غير محسوب، وأن الأحداث ستُثْبِت على المدى الطويل أن الأمر كان حماقة من غير مجرِّب.

لكننا لا نرى ما يدعو إلى ذهاب أحد من المسلمين إلى العراق للمشاركة في الحرب لأسباب، منها:

١ ـ معظم الحرب ستكون ضربات جوية مدمِّرة، وهذه يستوي عندها أن تقتل ألفًا أو مئة ألف، والآلة ستكون ذات أثر في حسم نتيجة المعركة على المدى القصير.

---

(١) ينظر: «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» (١/ ١١١ ـ ١١٢).

٢ ـ أهل مكة أدرى بشعابها وظروفها وطبيعتها الجغرافية، وليس بالناس حاجة إلى الكثرة العددية، وربما كان الذاهب عبئًا عليهم، بدلًا من أن يكون عونًا لهم.

٣ ـ ربما استشرف العدو وتمنَّى القبض على بعض المتطوِّعين في العراق لغايات سياسية وإعلامية ومصالح داخلية وخارجية، وقد تنقطع ببعض الذاهبين السبل، ويقعون في أيدي مَن لا يخاف الله، ولا يراقبه.

٤ ـ عدم وضوح الصورة العملية للحرب الآن، وماذا ستكون عليه؟ وهل ستطول أم تُحْسَم عاجلًا؟ وكيف سيكون الوضع الداخلي؟!

فهذه وأمثالها اعتبارات ذات أهمية، وبالتزام شيء من الصبر، وضبط النفس قد تنجلي عن نتائج لها تأثير في القرار.

٥ ـ ثمة قوى متصارعة متناقضة وكلها مخوف، ومَن نجا مِن هذه فربما لم ينجُ من تلك، فالقوات الغازية من جهة، والمعارضة الموالية للغرب من جهة أخرى، وبعض القوى المحلية الطائفية أو العرقية، وبعض الجيران المتربِّصين، والذاهب يسير بين هذه القوى، وكأنما هو في حقل ألغام، إن أخطأه هذا أصابه ذاك، وقد يجد نفسه في طريق لم يقصُد إليه، ولم يُرِدْه.

٦ ـ من الصدق أن نقول لإخواننا: على الرغم من المرارة والهزيمة النفسية، إلا أن الأمة يجب ألا توقف مشاريعها المستقبلية الفردية والجماعية بسبب الأزمة، بل يجب أن تجتهد

في صناعة المستقبل، وأداء الأفعال المثمرة المنتجة، ولو لم تكن ذات ارتباط مباشر بالحدث.

وهذا لا يعارض أن نعطي الأزمة المتفاقمة مزيدًا من جهدنا ومتابعتنا واهتمامنا وكلماتنا ومواقفنا ودعواتنا ومشاعرنا.

٧ ـ سيكون إخواننا بأمسِّ الحاجة إلينا فيما نملِك تقديمه لهم، وإعانتهم به بحسب ما يتطلَّبه المقام، فهذه الحرب الظالمة ستخلِّف أعدادًا هائلة من الجرحى والمشرَّدين واللاجئين والفقراء والأيتام والأرامل والمحطَّمين، فلنصدُقِ الله تعالى في مواساتهم، ومداواة جراحهم، ومشاركتهم بكل ما نملِك، والوقوف إلى جانبهم، والتلطُّف في دعوتهم وتوجيههم.

٨ ـ لسنا نعلم بالضبط ما تريد القوات الغازية بهذه الأمة بعد العراق، وأين تضع عينها؟ فلها مطامع في كل بلد، وهي تسير وِفْق خطة غامضة يشارك في صناعتها الصهاينة، ومن الخير والحكمة أن يكون لنا مِن بُعد النظر وطول النفس، ورباطة الجأش، وحسن التخطيط ما نعلم به جيدًا أين موضع أقدامنا؛ فإن أي عمل لا يكون مبنيًا على رؤية جيدة، ونظرة بعيدة قد لا يعطي النتائج المطلوبة بل ضرَّ ولم ينفع!

هذا ما أراه اجتهادًا في هذه المسألة الخاصَّة المتعلِّقة بذهاب بعض الشباب وغيرهم للقتال في العراق، والله يشهَد أنني ما قلت الذي قلت إلا مَحْضًا للنصيحة وإعذارًا.

وإذا كان الأمر كذلك فإنني أسأل الله أن يشرح صدور

الإخوة المؤمنين لما كان فيه من حقٍّ وصواب، وأن يهدينا جميعًا إلى سواء السبيل، ونسأل الله سبحانه أن يكفَّ بأس الذين كفروا، والله أشدُّ بأسًا وأشدُّ تنكيلًا، والعاقبة للمتقين.



شروط النصر

السؤال:

لقد تقطَّعت قلوب المؤمنين الذين يرون في وضح من النهار ما يفعله الأعداء بمقدساتنا وإخواننا في العقيدة في فلسطين، وفي كل مكان يُهان به أهل التوحيد، وهذا كله بسبب ضعفنا وبُعْد كثيرين عن منهج الحقّ، فكان لا بدَّ لنا من تبيين ذلك، والشروط التي لا بدَّ لنا منها، وتوضيح بعض ذلك من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]، وشروط النصر الواردة في الآية.. فوائدها وربطها بواقعنا.

الجواب:

ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة من «سورة الأنفال» أسباب النصر:

١ ـ فصدَّر الآية بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ إشارة إلى ضرورة أن تكون معركتنا مع العدو معركة إسلامية، ليست قومية ولا وطنية ولا ترابية، بل نخوضها باسم الإسلام، والإسلام وحده، وبطبيعة الحال فإن الدفاع عن الأرض والعرض والوطن

والمقدَّسات والحقوق الإنسانية هو مِن واجبات الدين.

٢ ـ ثم أمر بالثبات.. الثبات على المبدأ الذي مِن أجله نقاتل، فلا تثنينا عنه المحن، ولا تصدُّنا عنه العقبات: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ۞ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦ ـ ١٤٧].. والثبات في المعركة وإن تطايرت الأشلاء، ونزفت الدماء، وتفاقم الخطب واشتد الكرب.

ومثلي ومثلك قد نجيد رصف الكلمات، وتنميق العبارات، لكننا لسنا متأكِّدين مِن أننا نملك قلوبًا واعية صابرة في وجه الأعاصير، أو في وجه المغريات!!

٣ ـ ثم ثنّى بذِكْره ذِكْرًا كثيرًا، وفي هذا الذكْر مصالح عظيمة:

فهو زاد إلى الآخرة لقوم يُقْبِلون عليها، وهو وسيلة إلى الصبر والثبات، وتذكير بالمبدأ الذي مِن أجله نفاصِل ونقاتِل، وهو جزء من الرعب الذي يُلْقَى في قلوب الكافرين، ولذلك يقول أحد الحاخامات: إنه لا سلام مع العرب ما دام الأذان يرتفع خمس مرات كلَّ يوم في مراكش، ودمشق وبغداد والقاهرة!

ويقول زعيم حزب شاس المتطرِّف ـ وكلهم متطرِّفون ـ: على العرب أن يختاروا بين القرآن والسلام!

٤ ـ يقول الله ﷻ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: ٤٦]،

أي: أطيعوه في الرخاء لتجدوه في الشدة، وأطيعوه في مجريات المعركة وسياقاتها ولواحقها، وكم مِن حرب تبدو شرعية وحقيقتها التعصب والهوى والانتصار للنفس لا لله! وكم مِن حرب تبدأ دينية عادلة، وتنتهي دموية سُلْطَوية عابثة.

٥ ـ قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]؛ إي والله! وماذا أبقى لنا التنازع عبر تاريخنا الطويل إلا الفشل وذهاب الريح؟!

ولربما كان مفهومًا أن نتنازع يوم كان لنا عِزٌّ وقوة وحضارة، لكنه من غير المفهوم أبدًا أن نتنازع ونحن الآن بلا شيء، وكأن بعض حالنا ـ والعياذ بالله ـ كتنازع أهل النار، نسأل الله السلامة.

وطالما لعب اليهود وغيرهم على هذا الوتر، فوظَّفوا التناقضات القائمة بين الفلسطينيين أو بين المسلمين توظيفًا يجعل سهامهم مصوَّبة إلى صدور بعضهم، ويريح عدوَّهم من مواجهتهم.

ويا ليت المسلمين تفطَّنوا لهذا، وجمَّعوا صفوفهم، أو أجَّلوا معاركهم الداخلية حتى يفرغوا من عدوِّهم المتربِّص، وليتهم استثمروا الخلافات والتنازع داخل صفوف أعدائهم، وبذلوا الأموال في تأجيجها وإضرام نارها، فربما كُفُوا بغيرهم.

٦ ـ يقول الله ﷻ: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، والصبر ضرورة للحياة، كما هو ضرورة للإسلام والإيمان، وأنت تجِد اليوم في المتحمِّسين ـ فضلًا عن عامَّة المسلمين ـ نفادًا في الصبر، ومن أجلِّ مظاهره: النَّفَس القصير،

فليس لدينا وقت لنستمع لمَن يقول لنا: استعدُّوا لغد؛ لأننا نريد أن نفرَغ اليوم مِن كلِّ شيء، وكأنه لا غدَ لنا!

لقد قرَّر جماعة من صهاينة اليهود في (بال) بسويسرا إقامة دولة إسرائيل في فلسطين، وتحقَّق الحلم بعد خمسين سنة، والآن كثيرون من أحبَّتنا الشباب يملكون حماسة مؤقتة لمواجهة اليهود الآن، لكن هل تتحوَّل هذه الحماسة إلى إرادة مصمِّمة تستجمِع الوسائل والأسباب لمواجهة اليهود، ولو بعد خمسين سنة؟!!



حكم المجتمع المجاهر بالكبائر!

السؤال:

ما قول السادة العلماء في مجتمع هذا صفته: انتشار الشرك الأكبر ونصرته بالمال، وإقامة الأعياد والمواسم، إيقاد السروج له، وغير ذلك من المنكرات العظام، وظهور الكبائر للعيان، حيث يعلنونها ويجاهرون بها، ويجِدون التشجيع عليها كالزنا، والخمر، والربا، واللواط، والتشبه في اللباس بالكفار والفرنجة، ومَن يستنكرها ويتجنَّبها، كالشعرة البيضاء في الجلد الأسود، إضافة إلى هذا كلِّه علو راية الحكم بغير ما أنزل الله؟

الجواب:

هذه المجتمعات مجتمعات مسلِمة، ولكنها عاصية مرتكبة للمنهيات، فلا يجوز تكفيرهم، ولا اعتبارها دار حرب، بل يبقى الأصل فيهم هو الإسلام، ويُجتهَد في دعوتهم بقَدْر المستطاع.

فالمجتمع البشري يَظَلُّ مجموعة من الأفراد المشتملين على نقائص فطرية، ولا بدَّ، وهو أيضًا مجموعة مِن العلاقات والمصالح التي يصعُب تأطيرها وضبْط معاييرها على سنٍّ

الميزان، ثم هو مؤسسات وقوى متفاوتة في أهدافها ووسائلها.

والسعي في تحقيق الصورة الإسلامية الْمُثْلى هو أساس الرقيّ، لكن مع إدراك مدى الإمكان في الواقع؛ لأن الشرع نفسه ربَط كثيرًا من الواجبات الخاصة الفردية، أو الواجبات العامة الجماعية بالقدرة والاستطاعة، والقدرة قد تكون تعبيرًا عن الإمكانية البدنية أو الذهنية أو الاجتماعية أو المادية، وقد تكون تعبيرًا عن مدى المصلحة في هذا الفعل أو هذا الترك.

وقد ترَك النبي ﷺ إعادة بناء الكعبة على قواعد إبراهيم(١)، وترَك قَتْلَ المنافقين الذين ظهرَ شرُّهم وفسادهم(٢)، وترَك تتبُّع المتخلِّفين عن الصلوات(٣)، وترَك معاجلة الأعرابي الذي بال في المسجد(٤)، من سوابق عديدة يمكن من خلالها، ومِن خلال تتبع مقالات أهل العلم في شأنها، وشأن غيرها تكوين نظرة معتدلة في التوفيق بين المطلوب والممكن.

والنظرة الواقعية ضرورية الآن؛ فإن بعض مَن لم يعالج شؤون الحياة، ولم يلامس ضرورتها وتشابكها قد يحمِل الناس على ما لا يطيقون، وعلى ما جاءت الشريعة بدَفْع مشقته عن

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (١٥٨٦)، و«صحيح مسلم» (١٣٣٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) كما في «صحيح البخاري» (٣٥١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٥٨٤) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٦٤٤)، و«صحيح مسلم» (٦٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) كما في «صحيح البخاري» (٢٢١)، و«صحيح مسلم» (٢٨٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

الخلق، ولو صادف أن وقع هو في شيء كهذا، وأحسَّه في ضرورة نفسه لتغيُّر نظره، وأدرك الفرق بين التصوُّر النظري المعزول عن إمكانيات التطبيق، وبين الرؤية الواقعية المتمثِّلة في الصراط المستقيم: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، والتي هي الهداية في مفردات المسائل إلى ما يحبه الله ويرضاه من طاعته والإحسان إلى خلْقِه، والشرع كله علم وعدْل ورحمة، ولهذا فالله يكره ما يعنت عباده، ويشقُّ عليهم، ويحب اليسر والتيسير، وقد جاء دينه ورسوله ﷺ برفْع الحرج والمشقة عن الناس في تشريعات تعبُّدية وتعاملية لا يأتي عليها الحصر.

ومجالَسة الناس، ومخاطبتهم، والاستماع إليهم، والتعرُّف إلى طبائعهم ومشكلاتهم كفيلة بتحقيق جانب الإدراك الصادق للحال القائم، بينما معرفة الشرع وأحكامه وقواعده وأحواله كفيلة بتنزيل هذا الحكم على الواقع، ومعرفة ما يلائم كلَّ حالة، ولعل بهذا الجواب المجمَل يتبيَّن شيء مما قصَد السائل الكريم إلى استبانته، والله أعلم.





خاتمة

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله تتحقق المرادات، فقد فرغت من هذا الكتاب في مساء يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر صفر من سنة ١٤٣٦ للهجرة.

وكان المقصد الأعظم منه معالجة موضوع القتل، وما يسبقه من التكفير، كما يوضِّحه قول المصطفى ﷺ: **«لا ترجعوا بعدي كفارًا، يضربُ بعضُكم رقابَ بعض»**[١]. ودعوة المسلمين شعوبًا وحكومات وجماعات إلى الإحساس بالمسؤولية عن الواقع المرير لهذه الأمة الذي صار مسخرة لأعدائها، وبسببه تمكَّن الصهاينة وتمددوا وتجرؤوا على ما لم يكونوا يفكرون فيه.

وذلك أن الأمة صارت تشكيلات مختلفة تتقاتل وتتفانى فيما بينها، وكأنها تتصارع على كرسي واحد لا يمكن أن يستوعب الجميع، بينما هي في أرض فسيحة، وثروات هائلة، وإمكانات ضخمة تسع الحاكم والمحكوم، والإسلامي وغير الإسلامي، بل وتسع أصحاب الحق من المسلمين وغيرهم.

---

(١) تقدم تخريجه.

فلماذا التشاح والتشاحن وشن الحروب؟ ألَا يمكن أن يكون السلام والتصالح والاحتواء والتحمل هو أساس العلاقة؟

لماذا يسود شعور الاتهام والظن السيّئ والإقصاء؟

ويسأل الغافل في حيرةٍ   أما لهذا الليل من آخر؟

شكرًا لكل العقول والأقلام التي أسهمت في تصحيح الكتاب وتحسينه بقدر وسعها.

وشكرًا لقراء أخذوا الكتاب بالعفو وحسن الظن، وغضوا الطرف عن بعض ثغرات هنا وهناك لم أتفطن لها، أو ساعدوني في الرقي به في طبعات قادمة.

ولهم جميعًا السلام والحب والإكرام.



المقالات التي اعتمد عليها
في إعداد مادة الكتاب

المقال	تاريخ النشر
في مفهوم الوسطية	٢٨/ ٧/ ١٤٢٢هـ
حتى يغيروا ما بأنفسهم ١، ٢، ٣	٢٨/ ٧/ ١٤٢٢هـ، ١٥/ ٨/ ١٤٢٢هـ
التطرف والتطرف المضاد	١٧/ ٩/ ١٤٢٢هـ
تنويع الخطاب الدعوي	٢٦/ ١١/ ١٤٢٢هـ
حم لا ينصرون	٢/ ٢/ ١٤٢٣هـ
قواعد للحوار مع أهل الكتاب	١٨/ ٤/ ١٤٢٣هـ
مَن لأسرى المسلمين؟ ١، ٢، ٣	٢٥/ ٥/ ١٤٢٣هـ، ١/ ٦/ ١٤٢٣هـ، ٨/ ٦/ ١٤٢٣هـ
فلنتحالف ضد إرهاب أمريكا	٢٤/ ٧/ ١٤٢٣هـ
التوظيف الإيجابي للحدث	١٥/ ١٢/ ١٤٢٣هـ

أمريكا والإرهاب ١، ٢، ٣	٢٢/١٢/١٤٢٣هـ، ٢٨/١٢/١٤٢٣هـ، ٥/١/١٤٢٣هـ
بيت سيئ السمعة	٢٦/٣/١٤٢٥هـ
بروتوكولات حكماء صهيون	٢٩/٥/١٤٢٥هـ
أسئلة مفخخة	١٤/١٠/١٤٢٥هـ
محكات الأخلاق	٢١/١٠/١٤٢٥هـ
إنه العنف	٢٨/١٠/١٤٢٥هـ
لماذا نقسو؟!	٦/١١/١٤٢٥هـ
وداعًا للقسوة!	١٣/١١/١٤٢٥هـ
مداخلة حول العنف والدعوة	٢٠/١١/١٤٢٥هـ
مقصد الجهاد	٢٥/١٢/١٤٢٥هـ
نهاية التاريخ أم نهاية المثقف؟ ١، ٢	١٣/٤/١٤٢٦هـ، ٢٠/٤/١٤٢٦هـ
القتل بدم بارد	١٧/١٠/١٤٢٦هـ
المسؤولية الفردية	٢٦/١/١٤٢٧هـ
كلهم قساة!	١١/٢/١٤٢٧هـ
الحياة في سبيل الله	٥/٣/١٤٢٧هـ
كُن جميلًا	٢٢/٤/١٤٢٧هـ

الزهد الإيجابي	٢٨/ ٥/ ١٤٢٧هـ
المحتل المختل	٩/ ٦/ ١٤٢٧هـ
التسامح الإسلامي	٢٣/ ١٢/ ١٤٢٧هـ
بين الولاء الإسلامي والفطري	٢٠/ ٢/ ١٤٢٨هـ
أدواء التغريب	١٩/ ٣/ ١٤٢٨هـ
التطرف.. مشكلة	٩/ ٥/ ١٤٢٨هـ
العنف.. لماذا؟	٢٣/ ٥/ ١٤٢٨هـ
معالجات العنف	١/ ٦/ ١٤٢٨هـ
فقه الموازنات	٢٠/ ١٢/ ١٤٢٨هـ
تأصيل فقه الموازنة ١، ٢	٢٧/ ١٢/ ١٤٢٨هـ، ٣/ ١/ ١٤٢٩هـ
انكسار الموجة	١٧/ ١٠/ ١٤٢٨هـ
ضروب الموازنات ١، ٢	١٠/ ١/ ١٤٢٩هـ، ١٧/ ١/ ١٤٢٩هـ
العبادة والعنف	٢٩/ ١٢/ ١٤٢٩هـ
قولي في العنف	١٢/ ٢/ ١٤٣٠هـ
أسباب العنف	١٩/ ٢/ ١٤٣٠هـ
أسباب العنف المباشرة	٢٦/ ٢/ ١٤٣٠هـ
مراجعات وممانعات ١، ٢	٢٤/ ٨/ ١٤٣٠هـ، ١/ ٩/ ١٤٣٠هـ

معًا ضد إرهاب القاعدة	١٤/ ١٠/ ١٤٣٠هـ
لعنة الدنيا!	١١/ ٤/ ١٤٣١هـ
الجهاد	٤/ ٩/ ١٤٣١هـ
الجهاد الكبير	٧/ ٩/ ١٤٣١هـ
مفهوم الجهاد	١١/ ٩/ ١٤٣١هـ
القتال وميدانه	١٤/ ٩/ ١٤٣١هـ
جهاد الطلب وجهاد الدفع	١٨/ ٩/ ١٤٣١هـ
العلاقة مع غير المسلمين	٢١/ ٩/ ١٤٣١هـ
الفتوحات الإسلامية	٢٥/ ٩/ ١٤٣١هـ
فقه العواقب	٢٦/ ٧/ ١٤٣٣هـ
المآلات في الكتاب والسنة ١، ٢	١٠/ ٨/ ١٤٣٣هـ، ١٧/ ٨/ ١٤٣٣هـ
شرارة!	١٠/ ٩/ ١٤٣٥هـ
سيُهزمُ الجمعُ!	٢٩/ ٩/ ١٤٣٥هـ
المراسلات الخاصة	تنظر عبر الرابط: <http://www.islamtoday.net/salman/queslist-23-1103-1.htm>.